دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة

«تعنى بتاريخ العرب»

تصدر عن لجنة كتابة تاريخ العرب. جامعة دمشق

السنة الحادية والعشرون / العددان / ٧١-٧٢/

رمضان ١٤٢٠ - ربيع الأول ١٤٢١ / تموز ـ كانون أول / ٢٠٠٠

الاشتراكات	للأفراد	للمؤسسات	للطلاب
في القطر العربي السوري	(٢٠٠) ل.س.	(٤٠٠) ل.س.	(١٠٠) ل.س.
في الأقطار العربية	(٢٠) دولار أمريكي	(٤٠) دولار أمريكي	
في البلاد الأجنبية	(٣٠) دولار أمريكي	(٦٠) دولار أمريكي	

يمكن الاشتراك بمجموعات الأعداد الصادرة منذ عام ١٩٨١ بالبدل نفسه لكل عام، ويتم تسديد بدل الاشتراك بشيك إلى لجنة كتابة تاريخ العرب، أو بتحويل المبلغ إلى حساب جامعة دمشق في مصرف سورية المركزي رقم ٢٣/٣٣٢٣.

المراسلات: لجنة كتابة تاريخ العرب ـ مجلة دراسات تاريخية ـ جامعة دمشق.

المكاتب: جامعة دمشق ـــ هاتف /٢١٢٤٤٦١/

تصميم الغلاف د. بثينة أبو الفضل

شروط النشر في المجلة

إن مجلة دراسات تاريخية هي جزء من مشروع كتابة تاريخ العرب، وخطوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعها الغرض الأساسي، وهو كتابة تاريخ العرب من منطلق وحدوي، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقيد بأسلوب البحث العلمي، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربي، وتسليط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريخ الأمة العربية وأعطته خط مساره الخاص، وإيضاح ماالفه الغموض، وتصحيح ما شوه وكشف الزيف إن وقع، وكل ما يمكن أن يثير جدلاً علمياً واعياً ينتهي عند الحقيقة الموضوعية.

والمجلة ترحب بكم قلم يشارك في إغناء فكرتها وبكل مقترحاً ورأي يساعد في مسيرتها، وتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب وما يتصل به، على أن يراعى فيها ما يلي:

آ- أن تتوافر في البحوث الجدة والأصالة والمنهج العلمي.

ب - أن لا يكون البحث منشوراً من قبل.

جـ- أن يكون مطبوعاً على الآلة، خالياً من الأخطاء الطباعية.

د - تعرض البحوث، في حال قبولها مبدئياً، على محكمين متخصصين لبيان مدى صلاحيتها للنشر، وفق المعايير المذكورة أعلاه، والتعديلات اللازم إدخالها عليها عند الاقتضاء. وتبقى عملية التحكيم سرية.

وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف والاختزال، بما يتوافق مع أغراض الصياغة.

ولا تنشر المجلة قوائم المصادر والمراجع، ولذلك يحسن أن يتقيد السادة الباحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها، على النحو التالي:

أ – في ذكر المصادر والمراجع (للمرة الأولى):

ذكر اسم المؤلف كاملاً وتاريخ وفاته بين قوسين (   ) إن كان متوفى، اسم المصدر أو المرجع وتحته خط، عدد المجلدات أو الأجزاء، اسم المحقق إن وجد، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة إن وجدت، مكان النشر وتاريخه، الصفحة.

ب– في محاضر المؤتمرات:

ذكر اسم الباحث كاملاً، عنوان الدراسة كاملاً بين قوسين مزدوجين « »، عنوان الكتاب كاملاً، اسم المحرر أو المحررين، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة إن وجدت، مكان النشر ومحله، الصفحة.

جـ– في المجلات:

اسم الباحث كاملاً، عنوان البحث بين قوسين مزدوجين « » اسم المجلة كاملاً وتحته خط، رقم المجلد أو السنة، رقم العدد وتاريخه، الصفحة.

ثم ذكر الرمز الذي يشار به إلى المجلة في المرات التالية.

د – في المخطوطات (للمرة الأولى):

أسم المؤلف كاملاً، عنوان المخطوط كاملاً، الجهة التي تحتفظ به، تاريخ النسخة وعدد أوراقها، رقم الورقة من الإشارة إلى وجهها (آ) وظهرها (ب). ثم ذكر ما يشار به إلى المخطوط في المرات التالية.

وتكتب الأسماء الأجنبية بالعربية واللاتينية بين قوسين (   )، ويشار إلى الملاحظات الهامشية بنجمة *. وترقيم الحواشي بأرقام تتسلسل من أول البحث إلى آخره، دون التوقف عند نهاية الصفحات.

يمنح الباحث نسخة من العدد الذي نشر فيه بحثه والأعداد الصادرة خلال ذلك العام، مع عشرين (مستلة) من البحث.

محتويات العدد

بواكير القرى الأولى وبداية الاستقرار في بلاد الشام

الدكتور خالد محمود أبو غنيمة

جامعة اليرموك - معهد الآثار والأنثروبولوجية- اربد

بواكير القرى الأولى وبداية الاستقرار في بلاد الشام

تشير الدراسات الأثرية إلى أن اعتماد الإنسان القديم على الطبيعة في توفير قوته، إضافة إلى الظروف الطبيعية والمناخية التي جعلته يعيش في مناطق الكهوف، والملاجئ الصخرية، ومناطق العراء لفترة طويلة من الزمن للاحتماء فيها من العوامل الطبيعية كالحرارة الشديدة والبرودة القارصة، أو لحماية نفسه من الحيوانات البرية التي كانت تعيش مع السكان جنباً إلى جنب في المناطق التي تعيش فيها جماعات الصيادين. إن طبيعة تكوين ذلك الإنسان الحضاري والفكري واعتماده الكلي على الطبيعة في تأمين كافة احتياجاته يعدان من أهم الأسباب التي حالت دون التفكير بتشييد مساكن، أو استقراره في أماكن أكثر تطوراً من الكهوف. وقد ساهمت تلك الظروف الصعبة وبدائية التفكير والتكنولوجيا عند ذلك الإنسان في قلة وجود أية مظاهر معمارية متميزة في العصر الحجري القديم (Paleolithic). مع نهاية العصر الحجري القديم الأعلى (حوالي ١٤٠٠٠ من الآن) (Upper Paleolithic) بدأت فترة الهولوسين (Holocene) وهي الفترة الأكثر دفئاً خلال الزمن الرباعي (Quaternary)، حيث بدأت منطقة الشرق الأوسط تنعم بمناخ معتدل نتيجة لانتهاء العصور المطيرة التي كانت سائدة خلال فترة البليستوسين (Pleistocene)، مما كان له أكبر الأثر في تغيير الغطاء النباتي والحيواني وخروج الإنسان إلى المناطق الجديدة التي توفرت فيها المصادر الغذائية وهي مجاري الأنهار، والوديان، والسهول، وقد أدى تحسين الظروف الطبيعية والمناخية والتطور الفكري للإنسان العاقل في فترة المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم (Epipalaeolithic) إلى جعله ينتبه لذاته ثم لعلاقته بالبيئة المحيطة به ليفكر بإيجاد مصادر عيش أكثر ضماناً وأدوات متقدمة لتوصله إلى تأمين قوته ثم الشروع في بداية مراحل الاستقرار. وقد تطبع الإنسان في

هذه المرحلة على الشكل الهندسي الدائري الذي كان يمثل الطبيعة (القمر والشمس) إضافة إلى الكهف (السقف والمدخل).

لم يختلف الإنسان القديم في بلاد الشام عن مثيله في مناطق أفريقيا وأوربا في سعيه للحصول على مسكن يقيه من عوامل الطبيعة والحيوانات المفترسة، وتعدّ الكهوف والملاجئ الصخرية وصادات الرياح من أقدم الوسائل التي استخدمها الإنسان القديم في محاولاته للسيطرة على البيئة[١].

وتعدّ البقايا التي يمكن أن تشير إلى كوخ عُثر عليه في موقع اللطامنة على نهر العاصي في سورية من أقدم الدلائل المبكرة على البناء في بلاد الشام. حيث كشفت التنقيبات الأثرية على كوخ أقيم على ضفة نهر العاصي، منذ حوالي نصف مليون سنة. ويستدل على الكوخ من خلال الأرضية السكنية المحاطة بمجموعة من الحجارة الضخمة المنقولة من مناطق مجاورة للموقع[٢].

كما عثر على آثار أحجار مشابهة يمكن أن تكون بقايا كوخ أيضاً ولكن أحدث زمناً ويعود إلى حوالي ٢٠٠ ألف سنة ق.م. في موقع القرماشي الواقع إلى الجنوب من اللطامنة[٣]. وقد استخدم الإنسان القديم في الأردن الملاجئ الصخرية وبعض المناطق في العراء كمأوى ومكان إقامة له خلال العصر الحجري القديم ليقيه من تقلبات الطقس وليحميه من الحيوانات المفترسة. ودلت المسوحات الأثرية التي جرت أخيراً في المناطق المختلفة في الأردن على أن إنسان "العصر الحجري القديم، الأدنى" (Lower Palaeolithic) سكن المناطق المكشوفة ومن أهمها "أبو هابيل" و"أبو الخس" في غور الأردن، و"عين الأسد" في منطقة الصحراء الشرقية، و"الخناصري" في شمال الأردن، و"الفجيج" في جنوب الأردن[٤]. وفي العصر "الحجري القديم الأوسط" (Middle Palaeolithic)، استمر إنسان "النياندرتال" في السكن في مناطق العراء، إضافة إلى الملاجئ الصخرية ومن أهمها "طور صبيحة" و"طور فرج"[٥]. و"ملجأ

الدفلى"و "جرف الدراويش" وموقع "وادي الحسا ٦٢١" في جنوب الأردن، ونواقع "السخنة" و"المرزة الجنوبية" و"أبو علوبة" في غور الأردن(٦)، وعلى الرغم من العثور على مخلفات إنسان "النياندرتال" المادية، إلا أنه لم يعثر على أية بقايا عظمية بشرية في مواقع الأردن. ونلاحظ نمواً في الشعور بالارتباط بالمكان عند إنسان "النياندرتال" وذلك من خلال تعاقب السكن فيها لعدة أجيال في سويات متتالية. واستمر "الإنسان العاقل" الذي عاش في العصر الحجري القديم الأعلى في السكن في الكهوف والملاجئ الصخرية وإن كانت مواقع هذه المرحلة قليلة العدد مقارنة بالفترة السابقة.

وشهدت منطقة المشرق مع نهاية العصر الحجري القديم وحلول المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم (حوالي ١٤٠٠٠ق.م.) حدوث تغيير مناخي تزامن مع نهاية عمر فترة البلايستوسين (Pleistocene) التي شغلت معظم الثلاثة الملايين سنة الماضية من عمر الأرض، وبداية فترة الهولوسين (Holocene) وهي الفترة الأكثر دفئاً في الزمن الرباعي (Quaternary).

تمثّل هذا التغير المناخي بانسحاب الجليد من نصف الكرة الشمالي إلى المناطق القطبية الحالية وحدوث ارتفاع تدريجي في درجات الحرارة مما أدى إلى تحسن مناخي. ساهم هذا التغير المناخي في ظهور غطاء نباتي وحيواني جديد، واختفاء العديد من النباتات والحيوانات البرية الضخمة التي كانت سائدة في الفترة السابقة. هذا التحسن المناخي أدى إلى ترك الإنسان لمناطق سكناه التقليدية والخروج إلى المناطق المكشوفة التي تنمو فيها النباتات البرية لجمعها والحيوانات البرية لصيدها في السهول، والوديان، وفي الغابات، أو حول البحيرات، وعند ينابيع المياه، وضفاف الأنهار، والواقع أن الإنسان لم يهجر الكهوف والملاجئ بشكل مفاجئ، وإنما تركها على مراحل، باستثناء كهف "الكبارا" وذلك بسبب كبر اتساعه، إذ تبلغ مساحته حوالي ٢٠٠م٢ وهي مساحة كبيرة للسكن(٧)، وكهوف يبرود في سورية. وقد قام الإنسان بداية بتسوية المصطبات الأمامية للكهوف الذي كان يقطنها قبل هجرها نهائياً كما هي

الحال في كهف "الواد"، والتي بلغت مساحته حوالي ٥٠٠م٢[٨]وحوالي ١٠٠٠م٢ في كهفي "شقبة" وكهف "الحمام" (هايونيم)*، كما ظهرت مصطبة مماثلة في موقع "وادي الفالح" (نحال أورن) أيضاً. أدى هذا الواقع الجديد بالإنسان إلى محاولة التكيف معه والبدء بحياة شبه مستقرة من خلال ابتكار حلول حضارية ناجعة، كان من أهمها إيجاد أماكن استقرار له في مناطق إقامته الجديدة، وذلك من خلال تشييد مساكن مؤقتة له بديلاً عن الكهوف والملاجئ الصخرية، إضافة إلى العديد من المواقع السطحية الصغيرة المساحة والتي ينتشر على سطحها الكثير من الأدوات الصوانية والتي كانت منتشرة في معظم مناطقه الجديدة، إضافة إلى إيجاد أدوات لتسهيل أمور حياته. وقد فُسِّرت هذه المواقع بأنها محطات كان يتوقف عندها الصيادون أثناء سعيهم وراء الغذاء. وقد تم الكشف في منطقة بلاد الشام عن أقدم الأدلة على الاستقرار من قبل جامعي الطعام في هذه المرحلة. وفي هذه المنطقة توافرت الأحوال الطبيعية المناسبة من مناخ ملائم ومطر موسمي وحيوانات غير أليفة وإنسان نشيط استغل ما يحيط به.

وقد أطلق الباحثون على هذه المرحلة تسميات متنوعة منها مصطلح المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم (Epi- Palaèolithic)[٩]، ويسميها البعض بقرى مجتمعات الصيد[١٠]، والبعض يطلق عليها المرحلة الانتقالية للمجتمعات المنتجة للقوت[١١]، بينما يطلق عليها البعض الآخر عصر الباليوليث الأخير[١٢]، بينما فضل زيدان كفافي تسميتها في ما بعد باسم بداية الاستقرار وبواكير الزراعة[١٣]. وتعد هذه المرحلة مرحلة انتقالية بين العصر الحجري القديم الذي سبقه والعصر الحجري الحديث الذي يليه، وهي مرحلة تحمل صفات مشتركة من العصرين، السابق واللاحق.

---

* لما كانت بعض المواقع الأثرية في فلسطين تذكر في الأبحاث المختصة اليوم بأسمائها الأجنبية الحديثة دون أسمائها العربية الأصلية فأسوق أسماء هذه المواقع العربية أولاً ثم الاسم الأجنبي بعد ذلك تسهيلاً على القارئ في معرفة المواضع المقصودة.

ويتفق الباحثون على تقسيم هذه المرحلة إلى قسمين هما:

١- الثقافة الكبارية التي تقسم بدورها إلى مرحلتين هما:

أ- الكبارية غير الهندسية (حوالي ١٩٠٠٠-١٤٠٠٠ سنة من الآن)

ب- الكبارية الهندسية (حوالي ١٤٠٠٠-١٢٠٠٠ سنة من الآن)

٢- الثقافة النطوفية (حوالي ١٢٠٠٠-١٠٥٠٠ سنة من الآن)

١- قرى مرحلة الثقافة الكبارية (خارطة رقم ١):

سيتم تناول المرحلة الكبارية بشكل عام دون الدخول في تفاصيل تقسيمات المرحلة الكبارية إلى مرحلتين هما الكبارية غير الهندسية، إذ أن التقسيمات تمت بناءً على الاختلاف في الصناعات الصوانية بينما تميزت القرى الأولى التي نشأت في تلك المرحلة بخصائص متشابهة في المحلة الكبارية غير الهندسية والكبارية الهندسية.

يتضح من نتائج المسوحات والتنقيبات الأثرية في مناطق بلاد الشام وجود نمطين من مناطق الاستقرار في هذه الفترة. يتمثل النمط الأول بالمواقع المحتوية على مخلفات معمارية، بينما تمثل النمط الثاني بالمواقع الصغيرة الخالية نهائياً من المخلفات المعمارية، وسنتحدث هنا عن النمط الأول وهو ما يدخل في صلب موضوعنا بينما سنتجاوز عن نمط الاستيطان الثاني وهو عبارة عن مواقع وجدت الأدوات الصوانية منتشرة على السطح.

وعلى الرغم من عدم العثور على قرى بالمعنى المتعارف عليه في هذه الفترة، إلا أنه يمكننا اعتبار الأكواخ البسيطة المكتشفة في بعض مواقع هذه الفترة كنواة نشوء القرى في بلاد الشام. إذ كشفت التنقيبات الأثرية في مواقع "خربة العاشق١" (عين جيف١) (Ain Gev1) و"أوهالو٢" (OhaloII) في فلسطين عن بقايا معمارية بسيطة التكوين. وتميزت مواقع الاستيطان في هذه الفترة بكونها أقرب لمراكز الصيادين، أو

مخيمات بسيطة، من كونها قرى، إذ لم تحتوي هذه المواقع سوى على عدد قليل من الأبنية الدائرية، المشيدة بالطين أو الحجارة، لا يتجاوز قطرها ٥ أمتار، ذات أرضية طينية أو مرصوفة بالحجارة والحصى، ومدافن حفرت تحت الأرضيات الطينية المدكوكة، ضمت الهياكل البشرية والمرفقات الجنائزية، كما هو الحال في موقع "خربة العاشق١" (عين جيف١) (Ain Fev1). وموقع "أوهالو٢"[١٤] في فلسطين. كما احتوت هذه المساكن على مواقد، وأدوات صوانية وعظمية، وأدوات الطحن والجرش، إضافة إلى عظام الحيوانات التي اصطادها إنسان تلك الفترة. وهذا يشير إلى وجود شعور بالاستقرار والارتباط بالمكان عند إنسان هذه الفترة. ويبدو الأمر نفسه في الأردن، وإن لم تكشف التنقيبات الأثرية سوى عن عدد قليل من المواقع المحتوية على مخلفات معمارية. وتتميز مواقع هذه الفترة في الأردن بعدم الكشف عن بقايا مساكن كاملة، وإنما تم العثور فقط على بعض العناصر المعمارية فيها كالأرضيات الطينية والمواقد كما هو الحال في الطبقة "ب" في موقع "الخرانة٣"، إضافة إلى مدفنين حفرا تحت الأرض ضما هيكلين بشريين ومرفقات جنائزية[١٥]، وموقع "وادي جيلات٩"[١٦]، وموقع "وادي الحمة٢٦"[١٧]، أو كالمواقد فقط، كموقع "عويند١٨"[١٨] أو موقع "وادي الحسا١٠٦٥" الذي احتوى على حفر وبقايا جدران[١٩]. ويدعو ذلك إلى الاعتقاد بأن الإنسان القديم قد أقام في خيم أو مواقع خفيفة البناء وذلك باستخدام هذه المواقع كمراكز مؤقتة للصيد أو الاستراحة.

ولم تكشف المسوحات والتنقيبات الأثرية في سورية عن أية مواقع تعود للمرحلة الكبارية غير الهندسية تحتوي على مخلفات معمارية.

وأدى التحسن المناخي الذي شهدته منطقة بلاد الشام مطلع الألف الثانية عشرة ق.م. إلى زيادة انتشار الثقافة الكبارية الهندسية حتى وصلت من ميناء العقبة في الجنوب إلى البادية السورية في الشمال. ورغم هذا الانتشار الواسع للثقافة الكبارية الهندسية، إلا أن المسوحات والتنقيبات الأثرية لم تكشف سوى عن عدد يسير من

مواقع النمط الأول مقارنة بمواقع النمط الثاني. ويستدل من دراسة نتائج المسوحات والتنقيبات الأثرية التي جرت في بلاد الشام على أن إنسان هذه الفترة لم يهجر مناطق سكناه التقليدية (الكهوف والملاجئ الصخرية) كلياً، بل قام بتسوية الشرفات أمام مداخل تلك الكهوف والمساحات الأخرى المحيطة بها إضافة إلى قيامه ببناء مساكن له في مناطقه الجديدة.

ويستدل من دراسة البقايا المعمارية المكتشفة في بعض المواقع إلى استمرار استخدام إنسان هذه الفترة للمخطط المعماري المستخدم في الفترة السابقة، إذ كشفت التنقيبات الأثرية في موقع "نفه دافيد" (Neve David) بالقرب من حيفا عن مساكن دائرية أو بيضوية الشكل، قطرها حوالي المتر، شيدت من الحجارة الغفل، كما عثر على موقد ومدفنين يضمان بقايا هيكلين، أحدهما يضم مرفقات جنائزية، وبعض العناصر المعمارية[٢٠]. وعثر في موقع "عراق الزيقان" (Iraq ez-Ziqan) على جدارين متوازيين، شيدا بحجارة جيرية غير مشذبة بطول ٨م وعرض ١,٥م، كما عثر على بناء دائري شيد أيضاً من الحجارة الجيرية، كما عثر في وسط البناء على حجر ضخم ذي سطح أملس. وكذلك عثر على أدوات صوانية وعظام حيوانات ضخمة وصغيرة وأصداف وقطع من المغرة الحمراء فوق الأرضية وعلى بعض الحجارة في "عراق الزيقان".

كما احتوت بعض المواقع على بعض المظاهر المعمارية البسيطة فقط كجدران، أو أرضيات ومواقد فقط دون الكشف عن مساكن كاملة كما هو الحال في موقع "خربة العاشق٣" (عين جيف٣)، كما عثر على أدوات صوانية، وعظام حيوانات وأدوات طحن بازلتية في موقع "خربة العاشق٣".

وفي الأردن لم تكشف التنقيبات الأثرية عن قرى كبارية هندسية، وإنما تم الكشف عن بعض المواقع المحتوية على بعض العناصر المعمارية فقط. ويعد موقع

"الخرانة٤" من أفضل الأمثلة على قرى هذه الفترة في الأردن. فقد كشفت التنقيبات في السوية "د" عن أرضية طينية دائرية الشكل تحتوي على عدد من الحفر الصغيرة استخدمت كركيزة للأعمدة الخشبية الداعمة للسقف، كما عثر على خمسة مواقد محاطة بالحجارة(٢١). كما عثر في الموقع على عدد كبير من الأدوات الصوانية والعظمية، والأدوات الحجرية، إضافة لكميات كبيرة من عظام الحيوانات التي صادها الإنسان في تلك الفترة للاستفادة من لحومها وجلودها. أما في سورية فيعد موقع "أم التلال" من أوائل المواقع التي احتوت على مسكن شبه مستدير الشكل (أبعاده ٥م×٦٠٠ ٢م) مع موقد مركزي مؤلف من حوض بسيط محفور له مخطط بيضوي مملوء برواسب رمادية(٢٢). وتشير نتائج التنقيبات الأثرية في موقع "الندوية٢" عن وجود موقد(٢٣). كما عثر في موقع "الكوم١" (التل الرئيسي) على بعض العناصر المعمارية المتمثلة بالمواقد(٢٤).

وعلى الرغم من قلة المعلومات التي لدينا عن هذه الفترة، إلا أنه يمكننا التحدث عن نمو وتطور في بعض المجالات، كالمجال الاقتصادي، والمعماري، والديني في هذه القرى الأولى وذلك من خلال تحليل "جدول رقم١".

في المجال الاقتصادي، فإننا لا نلاحظ وجود تغيير جذري في الواقع الاقتصادي والاجتماعي عند إنسان هذه الفترة، الذي بقي اعتماده اقتصادياً في تأمين غذائهم على الطبيعة مع اختلاف بسيط في الأولويات، إذ أصبح اعتماده أكثر على الالتقاط والجمع ثم الصيد وذلك بالتقاط حبوب القمح والشعير وعلى صيد الحيوانات البرية، وبخاصة الغزلان والثيران، رغم التجديد والتطور التقني والفكري عند إنسان هذه الفترة وانعكاسه على مختلف المجالات كالتطور الحاصل في مجال الأسلحة والأدوات، والعمارة، وعادات الدفن، وغيرها. ويستدل على ذلك من الزيادة المضطردة في الأدوات الداخلة في إتمام الغذاء النباتي المتمثل بظهور الشفرات ذات الحواف (المناجل) المستخدمة في حصد النباتات البرية، وازدياد أدوات الطحن

والجرش كالمدقات، والهاون، والمجاريش الذي استخدمت في طحن الحبوب قبل تناولها من قبل الإنسان. كما أن البقايا الحيوانية المكتشفة في قرى هذه المرحلة تشير إلى استهلاكها بحالتها البرية.

المجال المعماري:

على الرغم من قلة المخلفات المعمارية في المواقع العائدة لهذه المرحلة المكتشفة في بلاد الشام، إلا أنها تمدنا بمعلومات هامة عن محاولات الإنسان "الكباري" لتطويع البيئة والمحيط الذي يعيش فيه. اقتصرت المخلفات المعمارية على أسس لأكواخ بسيطة أو مساكن دائرية الشكل مؤلفة من غرفة واحدة، أو مساكن محفورة في الأرض مع أسس دائرية من الحجارة، أو مجرد أرضيات مرصوفة بالطين أو الحجارة، ومواقد.

المجال الصناعي:

تميزت المرحلة الكبارية بسيطرة الأدوات الصوانية الميكروليثية وخصوصاً الأدوات ذات الأشكال الهندسية، على شكل المعين والمثلث أو شبه المنحرف. كما تم ابتكار الأدوات المركبة التي كانت مكونة من مجموعة من الأدوات الصوانية الصغيرة موضوعة داخل مقبض من العظم أو الخشب لتشكل في النهاية سكيناً، أو منجلاً.

ويستدل من خلال الأدوات الحجرية المكتشفة في الفترة الكبارية وجود تحسن في تقنية صناعة الأدوات الحجرية، إذ يلاحظ وجود ميل كبير نحو صناعة الأدوات المكملة والمتممة للغذاء كالمجاريش والمدقات والهاون...وغيرها، والذي يؤكد ما تحدثنا عنه سابقاً في المجال الاقتصادي. كما أن التطور الصناعي لم يقتصر على الأدوات الصوانية بل يلاحظ تطوراً في مجال صناعة الأدوات ذات الصبغة الجمالية والتزينية كالأساور، والخواتم التي صنعت من العظام أو من الصدف.

المجال الديني:

من الصعوبة بمكان التحدث عن طقوس أو معتقدات دينية في قرى الفترة الكبارية في ظل ندرة الأدلة المادية التي تشير إلى ذلك، إلا أننا نستطيع التحدث فرضياً عن وجود معتقد ديني ما عند الإنسان "الكباري" وذلك من خلال المدافن المكتشفة في نطاق القرية الكبارية وما تحويه من مرفقات جنائزية، أو وضعيات وطرق الدفن، إذ تشير هذه المدافن بشكل أو بآخر إلى معتقد ما عند ذلك الإنسان من خلال قيامه ربما بطقوس معينة قبل الدفن، وإلى استمرار فكرة ارتباط الشخص المتوفي مع جماعته.

ويتضح مما سبق بأن الحياة الاقتصادية والاجتماعية لعبت دوراً في النمط المعماري المتمثل بوجود غرفة واحدة في البيت مما يشير إلى أن إنسان هذه المرحلة لم يستخدم المسكن لغايات السكن فقط وإنما استخدمه أيضاً كمكان للاستخدام اليومي وذلك من خلال وجود المواقد في معظم المواقع التي عثر فيها على مظاهر معمارية. ويتضح مما سبق ذكره، بأن الإنسان الكباري لم يصل بعد إلى مرحلة الاستقرار الدائم وإنما كان استقراره مؤقتاً، ولفترة زمنية محددة وبقي يعتمد اعتماداً كبيراً على التنقل والالتقاط والصيد. ويتضح ذلك من خلال الكشف على أعداد كبيرة من المواقع المكشوفة والسطحية في مختلف مناطق بلاد الشام.

٢- قرى الثقافة النطوفية (خارطة رقم ١):

لقد تميزت الفترة النطوفية بتحسن كبير في المناخ تمثل بهطول أقل للأمطار وارتفاع في درجات الحرارة ما أدى إلى تراجع الغابات والأشجار وانتشار غطاء نباتي جديد. أدى هذا التحسن مع عوامل أخرى إلى هجر النطوفيين للكهوف نهائياً تقريباً، واستقرارهم في مناطق جديدة بالقرب من مصادر المياه ومناطق نمو النباتات البرية. وقد ساهم التحسن في ازدياد عدد القرى واتساعها. وتبين نتائج المسوحات

والتنقيبات الأثرية استمرار وجود نمطين من القرى في الفترة النطوفية، تمثل النمط الأول بالقرى الصغيرة المؤقتة والخالية نهائياً من أية مخلفات معمارية أو الأدوات الثقيلة. ويتمثل النمط الثاني بالقرى الكبيرة الدائمة ذات مساحة تبلغ آلاف الأمتار المربعة، والمسكونة من قبل أعداد كبيرة من السكان يتراوح عددهم بين ١٠٠-٢٠٠ شخصاً. وقد ارتبط تأسيس هذه القرى بالاتجاه الجديد للاقتصاد الذي بدأ مع بداية الفترة الكبارية وذلك بالاعتماد على التقاط وجمع الحبوب البرية والصيد.

وتظهر التنقيبات الأثرية في بلاد الشام ازدياداً في عدد القرى النطوفية واتساعاً في مساحتها، فقد كشفت النقاب عن قرى نطوفية في مواقع "عين الملاحة" (عينان)(٢٥)، "مصطبة هايونيم"(٢٦)، "مصطبة وادي الفلاح"(٢٧)، "مصطبة الواد"(٢٨)، "وادي الحمة٢٧"(٢٩)، "عراق الدب"(٣٠)، "المريبط"(٣١)، و"أبو هريرة١"(٣٢) خارطة رقم ١).

وسنتناول بالحديث هنا خصائص القرى النطوفية في بلاد الشام بشكل عام دون الدخول في تفاصيل كل قرية على حدة، وذلك لتشابه المميزات العامة للقرى كالبناء، والفنون، وعادات الدفن، والأدوات مع بعضها بعضاً، واحتوائها تقريباً على نفس الخصائص مع الاختلاف في بعض التفاصيل أحياناً. يتميز مخطط القرى النطوفية باستمرار الشكل الدائري كنمط معماري لمساكن الفترة النطوفية، فقد كشفت التنقيبات الأثرية عن مساكن دائرية من غرفة واحدة، محفورة داخل الأرض، صغيرة المساحة، تتراوح أقطارها بين ٢-٩م، ذات أرضية من الطين المدكوك، ومشيدة من الحجارة أو الطين والخشب. استندت سقوف هذه المساكن إلى أعمدة خشبية داخلية. ويستدل من قيام الإنسان النطوفي بطلاء أرضية المساكن الطينية بالألوان (عين الملاحة)، أو برصف الأرضيات بالحجارة (عين الملاحة، البيضاء)، أو بطلاء الجدران (عين الملاحة، المريبط)، إضافة إلى وجود الأدوات الثقيلة المستخدمة في طحن وجرش الحبوب في معظم المواقع(٣٣)، إلى إعطائنا الشعور بوجود حياة متقدمة وناضجة منذ

ذلك الوقت. وزودت المساكن بالأحواض، والمواقد، ومستودعات خزن الحبوب، مما يشير إلى حسن تنظيم الإنسان النطوفي، ومحاولته إيجاد وسائل لتسهيل أمور حياته اليومية. كما ضمت معظم القرى النطوفية مناطق دفن، غالباً، تقع داخل المنطقة السكنية، وتميزت هذه المدافن بوجود الهياكل الفردية أو الجماعية، ومنزوعة الرأس في بعض الأحيان. سجيت الهياكل غالباً بوضعية القرفصاء، وعلى الظهر أو أحد الجانبين. كما زودت الهياكل بمرفقات جنائزية متنوعة.

وظهرت في القرى النطوفية أولى الأمثلة على تطور الفنون في بلاد الشام، إذ عثر في بعض المواقع مثل "عين الملاحة"، "وادي الفلاح"، "الواد"، "أم الزويتينة"، "وادي الفلاح"، "كبارا"، "عين صخري"، على العديد من الدمى الطينية البسيطة والمختزلة التي جسدت أشكالاً حيوانية وبخاصة الغزال الذي يظهر بشكل كبير أيضاً على المقابض العظيمة للأدوات.

ويعدّ تمثال موقع "عين صخري" والذي يمثل زوجاً بشرياً يتعانق في وضع جالس، وتمثال شخصي في "عين ملاحة" ورأس صغير تخطيطي في "الواد" من أهم الأمثلة على الفن النطوفي(٣٤)، كما وجد مثال آخر عن الفنون تمثل باللوحة الحجرية المزخرفة بزخارف محفورة بشكل غائر وفي داخلها خمس وستون حفرة صغيرة، كما عثر على ثلاث لوحات حجرية رملية محفور عليها زخارف هندسية مكونة من خطوط دائرية الشكل، مستندة إلى جدار أحد البيوت في موقع "وادي الحمة٢٧"(٣٥).

وكشفت التنقيبات الأثرية في مدافن "الواد" و"عين الملاحة" عن أولى دلائل تدجين الحيوانات وذلك من خلال العثور على هياكل لكلاب صغيرة مدفونة مع هياكل بشرية(٣٦).

وكشفت التنقيبات الأثرية في القرى النطوفية عن أعداد كبيرة من الأدوات الصوانية وأدوات الطحن والجرش البازلتية، والأدوات العظمية المصنعة، وكميات

كبيرة من بقايا عظام الحيوانات التي صادها واستهلكها الإنسان النطوفي، كما عثر على قطع من حجارة الأوبيسديان المستورد، وأنواع عديدة من الصدف.

وخلاصة القول فإنه يمكننا التحدث عن تجذير بعض المظاهر الحضارية في القرى النطوفية من خلال دراسة "جدول رقم٢" والذي يبين القرى النطوفية والمخلفات المادية المكتشفة خلال الحفريات الأثرية فيها.

١- المجال الاقتصادي:

تشير المخلفات المادية المكتشفة في المواقع النطوفية على أن النشاط الاقتصادي في هذه المرحلة كان قائماً على جمع النباتات والصيد، ويستدل على ذلك من ازدياد الأدوات المستخدمة في عملية إنتاج الغذاء النباتي كالأدوات الصوانية المستخدمة في حصد النباتات البرية كالمناجل الصوانية المكونة من شفيرات صغيرة وضعت داخل مقابض عظمية، مما يدل على نشاط مكثف في التقاط النباتات البرية. وعثر على بقايا حبوب برية كالشعير، والقمح البري في المواقع، كما وجد العديد من المناجل في المواقع النطوفية كموقع "وادي الحمة٢٧" في الأردن، وموقع "كهف الود" و"كهف الكبارا" وموقع "عين الملاحة"، وموقع "أم الزويتية" في فلسطين. وكذلك يشير وجود أدوات الطحن والجرش البازلتية غالباً إلى طحن الحبوب وجرشها قبل تناولها من قبل الإنسان النطوفي. كما تشير المكتشفات الأثرية إلى استمرار عملية الصيد كأحد المصادر الرئيسة لتزويد الإنسان النطوفي بالغذاء. ويستدل على ذلك من وجود البقايا العظمية للحيوانات التي اصطادها الإنسان النطوفي في معظم المواقع النطوفية، ويعُد الغزال، الذي ساد في منطقة بلاد الشام بسبب توفر المناخ الملائم له (مناخ جاف قليل الأمطار)، من أكثر الحيوانات المفضلة للصيد بسبب توفر المناخ النطوفي، إذ تشكل بقايا الغزلان أكثر من ستين بالمئة من بقايا الحيوانات المصطادة في الفترة النطوفية، كالأيل، والأغنام، والماعز، والخنزير البري، والثور البري. ولعب صيد

الحيوانات المائية دوراً مهماً في الاقتصاد النطوفي، ويستدل على ذلك من خلال العثور على بقايا الأسماك، إضافة إلى الأدوات العظمية المستخدمة في الصيد كالخطاطيف والصنانير في العديد من المواقع المجاورة للمجاري المائية، والبحيرات.

٢- المجال المعماري:

يستدل من دراسة المخلفات المعمارية المكتشفة النطوفية في بلاد الشام على اتساع مساحتها واستمرار المخطط الدائري كنمط معماري في هذه الفترة، مع ازدياد في عدد المساكن. ونستطيع من خلال المخلفات المادية وضع بعض التصورات عن عمارة الفترة النطوفية. شيدت مساكن القرى النطوفية داخل حفر أو على سطح الأرض مباشرة من الحجارة أو الطين والخشب، وذلك حسب ما هو متوفر في البيئة المحلية، إذ نجد أن مساكن جنوب بلاد الشام شيدت من الحجارة والطين وذلك بسبب توفرها بكثرة في معظم المناطق.

بالمقابل، فإن مساكن سورية شيدت من الطوب والأخشاب وذلك بسبب ندرة الحجارة في مناطق نشوء القرى النطوفية الأولى وتوفر الطين بكثرة. وتكونت مساكن القرى النطوفية من غرفة واحدة مزودة بأحواض، ومواقد، ومستودعات تخزين للحبوب، وسقفت بالأخشاب والأغصان المدعومة بأعمدة خشبية داخلية، وطليت الأرضيات الطينية وجدران بعض المساكن بالألوان أو رصفت الأرضيات بالحجارة.

٣- المجال الصناعي:

تميزت الثقافة النطوفية باستمرار سيادة الأدوات الميكروليثية الهندسية (Geometric Microlithic) المتمثلة بوجود الأدوات ذات الشكل الهلالي، واستخدام الأدوات المركبة بشكل أكثر من الفترة السابقة، مما يشير إلى ازدياد الحاجة إليها في حصد الحبوب. كما تطورت أدوات الطحن والجرش المصنوعة من الحجارة البازلتية سواء من ناحية العدد أو الأشكال أو من ناحية الزخرفة[٣٧]. كما انتشرت الأدوات

العظمية في معظم القرى النطوفية، وتمثلت بشكل كبير بأدوات الصيد النهري كالخطاطيف والصنانير، أو أدوات الخياطة كالأبر والمثاقب الخاصة بثقب الجلود، كما استخدمت العظام والصدف في صناعة أدوات الزينة كالأساور والخواتم، كما ظهرت لأول مرة في بلاد الشام في الفترة النطوفية التماثيل البشرية والحيوانية المصنوعة من الحجارة أو الطين أو على القطع العظمية المستخدمة كمقابض للأدوات المركبة.

٤- المجال الديني:

كما تحدثنا سابقاً، فإن الحديث عن المعتقد الديني سيكون قائماً على الافتراض المستند على المخلفات المادية التي تركها الإنسان في القرى النطوفية. وسيستند افتراضنا إلى ثلاثة مصادر هي المدافن، والمرفقات الجنائزية، والتماثيل.

المدافن:

تتميز القرى النطوفية باحتوائها على مدافن داخل المنطقة السكنية، ضمت عدداً كبيراً من الهياكل البشرية، واستخدام النطوفيون طريقة الدفن الفردي أو الجماعي في مدافنهم، وسجيت الهياكل على الظهر أو أحد الجانبين، بوضعية القرفصاء أو الثني، وأحياناً بوضعية التمدد، ودون توجيه محدد للجثة. كما لوحظ في بعض المدافن وجود بعض الأدلة على وجود مدفن كالمدقات المغروسة وسط المدفن كما هو الحال في مدافن "وادي الفلاح"، وكهف "هايونيم"، وكهف "الواد" ولوحظ في المدافن النطوفية تغطيتها بلوح حجري واحد أو بألواح حجرية ضخمة وبرصف أرضية المدفن بالحجارة، أو طلاء أرضية المدفن بالطين. ولوحظ اهتمام الإنسان النطوفي بالجمجمة وتمثل ذلك بإحاطتها أحياناً بالحجارة، أو بدفن الجمجمة منفردة، كما تميزت المدافن النطوفية بوضع مرفقات جنائزية متنوعة كعظام الحيوانات، أو أدوات الزينة كالأساور، والخواتم، والرأسيات*، والأحزمة والعقود، وقطع المغرة، كما صبغت

* الرأسيات: عقد من عدة حلقات يلتف حول الرأس.

الهياكل بالمغرة الحمراء[٣٨].

المرفقات الجنائزية:

من الأمور اللافتة للنظر، قيام الإنسان النطوفي بتزويد المدافن بمرفقات جنائزية لجميع المتوفين دون استثناء أحد، ولم يشذ عن ذلك سوى عدد قليل من المدافن. وضمت المرفقات الجنائزية للمتوفي أدوات متنوعة يستخدمها الإنسان في حياته اليومية، فاحتوت المدافن أدوات زينة كالأساور، والخواتم، والرأسيات، والأحزمة، والعقود المصنوعة من الأصداف أو عظام الحيوانات، كما احتوت على مرفقات جنائزية مكونة من عظام حيوانات، أو قطع من المغرة الحمراء، وفسر وجود هذه المرفقات كنوع من الاعتقاد بحياة ما بعد الموت[٣٩].

التماثيل:

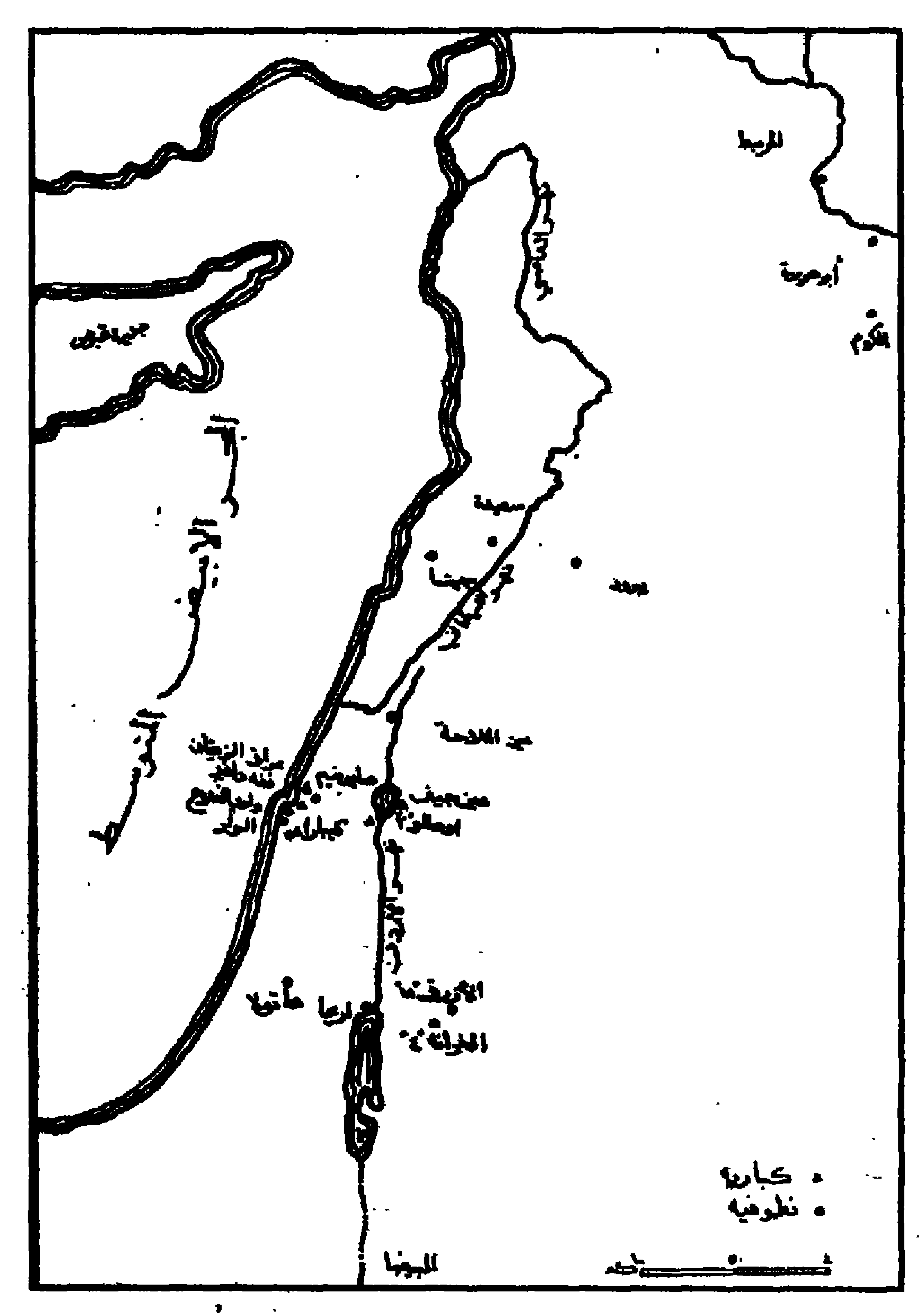
تتميز الفترة النطوفية في بلاد الشام بنمو الحس الفني، أن أولى النماذج للفنون في بلاد الشام قد ظهرت في هذه الفترة، رغم أن الفنون قد بدأت في المناطق الأخرى منذ العصر الحجري القديم الأعلى. وقد وجدت التماثيل ذات الأشكال البشرية والحيوانية بالقرب من المدافن أو في داخلها. ومثلت التماثيل والقطع العظمية المستخدمة كمقابض للأدوات بعض الحيوانات وخاصة الغزال الذي يعتقد بأنه لعب دوراً كبيراً عند النطوفيين، إضافة للتماثيل البشرية التي مثلت بطريقة بسيطة ومختزلة.

١- المجال التجاري:

يستدل على وجود علاقات تجارية بين المناطق المختلفة من خلال المخلفات المادية المكتشفة في المواقع المختلفة ومعرفة نوعها ومصادرها الأصلية. فتشير قطع الأوبسيديان المكتشفة في موقع "المريبط" في سورية إلى وجود علاقات أو صلات معينة بين موقع "المريبط" ومناطق وجود حجر الأوبسيديان في الأناضول. كما يستدل

من وجود الخرز والأصداف المستخدمة في صناعة أدوات الزينة في مختلف القرى النطوفية البعيدة عن مصادر وجودها إلى نوع من الصلات الاقتصادية والتجارية.

ومن خلال ما سبق ذكره أعلاه، نلاحظ أن حياة إنسان المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم قد شهدت تطوراً ملموساً سواء في قراه الموسمية أو مواقعه المكشوفة. ويمكننا القول إن المرحلة اللاحقة للعصر الحجري قد شهدت بداية تفكير الإنسان بأهمية استقراره وارتباطه بالأرض التي تقدم له الخيرات وذلك من خلال تشييده لمساكن وأكواخ له بقرب العيون ومناطق نمو النباتات البرية. وقد حملت هذه المرحلة في ثناياها بذور نشوء وتطور القرى الزراعية الأولى في العصر الحجري الحديث، إذ تشير الاكتشافات الأثرية إلى أن منطقة بلاد الشام قد شهدت بداية الإنجاز المعماري في هذه المرحلة حيث رصد العديد من المساكن المؤقتة في مختلف المواقع، وعلى الرغم من بساطتها إل أنها تمدنا بتصورات محدودة تمكننا من ملاحظة محاولات الإنسان لتطويع الظروف الطبيعية المحيطة به. كما أن الزيادة والتنوع الملحوظين في إعداد الأدوات الداخلة في إتمام الغذاء النباتي تشير إلى اتجاه الإنسان للاستفادة من النباتات البرية بشكل واسع لسد حاجاته الأساسية، كما تشير بقايا عظام الحيوانات المكتشفة لقدراته لسد حاجاته المعيشية. وتعد هذه العملية الخطوة الأولى في عملية استئناس وتدجين النباتات والحيوانات.



خارطة رقم -١- خريطة القوى الكبارية والنطوفية

جدول رقم (١) يبين المخلفات المادية المكتشفة في القرى والمواقع الكبارية

الموقع:	عمارة: موقد:	أرضية:	بناء	مدفن:	أدوات طحن:	أدوات عظمية:	أصداف	أدوات زينة
١- أوهالو٢	X	X	X	X	X	X	X	X
٢- عين جيف١	X	X	X	X	X	-	-	-
٣-خرانة٤(سوية ب)	X	X	-	X	X	X	-	-
٤- عويند١٨	X	-	-	-	X	-	X	X
٥-وادي الحمة٢٦	X	-	-	-	-	-	-	-
٦-وادي الحسا١٠٦٥	X	-	-	-	-	-	-	-
٧-وادي جيلات٩	X	X	-	-	-	-	-	-
٨- نفة دافيد	X	X	X	X	X	-	-	-
٩- عين جيف٣	X	X	X	-	X	-	-	-
١٠- عراق الزيقان	X	-	X	-	-	-	-	-
١١-خرانة٤(سويةد)	X	X	-	-	X	-	-	-
١٢-الكوم١(التل الرئيسي)	X	-	-	-	-	-	-	-

جدول رقم (٢) يبين المخلفات المادية المكتشفة في القرى والمواقع النطوفية

الموقع:	عمارة:			مدفن:	أدوات طحن:	أدوات عظمية:	أصداف	أدوات زينة
	موقد:	أرضية:	بناء					
١- عين الملاحة	X	X	X	X	X	X	X	X
٢- مصطبة وادي الفلاح	X	X	X	X	X	X	X	X
٣- كهف هايونيم	X	X	X	X	X	X	X	X
٤- مصطبة هايونيم	X	X	X	X	X	X	-	-
٥- مصطبة الواد	X	X	X	X	X	X	X	X
٦- عرق الأحمر	X	-	X	X	X	X	X	X
٧- وادي الحمة٢٧	X	X	X	X	X	X	X	X
٨- البيضا	X	X	-	-	X	-	-	-
٩- عراق الدب	-	X	X	-	-	X	-	X
١٠- عراق راحوب	-	X	-	-	X	-	-	-
١١- عين السرطان	X	X	-	X	X	X	X	X
١٢- الطبقة	-	-	-	-	X	-	X	X
١٣- كهف جاوه	-	-	-	-	X	-	-	-
١٤- المريبط	X	X	X	-	X	X	X	X
١٥- أبو هريرة	X	X	X	-	X	X	X	X

الهوامش

1- Oakley K.P., 1952 **"Man the Tool Maker"**. 2nd ed. London.

٢-محيسن، سلطان ١٩٩٥-١٩٩٦ **"عصور ما قبـــل التـــاريخ"**. ص: ١٢٨-١٢٩. جامعة دمشق.

٣-محيسن، سلطان ١٩٩٥-١٩٩٦ **نفس المصدر**. ص:١٢٩.

4- Muheisen M., 1988a **"Le Paléolithique et L épipaléolithique en Jordanie"**. Unpublished Doctorat d'Etat. Université de Bordeaux I. Bordeaux. P. 333-335.

5- Henry D., 1988 "Summary of Prehistoric and Palaeoenvironmental Research in the Northern Hisam". In :Garrard A. and Gebel H. –G., (eds): **The Prehistory of Jordan. The State of Researche in 1986**. BARI. S., 396 (I):p. 11.

6- Muheisen M., 1988a **Op. Cit.** :336- 337.

7- Turville- Petre F., 1932 Excavations in the Mugharet el-Kebarah. **Journal of the Royal Anthropological Institute** 62: 270-276.

8- Garrod D. A. and Bate D. M. A., 1937 **The Stone Age of Mount Carmel** I. Oxford, Clarendon Press.

٩- محيسن، مجاهد ب. ت. **"عصور ما قبل التاريخ في الأردن"**. نص مطبوع غـير منشور.

١٠- محيسن، سلطان ١٩٩٥-١٩٩٦ مصدر سابق ص:١٩٣.

كوفان، جاك ١٩٩٥ **"القرى الأولى في بلاد الشام من الألف التاســـع حتـــى الألف السابع ق.م"**. ص:٥٥. ترجمة الياس مرقص. دار الحصاد. دمشق.

Cauvin J., 1978 **"Les premiers villages de Syrie-Palestine de IX éme au VIIéme Millénaire avant J.C"**. Lyon, Maison de l'Orient.

١١- كفافي، زيدان ١٩٩٠ "**الأردن في العصور الحجرية**". ص:٢٦. منشـــورات آل البيت. عمان.

١٢- محيسن، سلطان ١٩٩٤ "**بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ: المزارعـــون الأوائل**". ص: ٩. الأبجدية للنشر. دمشق.

١٣- كفافي، زيدان ب. ت "**بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ**". ص:٨. بحـــث مقدم للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لينشر في كتـــاب المرجـــع فـــي تاريخ الأمة العربية.

14-Nadel D., 1993 "Ohalo II". **New EAEHL** III: 1116.

Nadel D., 1994 "Levantine Upper Palaeolithic, Early Epipalaeolithic Burial Customs: Ohalo as a Case Study". **Paléorient** 20: 113-122.

15-Muheisen M., 1988a **Op. Cit.** :338.

Rolston S. L., 1982 "Tow Prehistoric Burials from Kharaneh". **Annual of the Deparment of Antiquities of Jordan** 26:223.

16-Garrard A., Byrd B., Harvey P. and Hivernel F.,1985 "Prehistoric Environment and Settlement in the Azraq Basin. Report on the 1982 Survey Season". **Levant** 17:1-28.

Garrard A. Byrd B., and Betts A., 1986 "Prehistoric Environment and Settlement in the Azraq Basin. An Interim Report on the 1984 Excavation Season". **Levant** 18: 5-24.

Garrard A. Betts A., Byrd B., and Hunt C., 1987 "Prehistoric Environment and Settlement in the Azraq Basin. An Interim Report on the 1985 Excavation Season". **Levant** 19: 5-25.

17-Edwards P., Bourke S. J., Colledge S. M., Head J. and Macumber P.G., 1988 "Late Pleistocene Prehistory in the Wadi al-Hammeh, Jordan Valley". In: Garrard A. and Gebel H., (eds.) :**The Prehistory of Jordan. The State of Researche in 1986.** BARI. S., 396(ii) :525-565.

18-Garrard A . and Byrd B. and Hunt C., with contributions by Colledge S., Copeland L., Montague R. and West B., 1988

"Summary of Palaeoenvironmental and Prehistoric Investigations in the Azraq Basin. in : Garrard A. and Gebel H. –G., (eds.): **The Prehistory of Jordan. The State of Researche in 1986.** BARI. S., 396(i) :325-326.

19-Clarck, G. A, Majchrowicz, D. and Coinman, N. 1988 "A Typological Study of Upper Palaeolithic Collections from the Wadi al-Hasa Survey with Observations on Adjacent Time-Stratigraphic Uints. P. 206. In : MacDonald B., (ed.) : **The Wadi al-Hasa Archaeological Survey (1979-1983), West-Central Jordan Waterloo.** Wilfridlaurier University Press 1988.

20-Kaufman D., 1987 "Excavations at the Geometric Kebaran Site of Neve David, Israel. A Preliminary Report". **Quartar** 37-38 : 189-199.

Kaufman D., 1989 "Observations on the Geometric Kebaran : A View from Neve David". In: in : Bar-Yosef O. and and B. Vandermeersch B., (eds.) :**Investigations in South Levantine Prehistory /Prehistorie du Sud-Lvant.** : BAR international Series 497 : 277-279.

21-Muheisen M., 1988a **Op. Cit.** P.362.

Muheisen M., 1988b Le gisement de Kharaneh IV, note sommaire sur La phase D. **Paléorient** 14/2: 265-269.

22-Molist M., avec la collaboration de cauvin M. –C., 1991 Le gisement de Umm el Tlel 2(el- Kowm, Syrie): Rapport Préliminair des travaux (1987-1989). **AAAS** 37-38: 68.

23-Cauvin M. –C., and Coquegniot E., 1989 Techniques d'Echantillionnage et Analyse Spatiale: Le campement pipaleolithique de Nadaouiyeh 2 (El Kowm, Syrie). BAR International Series 522: 18.

24-Cauvin M. –C., and Coquegniot E. and Nierlé 1982 "Rapport Préliminaire sur La campagne 1980 d'El Kowm 1". **Cahiers de L'Euphrate** 3: 27.

25-Belfer-Cohen A., 1988 The Natufian Graveyard in Hayonim Cave. **Paléorient** 14/2: 297-308.

Belfer-Cohen A., 1991Art Items from Layer B, Hayonim Cave: a Case Study of Art in a Natufian Context. in: Bar-Yosef O. and Valla F., (eds.): **The Natufian Culture in the Levant** 569-586. Ann Arbor: International Monographs in Prehistory.

Bar- Yosef O., 1991 "The Archaeology of the Natufian Layer at Hayonim Cave". In: Bar-Yosef O. and Valla F., (eds.): **The Natufian Culture in the Levant:** 81-92. Ann Arbor. International Monographs in Prehistory.

26-Henry D., 1973 **The Natufian of Palestine. Its Material Culture and Ecology**. Ph. D. Dissertation. Southern Methodist University. Microfilm, 1980.

Henry D. and Leroi-Gourhan Arl., 1976 "The Excavation of Hayonim Terrace: An Interim Report". **Journal of Field Archaeology** 3: 391-406.

Henry D. and Leroi-Gourhan Arl., 1981 "The Excavation of Hayonim Terrace: An Excamination of Terminal Pleistocene Climatic and Adaptive Changes". **Journal of Archaeological Science** 8: 33-58.

Valla F., Le Mort F. and Plisson H., 1991 "Les fouilles en cours sur la Terrase d'Hayonim". In: Bar-Yosef O. and Valla F., (eds.): **The Natufian Culture in the Levant:** 93-110. Ann Arbor. International Monographs in Prehistory.

27-Noy T., 1993 Oren, Nahal **New EAEHL** III: 1166-1170.

28-Garrod A. E. and Bate D.M. A., **1937 The stone Age of Mount Carmel, 1.** Oxford.

29-Potts T. F., Colledge S. M. and Edwards P., 1985 Preliminary Report on a Sixth Season of Excavation by the University of Stdney at Pella in Jordan (1984/1984). **ADAJ** 29: 181-210.

Edwards P. C., 1087 **Late Pleistocene Occupation in the Wadi Al-Hammeh, Jordan Valley.** Sydney, University of Sydney: Unpublished Doctoral Thesis.

Edwards P. C., 1988 Natufian Settlement in the Wadi Hammeh 27. **Paléorient 14/2:309-115.**

Edwards P. C., 1991 Wadi Hammeh 27: An Early Natufian Site at Pella, in: Bar-Yosef O. and Valla F., (eds): **The Natufian Culture in the Levant**: 123-148. International Monographs in Prehistory, Archaeological Series 1.

Edwards P. C., 1992 The Epipalaeolithic and Period in: McNicoll A. W., Edwards P. C., Hanbury-Tension J., Hennessy J., Potts T., Smith R., Walmsley A. And Watson P., (wds): **Pella in Jordan** 2:1-16.

Edwards P. and Culture B., 1993 Final Excavations at the Natufian Site Wadi Hammeh 27 in: Walmsley et al: The Eleventh and Twelfth Seasons of Excavations at Pella (Tabaqat Fahl), 1989-1990: **ADAJ** 37:175-178.

30-Palumbo G., Mabry J. and Kuijt I., 1990 "The 1989 Wadi El-Yabis Survey Test Excavations". : **ADAJ** 34:95-118.

31-Cauvin J., 1977 Les Fouilles de Mureybet (1971-1974) et leur Signification Pour les Origines de la Sédentarisation au Proche-Orient. AASOR 44:19-48.

كزفان، جاك ١٩٩٥ "**القرى الأولى في بلاد الشام من الألــف التاســع حتــى الألف السابع ق.م**". ترجمة الياس مرق، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق.

32-Moore A., Hillman G. and Legge J., 1975 "The Excavations of Tell Abu Hureyra in Syria. A Preliminary Report". **PPS** 41: 50-77.

Moore A., 1991 "Abu Hureyra I and the Antecedents of Agiculture on the Middle Euphrates". In Bar-Yosef O. and Valla F., (eds) **The Natufian Culture in the Levant:** 277-294. International Monographs in Prehistory, Archaeological Series 1.

33-Wright K., 1992 **Ground Stone Assemblage Variations and Subsistence Strategies in the Levant 2 2000 to 5500 b.p.** Unpublished ph. D Thesis. Vol. 2. Tables and Figures. Yale University. P. 467-470.

٣٤- كوفان، جاك ١٩٩٥، مصدر سابق، ص١٧١، الرسم ٢٢-٢٣.

35-Edwards P. C., 1991 Wadi Hammeh 27: An Early Natufian Site at Pella, Jordan in: : Bar-Yosef O. and Valla F., (eds): **The Natufian**

Culture in the Levant: 123. International Monographs in Prehistory, Archaeological Series 1.s

36-Perrot J. et Ladiray D., 1988 **Les hommes de Mallaha (Eynan) Israel: 1 Les Sépultures.** Mémoires et Travaux du Centre de Recherche Français de Jérusalem No 7: 1-106. Association Paléoroent. Paris.

37-Wright K., 1992 1992 **Ground Stone Assemblage Variations and Subsistence Strategies in the Levant 2 2000 to 5500 b.p.**

٣٨- أبو غنيمة، خالد ١٩٩٨ "**أساليب الدفن وعاداته في العصور الحجرية الأولى (٩٥٠٠-٨٥٠٠ق.م.) في بلاد الشام**". مجلة أبحاث اليرموك، المجلد ١٤، العدد ٤، ص١٠٧. جامعة اليرموك-اربد.

٣٩- أبو غنيمة، خالد **نفس المصدر**، ص١٠٧.

مملكة آلالاخ

الأستاذ الدكتور عيد مرعي

قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة دمشق

مملكة آلالاخ

تتميز سورية بغناها الأثري والتاريخي الممتد بعيداً في أعماق الزمن. فمنذ عصور ما قبل الكتابة استوطن الإنسان مناطق مختلفة منها، وأقام مدنه الأولى مستفيداً من غناها بالموارد الطبيعية المتعددة، ومن موقعها كجسر واصل ما بين مناطق الشرق القديم المختلفة.

من هذه المدن آلالاخ Alalach التي يُعرف موقعها الحالي باسم تل عطشانة الواقع عند المجرى السفلي لنهر العاصي بالقرب من إنطاكية في لواء اسكندرون السليب، جرى التنقيب في هذا الموقع وفي موقع الميناء القديم الواقع على بعد /٣/ كم غربي تل عطشانة، عند مصب العاصي في المتوسط، والمعروف باسم تل أو قرية الشيخ يوسف، على سبعة مواسم ما بين أعوام ١٩٣٧-١٩٣٩ و١٩٤٦-١٩٤٩، وذلك من قبل بعثة بريطانية برئاسة ليونادر وولي L. Woolley الذي كان قد حقق الشهرة والمجد من خلال تنقيباته في جنوبي العراق وكشفه عن مقبرة أور الملكية عام ١٩٢٢.

وقد أظهرت تلك التنقيبات، التي نشر وولي نتائجها في عامي ١٩٥٣ و١٩٥٥[١]، أن الإنسان استوطن في موقع الميناء منذ العصر الحجري الحديث (ما بين الألف الثامن والخامس قبل الميلاد)، إذ تم العثور على تمثال للإلهة الأم من الحجر المصقول يمثل امرأة جالسة، ارتفاعه ٧٧مم، وعرضه ٥٣مم[٢].

وعُثر أيضاً على فخار محلي أسود اللون، وعلى فخار حلف المطلي الذي يرقى تاريخه إلى العصر الحجري النحاسي، وعلى أختام مسطحة منحوتة من الحجر أو العظم[٣].

إن اكتشاف فخار حلف في هذا الموقع يدل على أن هذه المنطقة لم تكن معزولة، بل كانت لها علاقات مع مناطق بعيدة كمنطقة الجزيرة المركز الأول لفخار حلف المشهور.

أما موقع تل عطشانة فقد كشفت الحفريات فيه عن سبع عشرة سوية أثرية، يمتد تاريخها من بداية العصور البرونزية (بداية الألف الثالث) حتى بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد(٤)، زمن غزوات شعوب البحر التي دمرت آلالاخ وغيرها من المدن الساحلية السورية وصولاً إلى دلتا النيل في مصر.

عُثر في السوية السابعة عشرة على فخار مصنوع بوساطة الدولاب، وبنى السكان معبداً لعباده آلهة المدينة، وقد تم تجديده خمس عشرة مرة وبأشكال مختلفة وتم تكريسه لأكثر من إله. وله شكل مكعب من الآجر مساحته خمسة أمتار مربعة، وارتفاعه أربعة أمتار(٥).

وبُني فوقه معبد آخر في السوية السادسة عشرة فيه ساحة رئيسة طولها ثمانية عشر متراً، وعرضها ستة أمتار، وأرضها مرصوفة بمربعات من الفخار، وتحيط بها جدران مبنية بالآجر المطلي بطينة ملساء وكلس أبيض.

كانت السوية السادسة عشرة معاصرة للنصف الثاني من عصر أوروك (نحو ٣٢٠٠ق.م)، والسوية الخامسة عشرة معاصرة بدايات عصر جمدة نصر (٣١٠٠ق.م) والسوية الرابعة عشرة معاصرة لعصر جمدة نصر (نحو ٣١٠٠-٢٩٠٠ق.م) في جنوبي بلاد الرافدين. والدليل على ذلك الصحون الفخارية المتماثلة.

وعُثر في إحدى الحجرات من السوية الثالثة عشرة على ختم أسطواني نقش فيه مشهد وليمة مقدسة يشبه ما كان سائداً في بلاد الرافدين خلال النصف الأول من عصر السلالات الباكرة (٢٩٠٠-٢٧٠٠ق.م)(٦).

وكشفت الحفريات في السوية الثانية عشرة عن أعمدة من اللبن تشبه تلك التي عُثر عليها في أوروك في عصري أوروك وجمدة نصر. وتم العثور أيضاً على ختمين أسطوانيين من نموذج أختام عصر السلالات الباكرة في بلاد الرافدين. ويبدو أن بدايات نشوء القصر الملكي، وقيام سلطة حاكمة غير دينية تعود إلى هذه الفترة.

إن هذا التشابه الكبير بين مكتشفات آلالاخ وآثار جنوبي بلاد الرافدين يدل على وجود اتصالات وثيقة ما بين المنطقتين منذ بدايات الألف الثالث قبل الميلاد على الأقل. ويبدو أن آلالاخ استفادت من موقعها القريب من جبال طوروس الغنية بالفضة، وجبال الأمانوس الغنية بالأخشاب التي كانت مطلوبة بكثرة في بلاد الرافدين، وجعل اتصالها مع ممالك جنوبي بلاد الرافدين قوياً ومستمراً. وبما أن الملك شاروكين، مؤسس الإمبراطورية الأكادية في جنوبي بلاد الرافدين يذكر في كتاباته أنه وصل إلى "غابة الأرز وجبال الفضة"، أي الأمانوس وطوروس، فمن المحتمل جداً أنه هو المسؤول عن تدمير أبنية السوية الثانية عشرة في آلالاخ(٧).

تتصف السويات السابعة والرابعة بغنى أكبر بالمعلومات التي تمدنا بها المنطقة. فقد تم العثور في هاتين السويتين، بالإضافة إلى الأبنية واللقى الأثرية، على مجموعة الألواح الطينية المكتوبة بالخط المسماري واللغة الأكادية (اللهجة البابلية) يزيد عددها عن خمسمائة لوح، وتعود إلى فترتين زمنيتين مختلفتين من الألف الثاني قبل الميلاد.

تلقي المجموعة الأقدم، المكتشفة في السوية السابعة، أضواءً على العلاقات بين آلالاخ ويمحاض في نهاية القرن الثامن عشر وخلال القرن السابع عشر قبل الميلاد، عندما كانت آلالاخ تشكل جزءاً من مملكة يمحاض القوية التي كانت تشمل بسلطتها شمالي سورية كله آنذاك.

أما المجموعة الثانية، وهي الأحدث، وكُشف عنها في السوية الرابعة، فيرقى

تاريخها إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد أي إلى الفترة التي كانت آلالاخ خلالها مملكة تابعة لإمبراطورية حوري-ميتاني.

وقد تمت قراءة هذه الألواح وترجمتها ونشرها من قبل الإنكليزي وايزمن D.J. Wiseman عام ١٩٥٣ في مجلد بعنوان: The Alalakh Tablets, London 1953.

من الجدير بالذكر أن محفوظات إيلا الملكية العائدة إلى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد تذكر آلالاخ بصيغتين أ- لا-لا-خو و إ-لا-لا-خو[٨]، دون أن تقدم لنا أية معلومات عن وضعها ومكانتها السياسية، أو أي شيء آخر. ولكن يمكن القول أنها كانت تدخل ضمن نفوذ مملكة إيلا آنذاك.

نعرف من خلال نصوص آلالاخ أسماء بعض ملوك يمحاض، وأسماء حكام آلالاخ، حيث يذكر أبا-إل Abba-Il بن حمورابي الأول وخليفته على عرش يمحاض، الذي بدأ حكمه في منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد وكان يسيطر على مناطق تقع شرقي الفرات، وتخضع له إيمار وكركميش.

ويتحدث نصان من نصوص آلالاخ (١و٤٥٦ من السوية السابعة) عن قيامه بالقضاء عل تمرد نشب ضده في مدينة إريّتي Iritte الواقعة شرقي الفرات، التي كان يحكمها أخوه ياريم ليم.

وكتعويض لياريم ليم عن تلك المدينة التي دُمرت عند القضاء عل التمرد، أعطاه أبّا-إل آلالاخ وموررار وبعض القرى الأخرى في منطقة العمق ليحكمها باسمه.

نستنتج من ذلك أن منطقة العمق بكاملها، ومن ضمنها آلالاخ بالطبع، كانت تتبع مملكة يمحاض خلال القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد. وتبين ألواح السوية السابعة أن آلالاخ كانت لها علاقات تجارية مع مدن ومناطق سورية مختلفة، إذ تظهر في قوائم الجرايات أسماء أشخاص من تونيب وأمورو وإيمار وقبرص

كمتسلمين لجرايات . ويذكر إلى جانب ذلك مدن إيلا وأوجاريت وموررار وأرازيــــق. وهناك ذكر لأشخاص وخيول وتاجر من أمورو[٩]. ويبدو أن علاقـــات آلالاخ بـــإيلا كانت قوية. فأحد النصوص مؤرخ بالسنة التي زوّج فيها الملك عميّ تاقوم ملك آلالاخ ابنه من ابنة حاكم إيلا[١٠]. ويشير نصان آخران إلى رحلات ملك آلالاخ أو سعاته إلى إيلا[١١].

بالإضافة إلى ذلك هناك إشارة إلى علاقات مع أوجاريت وإيمار وكركميــــش. فالنص رقم /٣٤٩/ يذكر أن حاكم كركميش أرسل ثمانية وعشرين ألفاً وثمانيــــة رأس من الأغنام إلى آلالاخ، ولكن دون أية إشارة إلى الغرض من وراء ذلك. هناك احتمال أن المرء احتاج صوف هذه الأغنام في آلالاخ لإنتاج الأنسجة، لذلك أُرسلت الأغنـــــام كصفقة تجارية من كركميش إلى آلالاخ.

وتذكر نصوص السوية السابعة المشتغلين بصناعة النسيج مرات متعددة. ربمـــا يكون هذا إشارة إلى المركز البارز لصناعة الأنسجة وأهميتها فــــي اقتصــــاد آلالاخ. ومن المعتقد أن الأنسجة التي تذكرها نصوص مــــاري كأنســـجة يمحاضيــــة، كــــان مصدرها آلالاخ. إذ أن آلالاخ كانت تؤلف في ذلك الوقت جزءاً من مملكة يمحـــــاض، ومن الطبيعي أن تكون التجارة الخارجية باسم المملكة، وليس باسم جزء منها، لذلـــــك عُرفت الأنسجة المصدرة نسبة إليها وليس إلى آلالاخ.

بالنسبة للوضع الاجتماعي في آلالاخ في القرن السابع عشـــر قبـــل الميــــلاد، فيمكن معرفة بعض جوانبه من خلال بعض المعلومات الواردة في النصـــــوص التــــي تعود إلى عهدي ياريم ليم وابنه عميّ تاقوم.

كان السكان يتألفون من طبقتين رئيسيتين هما الأحرار والعبيد. ويتمتع الأحرار بالامتيازات المختلفة، ونميز بينهما الموظف والتاجر والفلاح والحرفي وغيرهم. أمــــا العبيد فكانوا نوعين عبيد الدين، وهم مواطنون عليهم العمل في بيـــت مدينـــهم حتـــى

يسددوا دينهم مع الفائدة التي تتراوح ما بين ٢٠-٢٥%، وإذا لم يستطيعوا السداد كانت تهددهم العبودية الدائمة. بهذه الطريقة حصل الملك، الذي كان الدائن في معظم الأحيان، على أيدٍ عاملة رخيصة تعمل في قصره أو أرضه.

والنوع الثاني من العبيد هم المدينون الذين تحولوا إلى عبيد دائمين بسبب عجزهم عن سداد ديونهم وأسرى الحروب. من الجدير بالذكر أن عدد هؤلاء لم يكن كبيراً، وكان معظمهم يعمل في خدمة الملك ويمكن بيعهم وشراؤهم، ويصل سعر العبد منهم إلى نحو خمسة وعشرين شيقلاً من الفضة (نحو ٢٠٠غرام)[١٢].

من أهم المكتشفات الأثرية التي تعود إلى هذه الفترة قصر ياريم ليم الذي بناه فوق قصر أقدم منه، وكان يغطي مساحة قدرها ١٠٠×٣٠م. وقد شكل اثنان من جدرانه المبنية من اللبين وبسماكة بلغت نحو ٢,٤م جزءاً من سور المدينة الذي كان يبلغ ارتفاعه نحو ثمانية أمتار، اتجاهه شمالي جنوبي، وله مدخل وحيد على طوله الغربي يقود إلى قاعة كبيرة تفصل بين جناحي القصر المؤلفين من عدد كبير من الحجرات. ويبدو أنه كان مؤلفاً من طابقين، بدليل وجود درج كبير في زاويته الشمالية[١٣]. وقد جُهز القصر بمغاسل من أحجار متشابكة، ومجارٍ للمياه المالحة لنقلها إلى خارج المدينة[١٤]. وعُثر في قاعة الاستقبال الرسمية على بقايا رسوم جدارية مزخرفة بأشكال هندسية تشبه تلك الأشكال التي كانت تزين جدران القصر الملكي في كنوسوس في جزيرة كريت، كما أن تصميم القصر وأسلوب بنائه وتزيينه وغير ذلك من تفاصيل معمارية يشبه ما هو موجود في قصر كنوسوس وأبنية أخرى في كريت[١٥].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: أيهما الأقدم؟ قصر ياريم ليم في آلالاخ أم قصر كنوسوس في كريت. يجيب السيد ليونارد وولي على ذلك بقوله: إن قصر آلالاخ أقدم بنحو قرن من الزمن من قصر كنوسوس أو غيره من القصور الكريتية.

وتدين جزيرة كريت بهندسة أبنيتها وزخرفتها وزينتها إلى سورية[١٦].

توقف التطور التاريخي الحضاري في آلالاخ، الذي تمثله السوية السابعة نتيجة حملات الحثيين على شمالي سورية اعتباراً من منتصف القرن السابع عشر قبل الميلاد. فاعتباراً من ذلك التاريخ شعرت دولة خاتي التي قامت في آسية الصغرى واتخذت من خاتوشا (حالياً بوغازكوي شرقي أنقرة) عاصمة لها، إنها قوية بشكل كافٍ لترنو بأنظارها إلى ما وراء جبال طوروس. وكان الوضع الدولي مناسباً لتحقيق مثل هذه الأهداف. فمصر كانت ضعيفة، وتُحكم من قبل الهكسوس، بينما كان خلفاء حمورابي البابليون منشغلين بالقضاء على أعداء يهددون حكمهم. يفتخر الملك الحثي خاتوشيلي الأول (نحو ١٦٥٠ق.م) بحملاته على شمالي سورية فيقول: "في العام التالي (٢) سرت ضد آلالاخ ودمرتها بعد ذلك سرت ضد أورشو، ومن أورشو سرت إلى إغاكاليش، وسرت من مدينة إغاكاليش إلى تيشخينيا في طريق عودتي دمرت بلاد أورشو وملأت بيتي بكنوز...في العام التالي (٦) سرت ضد مدينة زارونتي، ودمرت زارونتي. سرت ضد خاشو. أمامه (أمام الملك) اتخذ العدو مواقعه، وكانت قوات مدينة حلب معه. في جبال أدالور (جزء من جبال الأمانوس) ألحقت بهم الهزيمة[١٧].

مع ذلك لم تكن كل الحملات الموجهة إلى سورية مكللة بالنصر، كما يحاول هذا النص أن يبين. فخاتوشيلي لم يستطع السيطرة على حلب، وترك مهمة إخضاعها لخليفته مورشيلي الأول.

بالنسبة لآلالاخ كشفت الحفريات عن آثار حريق كبير شمل القصر الملكي بكامله، فالجدران الآجرية السميكة تهدمت بالكامل، وتحول الملاط المؤلف من الرمل والكلس إلى ذرات من الزجاج [١٨].

بعد هذه الفترة، تتميز المعلومات المتوافرة عن آلالاخ بقلتها، إذ لا تمدنا مكتشفات السويات السادسة والخامسة بأية آثار هامة. ونعرف من المصادر الحثية أن

شمالي سورية، ومن ضمنه آلالاخ بالطبع، بقي خاضعاً بشكل اسمي للمملكة الحثية القديمة. واستمر هذا الخضوع حتى ظهور إمبراطورية حوري-ميتاني في منطقة الجزيرة وتوسعها باتجاه الغرب، باتجاه سواحل المتوسط الشرقية في أواخر القرن السادس عشر وبدايات القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

وتمثل هذه الفترة في آلالاخ السوية الرابعة التي عُثر فيها على مجموعة من الألواح المسمارية التي تمدنا بمعلومات هامة عن التطورات التي حدثت في آلالاخ آنذاك، ويتمتع نقش إدريمي العائد إلى هذه الفترة بأهمّية خاصة بين النصوص المكتشفة. وهو عبارة عن سيرة ذاتية نقشت على تمثال إدريمي ملك آلالاخ المنحوت من حجر كلسي (يتكون من خليط من الدولوميت والمغنيزيت)، وموجود حالياً في المتحف البريطاني في لندن، وقد عُثر على هذا التمثال البالغ ارتفاعه متراً واحداً وخمسة سنتمترات في ربيع عام ١٩٣٩م محطماً في حفرة في أرضية بناء ملحق بمعبد المدينة، رأسه مفصول عن جسده وعُثر في البناء على عرش من البازلت ارتفاعه خمسة وستين سنتمتراً، ووجد أمام العرش مذبح مربع الشكل من البازلت أيضاً ارتفاعه تسعة وثمانين سنتمتراً.

من المعتقد أن التمثال كان مقاماً في معبد مدينة آلالاخ عندما هاجمتها شعوب البحر في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ودمرتها. وبالطبع تم تدمير المعبد وتكسير التمثال الموجود فيه.

يعد التمثال من ناحية فنية عملاً متواضعاً، له وجه قبيح ومضحك، لكنه يظهر إدريمي جالساً على عرش واضعاً يده اليمنى على صدره واليسرى على حجره، عيناه جاحظتان ووجه خالٍ من أية حيوية، تلف جسمه عباءة معروفة من تماثيل سورية أخرى، ويعتمر قلنسوة مخروطية كان يلبسها الملوك والآلهة السوريون. لكن أهمية التمثال وقيمته تكمن في النقش الذي يحمله على واجهته الأمامية والمؤلف من مائة

وأربعة سطور منقوشة بالخط المسماري واللغة الأكادية يمثل سيرة ذاتية يروي فيها إدريمي قصة حياته والأعمال التي قام بها، في بداية النقش يقدم إدريمي نفسه ويذكر اسم والده (السطران ١-٢)، وفي السطور ٣-٦ يذكر أن تمرداً حدث في حلب مقر حكم أبيه، وأرغمه هو وأخوته على الهرب إلى مدينة إيمار حيث يقيم أقرباء أمه:

أنا إدريمي بن إليم- إليمّا

خادم أدد وخيبات وعشتار سيدة آلالاخ، سيدتي.

في حلب بيت أبي

حدثت اضطرابات وهربنا إلى

سادة إيمار أخوة

أمي، وسكنا في إيمار[١٩].

مما لا شك فيه أن التمرد الذي حدث في حلب كان بتأييد من مملكة حوري-ميتاني التي كانت تحاول في أواخر القرن السادس عشر وبداية القرن الخامس عشر قبل الميلاد مد سيطرتها باتجاه الغرب، نحو ساحل المتوسط. كانت حلب قبل ذلك قد فقدت دورها الهام في شمالي سورية نتيجة الاحتلال الحثي بقيادة مورشيلي الأول في بداية القرن السادس عشر قبل الميلاد. ولكن بعد موت مورشيلي الأول مرت الإمبراطورية الحثية في مرحلة من الضعف والفوضى نتيجة الصراعات الداخلية التي حلت بها. فاستطاعت حلب وخلال هذه المرحلة استعادة استقلالها وقوتها ودورها الهام في المنطقة، وقام على حكمها الملوك شارا-إل وأبّا-إل وإليم- إليمّا والد إدريمي.

أدى سقوط حلب وهرب أسرة إدريمي نتيجة التمرد الذي حدث فيها إلى أن يمد باراتانا ملك مملكة حوري-ميتاني نفوذه حتى سواحل البحر المتوسط الشرقية. لا ترد في النص تفاصيل ما حدث في حلب، ولكن بما أن النص لا يذكر شيئاً عن هرب

إليم-إليمّا والد إدريمي مع الهاربين إلى إيمار، فيمكن القول أنه قُتِلَ خلال التمرد الذي حدث، أو أن موته الطبيعي كان دافعاً للقيام بالتمرد.

كانت إيمار واقعة خارج منطقة نفوذ إليم -إليمّا. أما في القرنين الثامن والسابع عشر قبل الميلاد فكانت تحت سيطرة ملوك يمحاض، وكانت تقوم بينها وبين آلالاخ علاقات قوية.

بعد اقامة غير محددة في إيمار غادرها إدريمي متوجهاً إلى أرض كنعان في جنوب غربي سورية، وذلك عبر بادية الشام. أما الأسباب التي دعته إلى التوجه إلى أرض كنعان دون سواها فكانت على ما يبدو، قرب هذه المنطقة من البحر ومن مناطق النفوذ المصري في سورية، مما يسّهل الاتصال مع المصريين، وطلب العون منهم، إذا دعت الحاجة، من أجل العودة إلى مملكة أبيه. يضاف إلى ذلك أن أرض كنعان كانت ملجأ للعديد من سكان ملكة إليم- إليما، كما يرد في النقش صراحة:

حصاني وعربتي وخادمتي

أخذتها، وفي أرض الصحراء

عبرت ولدى جماعات السوتيين

دخلت. معه (مع الخادم)

بتُّ أمام عرش زاكار. وفي اليوم الثاني

رحلت وإلى أرض كنعان

وصلت. في ارض كنعان

تقع مدينة أميّا.

في مدينة أميّا سكن

أناس من حلب، وأناس من أرض موكيش،

وأناس من أرض نيخي، وأناس من أرض أمائي.

فيما بعد توصل إدريمي، كما يبدو، إلى اتفاق مع باراتارنا ملك حوري-ميتاني، وعاد إلى آلالاخ ليحكم فيها كملك تابع له (السطور ٢٧-٥٨):

ولدى جماعات الخابيرو أقمت سبع سنوات.

تركت عصافير تطير، وتفحصت (أحشاء) الحملان.

وفي السنة السابعة رجع أدد إلى رأسي، ومن ثم صنعت سفناً.

عساكر نولا جعلتهم يصعدون إلى السفن.

وبحراً من أرض موكيش اقتربت، وأمام جبل خازي (الأقرع) وصلت إلى اليابسة. بعد ذلك صعدت وعندما سمعت بلدي بي الأبقار والأغنام جلبها المرء لي.

وفي يوم واحد وكإنسان واحد، أرض نيخي وأرض أمائي موكيش وآلالاخ مدينتي عادوا إليَ. أخوتي سمعوا (بذلك) وأتوا إليّ. أخوتي استراحوا عندي. حميت إخوتي. عدا ذلك سبع سنين باراتارنا الملك القوي ملك الحوريين عاداني. في السنة السابعة إلى باراتارنا الملك، ملك الحوريين أرسلت أنواندا، وتحدثت عن جهود آبائي بأن آبائي كانوا قد خلدوا إلى الهدوء. وأجدادنا (كانوا) طيبين مع ملوك الحوريين، وأنهم أقسموا بينهم قسماً عظيماً. الملك القوي سمع عن جهود آبائنا، وعن القسم فيما بينهم، وخاف من علامة القسم. لأجل فحوى القسم. ولأجل جهودنا قبل هديتي الترحيبية. وفي شهر كينونو (كانون) التالي قدمت أضاحٍ كثيرة وأعدت إليه البيت الهارب في إنسانيتي، في إخلاصي، بشكل ودي أقسمت له، لذلك أصبحت ملكاً على آلالاخ.

ثم يذكر إدريمي أنه قام بتحصين مدنه وتمتين أسوارها (السطور ٦٠-٦٣) لزيادة فاعليتها الدفاعية ورد الهجمات المعادية. كذلك يذكر أنه قام بحملة عسكرية

على بعض القلاع والمدن الحثية (السطور ٦٤-٨٠). ولكنْ يبدو أن تلك الحملة كانت بهدف السلب والنهب، وحدثت في وقت كانت فيه الإمبراطورية الحثية تمر بموجة من الفوضى والاضطرابات الداخلية، لم تمكنها من الرد على العمل العسكري الذي قام به إدريمي. ولربما قام إدريمي بذلك بتشجيع من سيده ملك حوري-ميتاني. نقرأ في النقش ما يلي:

أسوارها (أسوار المدن)

التي أقامها الأجداد من تراب

جعلتها ترتفع بالتراب

ومن أجل القتال زدتها علواً.

أخذت العساكر وإلى أرض خاتي.

صعدت، واستوليت على سبع قلاع (مدن):

باشاخي، داماروتلا،

خولاخان، زيلا، إي،

أولوزيلا وزارونا،

هذه القلاع (المدن) استوليت عليها ودمرتها. بلاد خاتي

لم تتجمع ولم تأتِ ضدي.

صنعت ما يشتهيه قلبي: غنائمهم،

نهبتها، أملاكهم وأمتعتهم وممتلكاتهم

أخذت ووزعتها على عساكري.

ويفتخر إدريمي بتحسين أوضاع السكان المستقرين، وبتحويل البدو غير المستقرين إلى حياة الحضر من خلال تأمين مساكن لهم (السطور ٨٤-٨٦) يقول:

السكان الذين في بلدي

مسكنهم جعلتهم يسكنون بشكل أفضل.

الذين لم يسكنوا في مسكن (قط)

جعلتهم يسكنون. ووطدت بلدي.

إن هذه أقدم إشارة إلى محاولات توطين البدو. وربما قام بها إدريمي من باب مكافأة بعض البدو الذين ساعدوه في العودة إلى الحكم، أو أنه نوع من الحنكة السياسية والنظرة بعيدة المدى لجعل هؤلاء عناصر موالية لحكمه.

وفي نهاية النص يصب إدريمي شتائم ولعنات الآلهة وغضبها على كل من يغير نقشه أو يزيل تمثاله، ويذكر أنه حكم ثلاثين عاماً كملك في آلالاخ. ويتمنى النصر والحياة الطويلة لكاتب النص المدعو شاروا (السطور ٩٢-١٠٤).

يتبين لنا من خلال النقش أن إدريمي حكم مملكة موكيش وعاصمتها آلالاخ، التي كان يحدها البحر المتوسط من الغرب وكيزواتنا (منطقة في كليلية) من الشمال، ولها حدود مشتركة مع أوجاريت في الجنوب مدة ثلاثة عقود من السنين في بدايات القرن الخامس عشر قبل الميلاد. أما حلب فبقيت خارج نفوذه وتحت السيطرة الميتانية المباشرة. وعدّه خلفاؤه مؤسس سلالة جديدة، واستخدموا خاتمه في ختم وثائقهم وبقي تمثاله مقاماً ومقدساً في آلالاخ قرابة ثلاثمائة عام، أي حتى العصر الذي حدث فيه التغير الكبير في شمالي سورية بدخول شعوب البحر من جهة، وانتشار الآراميين وانهيار الإمبراطورية الحثية من جهة ثانية.

يبدو أن حملات الفراعنة المصريين الكبار من الأسرة الثامنة عشرة (تحوتمس

الثالث ١٤٦٨-١٤٣٩ق.م. وأمنحوتب الثاني ١٤٣٨-١٤١٢) على شمالي سورية لم تطل آلالاخ، ولم تؤد إلى حدوث أية تغيرات فيها. والدليل عل ىذلك عدم ذكر مصر أو أي من فراعنتها (تحوتمس الثالث وأمنحوتب الثاني) في نقش اعتلى عرش آلالاخ بعد إدريمي وفي النصوص الأخرى، واستمرار التطور السياسي والحضاري في آلالاخ دون حدوث أي تغيير أو انقطاع.

حسب النصوص اعتلى عرش آلالاخ بعد إدريمي ابنه نيقميبا، وذلك على عكس ما يذكر إدريمي في سيرته الذاتية إذ يقول (السطور ٩٠-٩١):

هذا ما عملته

وعهدت به إلى يد ولدي أدد نيراري.

ربما يكون سبب هذا التناقض الظاهري ولدين لإدريمي، الأول أدد نيراري الذي يحكم لفترة طويلة، والثاني نيقميبا الذي حكم فترة أطول، لذلك تعود الرقم المكتشفة في السوية الرابعة كلها إلى عهده. أو أن الاسمين لشخص واحد.

من أعمال نيقميبا قيامه بتوسع القصر الملكي الذي بناه أبوه إلى الضعف تقريباً وتزويده بحمامات ودورات مياه وأقنية لتصريف المياه، وجعله ثلاثة طوابق، بينما كانت بيوت الأغنياء مؤلفة من طابقين[٢٠]. كان نيقميبا معاصراً للملك الميتاني ساوشتتار وتابعاً له بدليل ظهور طبعة خاتمه الخاص على عدد من الوثائق لتأكيد سلطته.

يتحدث أحد النصوص (رقم ٢) عن معاهدة عقدها نقيميبا ملك موكيش وآلالاخ مع إر-أدد ملك تونيب المملكة المعتقد أنها كانت تجاور حلب من الجنوب، ولها حدود مشتركة مع آلالاخ.

المعاهدة تنظم العلاقة ما بين المملكتين، ويلفت الانتباه فيها أن أحد بنودها

ينص على قطع أيدي الأشخاص الذين يخفون العبيد الهاربين من مملكة آلالاخ في تونيب (السطور ٣٠-٣٢):

"إذا لم يحلفوا (أشخاص) وجاء (رجل) وأخرج عبيده من عندهم، فهم لصوص (شرّاقو)، أيديهم يجب أن تقطع Up-ta-ga ri-it-ta-an وعليهم ان يدفعوا للقصر ستة آلاف (شيقيل)، نحاس[٢١] وتشير معاهدة عقدها أحد الملوك الحثيين مع المدعو لابئو ملك تونيب إلى اتفاق ما بين آلالاخ وتونيب، وتذكر آلالاخ وملكها إليم-إليمّا الثاني، الذي من المؤكد أنه كان ابن نيقميبا[٢٢].

وقد حدثت في عهده كارثة في آلالاخ سببها تعرض شمالي سورية للهجمات الحثية من جديد بقيادة توتخاليا الثاني يعد مؤسس الإمبراطورية الحديثة (نحو ١٤٦٠ق.م.) وسقطت حلب بيده، وكذلك آلالاخ وتعرضت للتدمير. غير أن النفوذ الحثي لم يدم طويلاً بعد توتخاليا الثاني، بسبب تداعي الإمبراطورية التي أنشأها. فعاد النفوذ الحوري-ميتاني إلى شمالي سورية، والنفوذ المصري إلى جنوبها، وعادت الحياة من جديد إلى آلالاخ، التي يُعتقد أن أحد أمرائها كان معاصراً لأواخر عهد الفرعون المصري أخناتون (١٣٦٤-١٣٤٧ق.م.)، واسمه إتو-أدد، الذي تعاون مع ملوك نياونوخاشي ضد أوجاريت، وتم عزله من قبل الملك الحثي الكبير شوبيلوليوما الأول (١٣٨٠-١٣٤٦ق.م.)، الذي أخضع شمالي سورية كله للسيطرة الحثية ووصل إلى لبنان، منهياً بذلك عهد السيطرة الميتانية على هذه المنطقة. أصبحت آلالاخ نتيجة لذلك مقاطعة حثية، وأقام فيها موظفون حثيون عُثر على أختامهم التي استخدموها، وهي على شكل كرات مسطحة تحمل كتابات هيروغليفية[٢٣].

ويمثل هذه الفترة في آلالاخ السويتان الثالثة والثانية، الغنيتان بفخار نوزي الذي كان شائعاً آنذاك.

بقيت آلالاخ وغيرها من مدن شمالي سورية خاضعة حتى بداية القرن الثاني

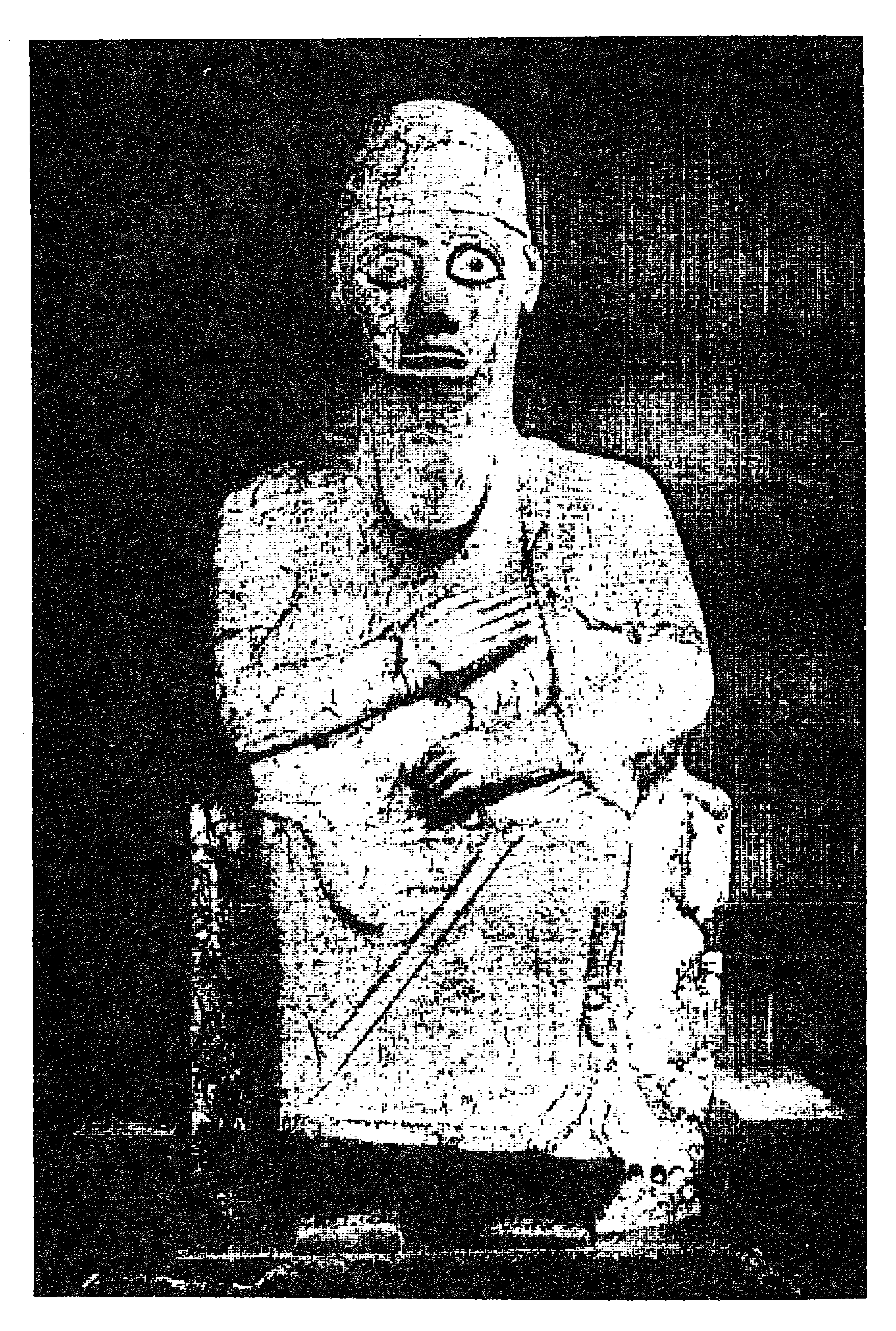
عشر قبل الميلاد، عندما قامت شعوب البحر، معتمدة على أسلحتها الحديدية، باكتساح المنطقة والقضاء على بقايا الإمبراطورية الحثية أولاً، ثم الاتجاه جنوباً حتى الوصول إلى دلتا النيل حيث هزمهم الفرعون المصري رعمسيس الثالث.

ولاقت آلالاخ التدمير والموت، ولم تعد تسكن بعد ذلك الزمن. غير أن مرفأها أعيد بناؤه فيما بعد ليخدم التجارة الإغريقية، وسمي بوزيديوم Posidium على اسم إله البحر عند الإغريق. وعثر على مكتشفات تدل على ازدهار هذه التجارة في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد.

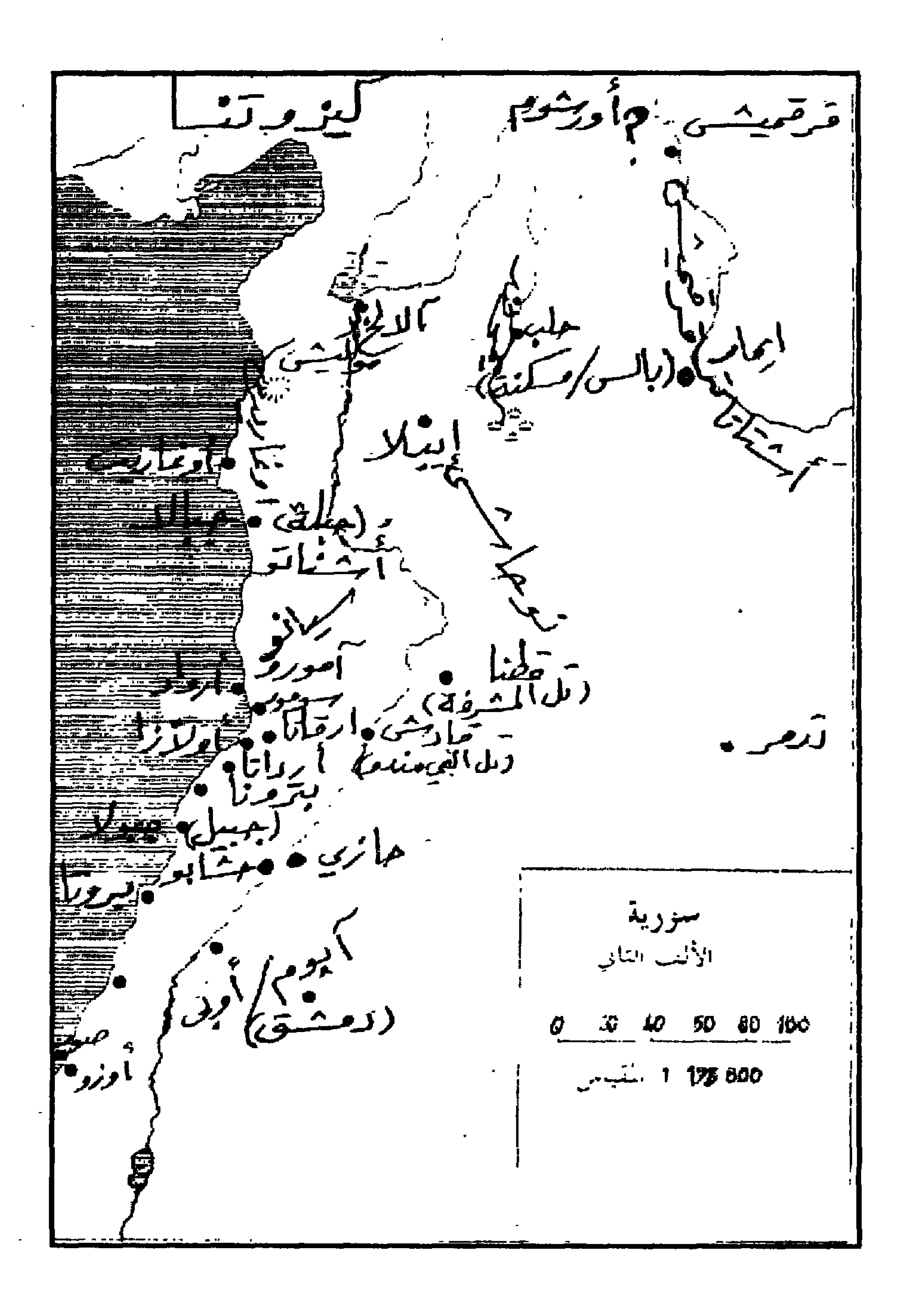
وفي عام ٣٠١ق.م. قام سلوقس الأول نيكاتور مؤسس السلالة السلوقية بتأسيس مدينة سلوقية إلى الشمال من بوزيديوم.

وشهد هذا المرفأ بعض الازدهار في العصور اللاحقة، وسمي مرفأ القديس سمعان اعتباراً من القرن السادس الميلادي [٢٤].

أما آلالاخ فقد بقيت نائمة تحت ركام السنين حتى أيقظتها معاول المنقبين في القرن الحالي.



شكل رقم -١- تمثال إدريمي


كيزوتنا
أورشوم
قرقميش
ألالاخ
حلب
إيمار
(بالس/مسكنة)
إيبلا
أوغاريت
جبلة
أشتاتو
أمورو
قطنا
(تل المشرفة)
تدمر
دمشق
أوزو
سورية
الألف الثاني
0 30 40 50 80 100
1 175 000

الحواشي

1- Alakh, an account of the excavations at Tell Atchana in the Hatay, 1937-1949, Oxford 1955; **A forgotten Kingdom**, London 1953.

ترجم العمل الثاني إلى العربية فهمي الدالاتي بعنوان: **آلالاخ مملكة منسية**، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٢.

٢- وولي، **آلالاخ مملكة منسية**، ص١٨وما بعدها.

٣- **المصدر السابق**، ص٢٥-٢٦.

٤- **المصدر نفسه**، ص٣٧ وما بعدها.

٥- **المصدر السابق**، ص٣٧.

٦- **المصدر السابق**، ص٤٤.

٧- **المصدر السابق**، ص٥١.

٨- مرعي، عيد، إيلا، **تاريخ وحضارة أقدم مملكة في سورية**، دمشق ١٩٩٦، ص٢٤.

9- Mari, A., **Der Hanadel Zwischen Syrien und Babylonien in 18. Jahrhundert vor Christus**, Würzburg 1985, P. 57.

10- Wiseman, **the Alalakh Tablets**, 35, 10

11- **Ibid**, 377, 3-4; 269, 3

12- Klengel, H. **Geschichte und Kultur Altsyriens**, Wien und München 1980, P. 59.

١٣- وولي، **آلالاخ مملكة منسية**، ص ٦١.

١٤- المصدر السابق، ص٦٥.

١٥- المصدر السابق، ص٦٣.

١٦- المصدر السابق، ص٦٤.

17- Klengel, **Op. Cit**, P.66.

١٨- وولي، **آلالاخ مملكة منسية**، ص ٧١.

١٩- المقاطع المترجمة من السيرة الذاتية الواردة في هذا المقال مأخوذة من مقالنا: إدريمي ملك آلالاخ، المنشور في مجلة **دراسات تاريخية**، العددان ٢٩-٣٠ عام ١٩٨٨، ص١٠٨ وما بعدها.

٢٠- وولي، **آلالاخ مملكة منسية**، ص ١٠١.

21- Wiseman, **Op. Cit** P. 27.

22- Helck.W. Die Beziehungen **Ägyptens zu Vorderasien im3. Und 2. Jahrtausend V. Chr.**, 2. Verbesserte Auflage, Wiesbaden 1971, P. 293

٢٣- المصدر السابق، ص١٥٩.

٢٤- المصدر السابق، ص١٥٩.

التنافس الآشوري الأورارتي للسيادة على الشرق القديم خلال النصف الأول من القرن التاسع والقرن الثامن ق.م

الدكتور جباغ قابلو

قسم التاريخ - جامعة دمشق

التنافس الآشوري الأورارتي للسيادة على الشرق القديم خلال النصف الأول من القرن التاسع والقرن الثامن ق.م

شهد النصف الثاني من القرن التاسع ق.م بداية المنافسة الآشورية الأورارتية للسيادة على عالم الشرق القديم. وإذا كانت الدولة الآشورية معروفة في المنطقة منذ مطلع الألف الثاني ق.م على الأقل، فإن ظهور أورارتو على المسرح السياسي لهذه المنطقة كدولة طامحة ليكوّن لها دور في سياسة عالم الشرق القديم، يعود إلى منتصف القرن التاسع ق.م. ولكن هذا لا يعني أن المنطقة التي أطلق عليها اسم أورارتو لم تكن معروفة قبل ذلك. فهذا الاسم، هو التسمية التي أطلقها الآشوريون على جزء من البلاد الواقعة إلى الشمال من بلاد الرافدين وتحديداً حوض بحيرة فان. وشكلت أورارتو جزءاً من منطقة أوسع عرفتها المصادر الآشورية باسم "نايري-نائيري" وضمت كل المنطقة الممتدة بين بحيرتي فان وأورميا. في حين عرفت هذه البلاد في المصادر الأورارتية (التي تبدأ بالظهور اعتباراً من النصف الثاني من القرن التاسع ق.م) باسم بياينيلي.

إن أول ذكر لهذه البلاد في النقوش الآشورية يعود إلى عهد الملك شلمانصّر الأول (١٢٧٣-١٢٤٤ق.م)، ويطلق عليها اسم أوراتري. يقول شلمانصّر الأول في كتابة له: "في بداية حكمي ثارت ضدي أوراتري. رفعت يدي إلى آشور، الإله العظيم سيدي، حشدت جنودي وصعدت الجبال الشاهقة... ثمانية بلدان وجيوشهم أنا هزمت. إحدى وخمسين من مدنهم أنا دمرت وأحرقت"[1]. ومن هذا النص نتبين أن بلاد (أوراتري، أورّارتو فيما بعد) لم تشكل في هذا العصر دولة واحدة وإنما كانت تضم مجموعة من دول المدن، كان عدد التي اصطدم معها شلمانصّر الأول ثمانية. ويلفت

الانتباه في هذا النص تعبير "ثارت ضدي"، فهل كانت هذه البلاد خاضعة في السابق للآشوريين؟ من الصعب الجزم بذلك، لأنه حتى في العصور اللاحقة لم تخضع هذه البلاد للآشوريين. وإن تمكن بعض ملوكهم من مهاجمتها وجمع الغنائم منها بسهولة نسبية. ولكن ربما قام بعض الملوك الآشوريين السابقين لشلمانصّر الأول بحملات إلى هنا، وفرضوا على حكام المدن القائمة الضرائب والجزيات، ومع صعوده العرش امتنع هؤلاء الحكام عن دفع ما هو مترتب عليهم، مما دفع شلمانصّر الأول، للقول أن (هذه البلاد "ثارت ضده) فالامتناع عن دفع الجزية كان بمثابة إعلان العصيان والثورة.

ولم يختلف الأمر كثيراً في عهد خليفة شلمانصّر الأول، توكولتي نينورتا الأول (١٢٤٣-١٢٠٧ق.م) الذي أمر بتدوين أخبار حملة قامت بها جيوشه إلى البلاد الواقعة إلى الشمال من بلاد الرافدين، فذكر «عبوره "جبالاً قويةً، حيث لم تكن هناك طرق، بعد ذلك ثلاثة وأربعون من ملوك بلاد نايري حاربتهم وهزمتهم...»[٢].

إن الخلاف بين النصين واضح، وتفسير ذلك ليس بصعب. فتوكولتي نينورتا الأول وصل بحملته إلى مناطق لم يصل إليها شلمانصّر الأول أثناء حملته، ولذلك فإن توكولتي نينورتا الأول وصل بحملته إلى مناطق لم يصل إليها شلمانصّر الأول أثناء حملته، ولذلك فإن توكولتي نينورتا اصطدم بعدد أكبر من المدن والدويلات. وربما لذلك نرى توكولتي نينورتا يستخدم مصطلح "نايري" عوضاً عن أورارتو. ولكن يجب أن لا نفهم من تعبير "ملوك" الوارد هنا، ملوكاً بالمعنى الحقيقي للكلمة. فعلى الأغلب، فإن المقصود لم يتجاوز شيوخ قبائل أو مجموعة من حكام المدن المختلفة الأهمية، الذين كانوا يتحالفون مع بعضهم في بعض الأحيان، لمواجهة الأخطار التي كانت تحدق بهم في ظل انعدام وجود دولة واحدة تجمعهم وتوحد قواهم. ويبدو أن توكولتي نينورتا الأول لم يكتف بمهاجمة البلاد والحصول على الغنائم منها. وإنما قام بنقل مجموعة من السكان إلى آشور. فهناك وثيقة من عهده تحوي أسماء ٩٩٣ شخصاً

كانوا يعملون في كارتوكولتي نينورتا من بينهم كان هناك ٩٩ شخصاً يحملون أسماءً أورارتية أو تشير إلى أنهم يعودون بأصولهم إلى بلاد نايري(٣).

واستمر الوضع على هذا الحال في ظل الملوك الآشوريين التاليين، الذين استمروا بالقيام بعمليات إغارة ونهب إلى البلاد الواقعة إلى الشمال منهم وخاصة تيغلات بيلصير الأول (١١١٤-١٠٧٤ ق.م) وربما كان لهذه الهجمات أهداف أخرى (إلى جانب الحصول على الغنائم) ألا وهي إبقاء هذه البلاد في حالة فرقة وانقسام ومنع تشكل دولة واحدة يمكن أن تشكل تهديداً للمصالح الآشورية.

ظهور الدولة الأورارتية الموحدة

إن أول ذكر لأسماء ملوك أورارتين، يأتينا من كتابات الملك الآشوري شلمانصّر الثالث (٨٥٩-٨٢٤ق.م). ففي أخبار عامه الأول، يذكر شلمانصّر ما يلي: «"كاكيا" ملك بلاد نايري وبقايا جيشه خافوا أمام أسلحتي القوية وتحصنوا في الجبال... "وفي مكان آخر" أنا خرجت من خوبوشكي، واقتربت من مدينة سوغوني، مدينة آرام الأورارتي المحصنة حاصرت المدينة واستوليت عليها ...» ولكن شلمانصّر الثالث لم يكتف بذلك بل تابع تقدمه نحو المدينة التي جعل منها آرام عاصمة له"... خرجت أنا من (ديا إني) واقتربت من (أرزاشكو) مدينة آرام الأورارتي الملكية، آرام الأورارتي خاف أمام أسلحتي القوية... ترك مدينته وصعد إلى الجبال..."(٤).

إذاً لأول مرة يواجه ملك آشوري، ملك أورارتي عسكرياً. ولأول مرة نقرأ في نص آشوري اسم عاصمة أورارتية. الملك هو آرام والعاصمة هي أرزاشكو. وعلى ذلك فمن المحتمل أن الوحدة الأورارتية التي أصبحت أمراً واقعاً الآن وفي ظل زعامة آرام، قد بدأت مراحلها الأولى قبل ذلك في الوقت الذي كانت فيه الدولة

الآشورية تعاني من فترة الضعف، أعقبت وفاة تيغلات بيلصير الاول واستمرت تقريباً حتى صعود أدد نيراري الثاني العرش الآشوري (٩١٢-٨٩١ ق.م). ومن الآن فصاعداً، لم يعد بإمكان الآشوريين القيام بحملات سهلة إلى أورارتو، بل أصبح عليهم مواجهة دولة موحدة وجيش قوي، وعلى العكس من ذلك، فقد أصبح عليهم منذ الآن الدفاع عن مصالحهم الحيوية في أكثر من مكان من عالم الشرق القديم.

ويعتبر ساردوري الأول ابن لوتيبري، أول الملوك الأورارتيين الذين تركوا لنا كتابات تتحدث عن أعمالهم، رغم أن هذه الكتابات لم تكن مكتوبة بالأورارتية بل بالآشورية. ونورد فيما يلي نص الكتابة الوحيدة التي تركها هذا الملك "نقش ساردوري، ابن لوتيبري، الملك العظيم، الملك الكبير، ملك العالم، ملك بلاد نايري، الملك الذي لامثيل له، الراعي، الذي لايخاف المعركة، الملك الذي أخضع الذين لم يخضعوا له. (أنا) ساردوري، ابن لوتيبري ملك الملوك الذي استلم جزية جميع الملوك. هكذا يقول ساردوري ابن لوتيبري: أنا هذه الحجارة جلبت من مدينة (ألني أوني) وبنيت هذا الجدار"[٥].

من هذا النص نلاحظ أن الملك الأورارتي أعطى لنفسه جميع الألقاب التي كانت يحملها الملوك الآشوريون مستبدلاً فقط اسم آشور باسم نايري، كما نلاحظ أن النص استخدم التسمية الآشورية للبلاد، بدلاً من التسمية الأورارتية على اعتبار أن النص مكتوب بالآشورية.

الأسباب الكامنة وراء المنافسة بين الدولتين:

ربما كانت الألقاب التي حملها الملك الأورارتي ساردوري الأول بمثابة إعلان عن استعداده للدخول في منافسة مع آشور على السيادة على العالم القديم. ولكن ما هي الأسباب التي كمنت وراء هذه المنافسة. في البداية لابد من القول أنه كان لكل من هاتين الدولتين دوافعه الخاصة به في هذا السباق على السيادة.

فآشور التي كانت تفتقر إلى الكثير من المواد الأولية ذات الأهمية القصوى في حياة أي دولة من الدول، ويأتي على رأس هذه المواد الخام: الأخشاب التي لا غنى عنها في عمليات البناء، والمعادن المختلفة المهمة في الحياة الاقتصادية (الذهب والفضة) والعسكرية (الحديد). وهذا الأخير تزايدت أهميته بصورة كبيرة مع مطلع الألف الأول ق.م، مع ازدياد استخدامه في تصنيع الأسلحة. وقد سعت آشور منذ عودتها إلى مسرح السياسة بقوة خصوصاً مع آشور ناصربال الثاني (٨٨٤-٨٥٩ ق.م) لوضع يدها على مناطق استخراج هذه المعادن الأساسية إضافة إلى مناطق الحصول على الأخشاب.

وكانت هذه المناطق تقع في جنوب شرق آسية الصغرى وشمال سورية. وهذا هو المحور الأول الذي سعى الأورارتيون لمنافسة الآشوريين السيادة عليه. إضافة إلى غنى هذه المنطقة بالمواد الخام التي ذكرناها، فإنها كانت معبراً لابد منه للقوافل التجارية القادمة من آسيا الصغرى والمتجهة نحو شواطئ المتوسط، ومن هناك إلى جزر بحر إيجة أو قبرص أو مصر أو بالعكس[٦].

وبالمحصلة فإن من يسيطر على هذه المنطقة كان بإمكانه أن يسيطر على جزء كبير من تجارة العالم القديم، وخاصة تلك التي تعرف بتجارة الترانزيت. وبما أن آشور كانت تفتقد للكثير من المواد الخام في أراضيها الأصلية، فإن سيطرتها على مناطق شمال سورية وجنوب شرق آسية الصغرى كانت مسألة مصيرية بالنسبة لها. أما أورارتو فالوضع بالنسبة لها كان مختلفاً نسبياً. فهي تمتلك في بلادها الأصلية الكثير من المواد الخام وخاصة المعادن وأهمها الحديد الذي كانت خاماته موجودة بكثرة في أراضيها. وكانت ورشات تصنيعه موجودة في القصر الملكي ومعابد أهم الآلهة الأورارتية. هذا إضافةً إلى وجود مصادر لمعادن أخرى مثل الذهب والفضة. ولكن سيطرتها على مناطق جنوب شرق آسية الصغرى وشمال سورية، كان سيمنحها تفوقاً كبيراً على منافستها آشور. فسيطرتها على هذه المناطق كانت ستحرم آشور من

مصادر المواد الخام من ناحية وستزيد هي من مداخيلها، نتيجة وضع يدها على هذه المصادر من ناحية، وسيطرتها على طرق التجارة الدولية من ناحية أخرى[٧]. ونشير هنا إلى أن ملوك أورارتو نادراً ما يذكرون حصولهم على المعادن من حملاتهم وبخاصة الحديد الذي يذكره ساردوري الثاني مرة واحدة، وذلك أثناء حملته إلى بلاد الكولخيد[٨]. في حين أن شلمانصر الثالث مثلاً حصل من حملة واحدة قام بها إلى شمال سورية على ما يلي من المعادن: من سانقار ملك كركميش ٣٠ تالنت ذهب، ٧٠ تالنت فضة، ٣٠ تالنت نحاس، ١٠٠ تالنت حديد. من حيان ملك شمال حصل على ١٠ تالنت فضة، ٩٠ تالنت حديد. ومن خاطينا حصل على ٣تالنت ذهب، ١٠٠ تالنت فضة، ٣٠٠ تالنت نحاس، ٣٠٠ تالنت حديد[٩].

مينوا الأورارتي وبداية المناقشة:

يعتبر مينوا بن أشبويني (الذي حكم بالاشتراك مع والده لفترة، ثم انفرد بالحكم لوحده نحو العام ٨١٠ ق.م واستمر حتى العام ٧٨٥ ق.م) أول ملك أورارتي قام بحملات واسعة خارج حدود نايري أورارتو. وكانت ظروف الدولة الآشورية مواتية جداً بالنسبة لمينوا ليقوم بمثل هذه الحملات. فمن المعلوم أن السنوات الأخيرة من حكم شلمانصر الثالث، شهدت حرباً أهلية في الدولة الآشورية نتيجة تمرد أبنائه عليه. وتوفي شلمانصر دون أن يتمكن من القضاء على هذا التمرد، واستوجب ذلك عامين آخرين من أعوام حكم شمشي أدد الخامس[١٠]. ورغم القضاء على هذا التمرد فإن الدولة الآشورية التي أنهكتها الحرب الأهلية وحروب آشور ناصربال الثاني وشلمانصر الثالث الطويلة، لم تعد في وضع يسمح لها بالتدخل بقوة في شؤون البلاد المحيطة بها، خصوصاً مع صعود ملوك ضعاف العرش الآشوري.

ومن المحتمل أن تكون آخر الحملات القوية ضد بلاد نايري-أورارتو، تلك التي قام بها شمشي أدد الخامس(٨٢٤-٨١٠ ق.م) قبل أن ينفرد مينوا بالسلطة في هذه

البلاد. ففي كتابة له من كلخو يذكر: في حملتي الأولى صعدت فيها أنـا ضـد بـلاد نائيري، تسلمت أنا خيولاً مجهزة – جزية من كل ملوك نائيري فـي هـذا الوقت أخضعت أنا بلاد نائيري كاملةً. أما في عام حكمه الثاني فلم يتوجه شمشي أدد الخامس بنفسه ضد هذه البلاد، وإنما أرسل إلى هناك قائد جيوشه موتاصير – آشور. ويذكـر أن جيشه هذا تمكن من الوصول في حملته هذه إلى "بحر مغرب الشمس"، والذي كـان يقصد به الآشوريون بحر قزوين. وفي عامه الثالث قام بالحملة بنفسه. ولكن يبـدو أن شمشي أدد الخامس في حملاته هذه سواء التي قام بها بنفسه أو أرسل على رأسها قواد جيشه، لم يمس عمق الأراضي الأورارتية نفسها، وإنما كان التركيز بالدرجة الأولـى على البلاد المحيطة بها من ناحيتي الجنوب والشرق، وتحديداً بلاد المانيين التي كانت تشكل طوقاً عازلاً بين الطرفين الآشوري والأورارتي. ولذلك فإذا لا نراه يذكر في أي من كتاباته اسم أي ملك من الملوك الأورارتيين الذين حاربهم، فـي حيـن أن والـد، شلمانصرّ الثالث يذكر اسم ملكين من هؤلاء الملوك هما آرام ساردوري الأول يذكـره تحت اسم سدوري. وقد حاول مينوا أن يطوق الدولة الآشورية من جهتين: من الشرق حين حاول إخضاع بلاد المانيين إلى الجنوب من بحيرة أورميا والتي كانت تمثل بوابة للطرق التجارية المؤدية إلى إيران وأفغانستان، حيث كان بالإمكان الحصـول علـى الخيول (خصوصاً من إيران) إضافةً إلى الأحجار المختلفة (مـن أفغانسـتان عـبر إيران). ولو تمكن الأورارتيون من فرض سيطرتهم على هذه المنطقة مـع الشـمال السوري (وهو الجناح الآخر الذي حاول مينوا خوض الحرب فيه) لحرموا الآشوريين من الحصول على أية مادة أولية.

ففيما يتعلق بالجهة الشرقية، حاول الأورارتيون أولاً فرض سـيطرتهم علـى موصاصير، ورغم أن موصاصير كانت مركز عبادة الإلـه خـالدي كبـير الآلهـة الأورارتية، إلا أنها لم تشكل جزءاً من الأراضي الأورارتية. وكثيراً ما ينظـر إليـها على أنها الموطن الأول للأورارتيين، الذين انتقلوا منه للسكن فيما بعد فـي منـاطق

بحيرة فان. ولذلك بقيت موصاصير مركزهم الديني الرئيسي. وأول ذكر لهذه المنطقة نلحظه في النقوش الآشورية العائدة للملك الآشوري آشور ناصربال الثـــاني (٨٨٤-٨٥٩ ق.م). ففي الاحتفال الذي أقامه بمناسبة بنائه لمدينة كلخو والذي استمر عشـــرة أيام، شاركت وفود من خوبوشكي وغيلزانو وكومي وموصـــاصير. والحملـــة التـــي أرسلها شلمانصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م) في العام ٨٢٨ ق.م بقيادة قـــائد جيوشـــه دايان-آشور، حاربت ضد خوبوشكي وموصاصير "حتى قلاع أورارتو". ولكن بعـــد ذلك نقرأ في أخبار الملك الأورارتي أشبويني وابنه ومشاركه في الحكم مينوا أنـــهما قاما بزيارة احتفالية إلى معبد الإله خالدي في موصاصير، الأمر الذي يدل علـــى أن الأورارتيين قد أخضعوا هذه المنطقة لسيادتهم أو على الأقل جعلوها تدور فـــي فلـــك سيادتهم بعد العام (٨٢٨ ق.م)، وتحديداً بين العامين (٨٢٠-٨١٠ ق.م) وهـــي التـــي اشترك فيها أشبويني وولده مينوا في الحكم. والأمر المهم هنا أن هذا الوضـــع الـــذي ارتبطت به موصاصير مع أورارتو جعل من الملوك الأورارتيين التاليين (مينوا بعـــد انفراده في الحكم وأرغيشتي الأول وساردوري الثاني) يقومون بحملاتهم ضـــد مانـــا عبر هذه المنطقة[١١].

وبعد ذلك، تابع الحاكمان خطتهما بالحرب في مدينة (ميشتت) وبلاد (بارشـــوا) "الإله خالدي قام (بحملة) مع أسلحته، هزم هو مدينـــة ميشـــات، هـــزم هـــو مدينـــة بارشو"[١٢]. ومدينة ميشات تقع إما على الحدود الجنوبية لبلاد مانا أو علـــى الحـــدود الشمالية لبلاد بارشوا. وبارشوا هي بارسو الآشورية وهذا أول ذكر للقبائل الفارســـية سواء في النقوش الآشورية أو الأورارتية[١٣]. ولكن هذه الحملة لم تكن حاسمة، ولذلك نرى مينوا يكرر الحرب ضد هذه البلاد بعد انفراده في الحكم. ففي نص يُعتقـــد أنـــه يشكل مقطعاً من حولياته يذكر ما يلي "مينوا يقول: أنا سلمت للنيران بـــلاد ...( ) ماناني..." وفي موضع آخر من نفس النقش يذكر "عندما توجهت ضـــد مانـــا (هـــذه) البلاد أنا دمرت (وسلمتها للنيران)"[١٤]. ونص آخر يذكر فيه مينوا أنه اســـتولى علـــى

مدينة ميثات ومنها استولى على بلاد مانا[١٥].

وفيما يتعلق بشمال سورية، فإن مينوا فتح الطريق أمام الملوك الأورارتيين الآخرين إلى هنا، بحملة عبر خلالها المجاري العليا لنهر الفرات وصولاً إلى مناطق ملاطية "الإله خالدي القوي قام (بحملة) مينوا بن أشبويني احتل مدن شيبتريا،[١٦] احتل بلاد خوزانا[١٧]، احتل مدن بلاد تسوباتي[١٨]، وصل حتى بلاد خاتي[١٩]... الإله خالدي وضع هذا النقش. في مدينة شيبتريا بنى معبد الإله خالدي... ملك مدن ملاطية هو سامحه بشرط دفع الجزية[٢٠]" من خلال مجمل نصوص مينوا نصل إلى نتيجة مفادها أن نتيجة حملاته نحو الشمال السوري لم تكن حاسمة ولم تؤد إلى نتائج كبيرة، بمعنى أنها لم تؤد إلى فرض السيادة الأورارتية على المنطقة، وإنما اقتصرت على جمع الغنائم والجزيات من هنا، بعكس الحملات على الجبهة الشرقية التي أدت إلى فرض السيادة الأورارتية على مناطق موصاصير والمناطق الحدودية مع بلاد المانيين، دون أن تؤدي إلى فرض السيادة على هذه البلاد.

وتكررت الحملات الأورارتية وعلى نفس المحاور السابقة في عهد أرغيشتي بن مينوا (٧٨٠-٧٦٥ ق.م). ففيما يتعلق ببلاد مانا يذكر أرغيشتي في كتابة له ما يلي "...وصلت أنا إلى بلاد مانا، بلاد جبلية، ١٨٨٢٧ شخص خلال عام واحد قتلت، والباقون أخذتهم (نقلتهم) أحياء. و(كذلك) أخذت ٦٠٦حصان، ١٨٤جمل، ٦٢٧٥ثور، ٣٣٢٠٣خروف"[٢١].

ولأول مرة يذكر أرغيشتي بن مينوا أنه انتصر على الآشوريين وذلك عند ذكره للحروب التي خاضها في العام السابع من حكمه فيقول "أنا توجهت في حملة، طردت أنا الآشوريين[٢٢] فهل يمكن الحديث هنا عن هجوم شنه الآشوريون على أورارتو مما استوجب طردهم منها؟ ونفس الخبر نقرؤه على نقش لألاغيشتي وإنما بصورة مختلفة نسبياً "الإله خالدي قام (بحملة) مع أسلحته (؟) انتصر هو على الجيش الآشوري، انتصر هو على بلاد أريستاني. هزمهم أمام أرغيستي"[٢٣]. وإذا أخذنا بعين

الاعتبار مكان توضع أريستاني على الحدود بين مانا وآشور نستطيع، القول أن الحرب بين الطرفين جاءت على خلفية محاولة كل منهما فرض السيادة على هذه البلاد. ويمكن ربط الأحداث التي تتحدث عنها كتابات أرغيشتي هذه بالأحداث التي تقصها علينا كتابة شمشي إيلو قائد الجيوش الآشورية التي عثر عليها في تل برسيب. ففي هذه الكتابة يذكر شمشي إيلو أنه ألحق الهزيمة بقوات أرغيشتي التي كانت محصنة في منطقة جبلية. وذكر المنطقة الجبلية يذكرنا بكتابة أخرى لأرغيشتي ضمن حولياته وفي أخبار العام التاسع من حكمه، يذكر فيها أخبار حملة قام بها إلى المناطق الواقعة إلى الجنوب من بحيرة أورميا "بعظمة الإله خالدي. قمت أنا بحملة إلى بلاد مانا. احتليت أنا بلاد أيركوايني وصلت حتى جبال آشور..."[٢٤]. إذاً في هذه الحملة قام أرغيشتي باجتياح بلاد مانا كلها وصولاً إلى الحدود الآشورية.

وأما مناطق الشمال السوري فكان لها نصيبها أيضاً من حملات أرغيشتي الأول ابن مينوا. وأول أخبار هذه الحملات تأتينا من العام الرابع من حكمه، حيث يذكر "قمت أنا بحملة إلى بلاد خاتي، احتليت أنا وادي بلاد نيريب[٢٥] ...بعظمة الإله خالدي قمت أنا (بحملة) إلى بلاد خاتي، مناطق بلاد (قبائل) تواتيخي أنا رحمت Salnathi[٢٦]، مدينة ميليد..."[٢٧].

من خلال الكتابات المختلفة العائدة لهذا الملك. نلاحظ تركيزه على الجناح الشرقي للدولة الآشورية، ربما بسبب صعوبة وصول القوات الأورارتية إلى مناطق الشمال السوري، لأنه كان من الواجب عليها أن تجتاز جبالاً عالية صعبة هي جبال كاشياري (طور عابدين) وكذلك اجتياز نهر الفرات قبل الوصول إلى مناطق الشمال السوري.

واستمر الأورارتيون بتدعيم مركزهم مع استمرار الغياب الفعلي للآشوريين وذلك في عهد خليفة أرغيشتي، ساردوري الثاني (٧٦٠-٧٣٥ ق.م) وخاصة في النصف الأول من فترة حكمه. ونلاحظ هنا التركيز أكثر على مناطق الشمال

السوري، ربما لكون بلاد المانيين كانت قد خضعت فعلياً للسيادة الأورارتية. لذلك نرى ساردوري الثاني يتوجه في العام الأول من حكمه نحو الشمال السوري "ساردوري يقول: خرجت أنا وأمرت (؟) لتحتل مدن ملاطية. ظهر خيلار وادا أمامي. انكب على وجهه، قبل أقدامي، أنا أظهرت (نحوه) الرحمة. نقلت أنا من هنالك الذهب والفضة وقطعان الماشية، أنا نقلت إلى بلاد بياينيلي. هو سامحته بشرط أن (يدفع) الجزية. تسعة حصون (مدن) أنا سلخت من هنا (و) أتبعتها إلى بلادي"[٢٨] ولأول مرة يأتي ملك أورارتي على ذكر ضم بلاد واقعة في مناطق الشمال السوري إلى بلاده. فالملوك السابقون (مينوا وابنه أرغيشتي) اكتفوا كما لاحظنا بأخذ الجزية من هذه المناطق. ويبدو أن ساردوي أراد استغلال النجاحات الأورارتية التي تحققت في عهد الملوك السابقين ليوطد النفوذ الأورارتي في هذه البلاد. وكان الهدف الآخر لساردوري الثاني في شمال سورية مناطق كوموخ. ففي المقطع من حولياته الذي يغطي أحداث السنتين ٧٤٦-٧٤٤ ق.م يرد ما يلي "الإله خالدي قام (بحملة) مع أسلحته. انتصر هو على بلاد كوما خاخالي[٢٩] هزمه أمام ساردوري بن أرغيشتي. خالدي قوي، أسلحة الإله خالدي الأقوى. قمت (بحملة) أنا ساردي بن أرغيشتي. ساردوري يقول: كوشتاشبيلي ملك بلاد كوما خالخي كان مستقلاً(؟) ولا أحد من ملوك (أورارتو) لم يكن هناك (لم يصل إلى هنا) ساردوري بن أرغيشتي يقول: تضرعت (أنا) إلى الإله خالدي سيدي، إلى تيشيبا، إلى شيفيني، إلى (كل) آلهة بلاد بياينيلي عما أريد (القيام) في البلاد المعادية. استمعوا (إلى رجائي) الآلهة فتحت الطريق أمامي أنا توجهت، قمت أنا (بحملة) إلى بلاد كوماخالخي. مدينة أوتيا المدينة الملكية المحصنة أخذتها حرباً مدينة حالبا[٣٠]، المدينة الملكية الواقعة في منطقة بحيرات أنا احتليت، مدينة بارالاني المدينة الملكية أنا احتليت..."[٣١]. وحسب مواقع كل من ملاطية وكوموخ، فمن الطبيعي أن يكون ساروردي الثاني قد أخضع اولاً ملاطية ومن ثم توجه نحو كوموخ.

وأما على الجبهة الأخرى، فقد تعددت حملات ساردوري الثاني إلى هناك بالغاً حدود بابل ولكن ليس من الشمال (أي ليس عبر بلاد آشور) ولكن من ناحية الشرق عبر وادي الديالي: ففي كتابة يذكر ما يلي: " الإله خالدي قام (بحملة) مع أسلحته (؟) هزم هو بلاد مانا، هزمهم هو أمام ساردوري بن أرغيشتي...خالدي قوي، أسلحته هي الأقوى.

قام (بحملة) ساردوري بن أرغيشتي. ساردوري يقول: قمت أنا (بحملة) إلى بلاد بابيلو، احتليت أنا بلاد بابيلو..."[٣٢].

وفي مقطع من حولياته يذكر ما يلي بخصوص بلاد المانيين"...قمت أنا (بحملة) إلى بلاد مانا، البلاد أنا احتليت، المدن أحرقت (و) دمرت. البلاد أنا أبدت رجال (و) نساء سقت إلى بلاد بيابنيلي...(هذه) البلاد ضممتها أنا إلى بلادي"[٣٣] إذاً كما فعل ساردوري مع مدن ملاطية، فعل هنا أيضاً، أي عملية إلحاق البلاد المفتوحة بأورارتو. وكانت ذروة انتصارات ساردوري الثاني،على ما نعتقده، إلحاقه الهزيمة بالملك الآشوري آشورنيراري الخامس وكان ذلك في العام ٧٥٣ أو ٧٥٢ ق.م. ففي نص له من كنيسة صورب-بوغوص يرد ما يلي "الإله خالدي قام (بحملة) مع أسلحته، انتصر على مونيو ملك بلاد أوليكوخي[٣٤]، انتصر على تسينالييي (من) قبيلة لويخو[٣٥] ملك بلاد توليخو، انتصر هو على آسورنيراري الخامس بن أدد نيراري الثالث ملك آشور ، هزم بلاد آرام[٣٦]، هزم مدينة نيهيرينا. المدينة الملكية لهذه البلاد[٣٧]. من خلال المناطق التي يأتي هذا النص على ذكرها يتبين لنا أن المعركة بين الطرفين جرت على الحدود الشمالية للدولة الآشورية ولأول مرة أيضاً تأتي النصوص الأورارتية على ذكر أحد الملوك الآشوريين. فرغم أن أرغيشتي يذكر أيضاً انتصاره على الآشوريين، إلا أنه لم يأتِ على ذكر اسم الملك الآشوري الذي كان يحكم آنذاك. وقد ترددت أصداء هذا النصر في مختلف مناطق الشرق القديم وخاصة في الشمال السوري، حيث سارع متع إل أحد أهم ملوك شمال سورية في هذا الوقت

إلى نقض قسم الولاء والخضوع الذي كان قد أداه لأشورنيراري الخامس عـام ٧٥٤ ق.م. بعد الحملة الوحيدة التي قام بها هذا العاهل باتجاه الشمال السوري، ناقلاً تحالفه إلى الملك الأورارتي ساردوري الثاني.

إن تسابق العاهلين الآشوري والأورارتي لكسب أرفاد إلى جانبه يكشف ما لهذه المنطقة من أهمية وحساب في ميزان القوى عل الصعيد الدولي في هـذه المرحلـة. ولكن مما يلفت الانتباه أكثر، أن دول شمال سورية، وقفت طـوال فـترة الصـراع الآشوري الأورارتي إلى جانب الأورارتيين، معتبرين على مـا يبـدو، الآشـوريين الطرف الأكثر خطورة على وجودهم واستقلالهم.

الانبعاث الآشوري والتراجع الأورارتي:

في عام ٧٤٥ق.م. وصل إلى العرش الآشـوري تيغـلات بيلصـير الثـالث (٧٤٥–٧٢٧ق.م) الذي أدرك أنه إذا ما أرادت آشور أن تعود إلى ما كانت عليه من قوة ونفوذ فلا بد لها من إعادة تنظيم نفسها من الداخل أولاً، حيث عمل علـى إعـادة تنظيم الإدارة والجيش. ففي مجال تنظيم الإدارة، عمد تيغلات بيلصير الثـالث إلـى تقوية السلطة المركزية وذلك بربط المقاطعات المختلفة مع العاصمة بنظام بريد سريع وفعال، والطلب إلى الموظفين في هذه المقاطعات، إرسال تقارير عن أعمالهم وأحوال مقاطعاتهم. وفي المناطق التي كانت تحكم من قبل أسر محلية، عيّن تيغلات بيلصـير الثالث ممثلاً له يشرف على كيفية إدارة هذه الأسر لمناطقها ومدى التزامـها بتنفيـذ توجيهات السلطة المركزية. وفي مجال الجيش، فقد اعتمد تيغلات بيلصير الثالث على جيش يخضع للملك مباشرة، ويتلقى أفراده أجورهم من الخزانة الملكية مباشرة. وهـذا الأمر عدا عن أنه رفع المستوى القتالي للجيش، فقد جعل من الملك الآشوري أكـثر استقلالاً تجاه المدن والمقاطعات التي كانت تقوم بتقديم الجند حين يطلب منها ذلك.

أما من ناحية التسليح، فقد بدأ الآشوريون بالاعتماد أكثر على الأسلحة الحديدية وأصبح سلاح الخيالة هو الأساسي وبدأ بالحلول تدريجياً محل سلاح العربات لسهولة حركته وقدرته على إلحاق ضربات مفاجئة وقاضية بالأعداء. والأمر المهم الآخر هو إقامة جهاز للاستطلاع والتجسس على الأعداء(٣٨).

وقبل أن يتوجه تيغلات بيلصير الثالث لمواجهة الأورارتيين حاول تقوية جناحه الشرقي وذلك بإعادة إخضاع بلاد المانيين للسيادة الآشورية بعد فترة غياب عنها وحملات متكررة من قبل الأورارتيين ضدها. فأرسل إلى منطقة جبال زاغروس حملات خلال العامين الأولين من حكمه أعاد بنتيجتها فرض السيادة الآشورية على هذه المنطقة. وبعد ذلك توجه نحو الشمال السوري ليخرج من هناك الأورارتيين، وليجهض النجاحات التي كان قد حققها ملوك أوراتو هناك. وخاصة ساردوري الثاني. وقد واجه تيغلات بيلصير الثالث هنا تحالفاً كبيراً كان على رأسه ساردوري الثاني الأورارتي ومجموعة من أهم دول الشمال السوري ولندع تيغلات بيلصير الثالث يحدثنا عن هذا الحلف..."(في العام الثالث) لحكمي (قام ساردوري الأورارتي بالاتفاق مع) متع إل من بيت أجوشي، سولومال الميليدي، طارخولار الجورجومي، كوشتاشبيلي الكرموخي. اعتمدوا على قواهم مجتمعة. بقوة عظيمة آشور، سيدي، أنا اشتبكت معهم...سحقتهم)"، وفي نص آخر يذكر "...ساردوري الأورارتي ثار ضدي بالاتفاق مع متع إل. في كشتان وخالبو، مناطق كوموخ أنا ألحقت بهم الهزيمة ونهبت معسكره، خوفاً من أسلحتي المرعبة، فر بعيداً، أنا حاصرته في توروشبا(٣٩). مدينته قمت بمجزرة كبيرة أمام بواباته، صورتي الملكية وضعتها مقابل مدينة توروشبا. ٦٠ برو(٤٠) طريق في بلاد أورارتو الواسعة من الأعلى إلى الأسفل سرت منتصراً ولم أقابل أي خصم..."(٤١).

من هذه النصوص يتضح أن تيغلات بيلصير الثالث بعد أن ألحق الهزيمة بقوات التحالف السوري الأورارتي توجه ضد أورارتو نفسها. ورغم أنه وصل إلى

العاصمة توشبا إلا أنه لم يدخلها. أو لم يتمكن من دخولها، وعوض عن ذلك بالتجوال في طول البلاد الأورارتية وعرضها مخرباً المناطق التي كان يمر فيها. بعد هذه الهزيمة القاسية خرج الأورارتيون من ساحة الصراع على السيادة على مناطق الشمال السوري.

حيث لم يعودوا إلى هذه المنطقة بعد ذلك إطلاقاً، وإنما حولوا اهتمامهم نحو مناطق أصبحت أكثر حيوية بالنسبة لهم ونقصد بذلك المناطق ما وراء القفقاس التي بدأت بالوصول إليها في هذه الأثناء طلائع قبائل بدوية، كان من الممكن أن تشكل خطراً كبيراً على أورارتو نفسها من جهة حدودها الشمالية، وهي قبائل الكيمرية. إن خروج أورارتو من ساحة المنافسة على السيادة على مناطق الشمال السوري لم يعنِ أن التنافس بين الدولتين قد بلغ منتهاه. فالآشوريين كانوا على قناعة بأن أورارتو ستظل تشكل خطراً عليهم طالما كانت قوية. ولذلك فإن شاروكين الثاني (٧٢٢-٧٠٥ ق.م.) أراد حسم هذه المسألة بشكل نهائي. وقد اتبع شاروكين الثاني لتحقيق غايته هذه، نفس الأسلوب الذي سبق واتبعه ملوك أورارتو في حربهم ضد الآشوريين، بمعنى أن شاروكين حاول فرض الحصار على أورارتو من جهتين، ومنعها من الحصول على أي مساعدة أو عقد أي تحالف مع أي جهة كانت. ولذلك عندما رأى روسا الأول (٧٣٥-٧١٣ ق.م) خليفة ساردوري الثاني، يحاول التحالف مع الفريجيين الذين كانت لهم مملكة في آسية الصغرى، وكانوا هم أيضاً متضررين من التحركات الآشورية في الشمال السوري وجنوب شرق آسية الصغرى، نراه يسارع لاحتلال مجموعة الدويلات القائمة في مناطق جبال طوروس، وهي المناطق التي كان يمكن أن يتم الاتصال بواسطتها بين أورارتو وفريجية[٤٢]. وعندما تحرك روسا الأول على الجبهة المانية، نرى شاروكين الثاني يسارع أيضاً للتحرك هنا لنجدة حلفائه المانيين وباعتبار أن حملة شاروكين الكبرى عام ٧١٤ ق.م. ضد أورارتو قد انطلقت من هنا، لذلك سنتوقف هنا قليلاً لنطلع على الأحداث التي جرت على الحدود المانية الأورارتية

قبل هذه الحملة. فمن المعلوم أنه كانت هناك مجموعة من الدويلات الصغيرة التي تشكل فاصلاً أو عازلاً بين الدولتين المانية والأورارتية. وكان أهم هذه الدول زيكيرتو وأندي، وفي مختلف الأوقات كانت هذه الدويلات على وفاق إن لم نقل في حالة تحالف مع المانيين. ولكن الحال تغير قبل حملة شاروكين المشار إليها، إذ نرى هاتين الدولتين تشكلان حلفاً فيما بينهما معادياً للمانيين. ولا نستبعد دور الملك روسا الأول في هذا التحالف الذي قام أيضاً باحتلال مقاطعة أوشيديش المانية وضمها إلى بلاده. وربما أراد روسا الأول من هذه الخطوة تعويض الخسائر التي لحقت بأورارتو على جبهة الشمال السوري.

وهنا كان على شاروكين أن يتحرك بسرعة لتدارك الموقف وينجد حلفاءه ويضع حداً لتحركات روسا الأول وحلفائه. وهكذا انطلق شاروكين من مدينة كلخو عام ٧١٤ ق.م. متوجهاً نحو الشرق. والمحطة الأولى بحملته كانت بلاد مانا وطبعاً هذه المحطة سليمة تماماً ترافقت مع احتفالات كبيرة أقيمت بمناسبة هذه الزيارة "...توجهت أنا من بارسواشا ووصلت إلى ميسي، منطقة بلاد المانيين أولوسونو مع شعبه انتظروا بلهفة قلبية غامرة وصولي إلى قلعة سيرداكا...هو (أولوسونو ملك المانيين ج.ق.) صنع مستودعات دقيق وخمر من أجل إطعام، جيشي، أوصاني بابنه الكبير "...أنا حصلت على عدد كبير من الخيول المجهزة، أعداد كبيرة من قطعان الماشية.." بعد ذلك بدأت المرحلة الثانية من هذه الحملة حين توجه شاروكين الثاني نحو زيكيرتو التي قام بتدميرها. في حين لجأ حاكمها المدعو ميتاني إلى جبال "أواشديريكي" ويبدو أن هذه العملية (عملية التجاء إلى الجبال) كانت مقصودة.

حيث كان الهدف منها تأخير وصول شاروكين إلى الأراضي الأورارتية نفسها حتى يتسنى الوقت لروسا الأول حتى يتم جمع قوات التحالف المعادي للآشوريين. ولكن يبدو أن شاروكين الثاني أدرك هذه الخطة، لذلك نراه يترك هذه المنطقة الجبلية ويعود بسرعة لملاقاة روسا الأول. ولكي يكسب الوقت، فإن شاروكين لم ينتظر

وصول الجزء الأساسي من جيشه، وإنما قام بهجوم مفاجئ بالقوات المرافقة له على قلب الجيش الأورارتي ملحقاً به خسائر كبيرة، مضطراً روسا الأول لترك معسكره والهرب من ساحة المعركة إلى عاصمته"...أنا لم أرسل جنودي، لم أجمع فرقي، تلك التي كانت على يميني وشمالي الذين لم يتمكنوا من اللحاق بي، أنا لم أنتظر أولئك الذين كانوا في الخلف، أنا لم أخشَ جيشه الكبير، استخففت بخيالته، لم أنظر إلى العدد الكبير من جنوده المدرعين (لابسين الدروع، ج.ق.) بعربتي الوحيدة مع الخيالة المرافقين، الذين لم يفارقوني في المناطق العادية والغريبة...وكرمح غاضب أنا انقضضت عليه وألحقت به خسائر فادحة..."[٤٣]. وهنا نرى شاروكين يكرر حملة تيغلات بيلصير الثالث ضد الأراضي الأورارتية، دون أن يكون لدينا سبب واضح لعدم توجهه نحو العاصمة توشبا نفسها، ورغم أنه لم يعد بحوزة روسا الأول أي قوات يمكن أن تقف في وجه شاروكين الثاني. بعد ذلك أعاد شاروكين القسم الأكبر من جيشه إلى آشور، وقام مع فرقة خاصة من جيشه بالتوجه إلى موصاصير حيث استولى هناك على خزائن الدولة الأورارتية، وبعد هذه الحملة، لم تعد أورارتو تشكل أي خطر حقيقي على الآشوريين الذين أحكموا سيطرتهم على المناطق الواقعة إلى الجنوب من بحيرة أورميا من ناحية وعلى مناطق جنوب شرق الأناضول وسورية عامة، وهي المناطق الحيوية بالنسبة لهم كما سبق وأسلفنا. بعد ذلك شهدت العلاقات الآشورية الأورارتية فترة من الهدوء والسلام، استمرت طوال فترة حكم أرغيشتي الثاني وروسا الثاني، وربما كان ذلك على صلة بظهور أخطار جديدة هددت كيان الدولتين الآشورية والأورارتية. فالميديون ازدادت قوتهم في المناطق الواقعة إلى الشرق من آشور، وبالمقابل ظهرت موجة جديدة من القبائل الكيميرية، نجح روسا الثاني في تحويلها عن بلاده وتوجيهها نحو آسية الصغرى لتقضي على المملكة الفريجية التي كانت قائمة فيها.

مما سبق نلاحظ أن ظهور أورارتو كدولة تسعى لتلعب دوراً هاماً في سياسة

الشرق القديم. كان على صلة بصورة أساسية بالضعف الذي أصاب الدولة الآشــورية قرب نهاية حكم شلمناصر الثالث.

وأن تراجع أورارتو وخسارتها لمعركة المنافسة التي خضتها ضــــد آشــور، كانت على صلة أيضاً بانبعاث الدولة الآشورية، الذي ترافق مـــع صعــود تيغــلات بيلصير الثالث العرش الآشوري وحسم الصراع بصورة نهائية بحملة شاروكين الثاني ضد أورارتو عام ٧١٤ق.م.

الحواشي

١- دياكونوف: أي.م. **المصادر الآشورية–البابلية المتعلقة بأورارتو**–مجلة أخبار التاريخ القديم. إصدار أكاديمية العلوم السوفيتية. ١٩٥١ العدد /٢/ ص٢٦٦.

٢- دياكونوف: **المرجع السابق**، ص٢٦٩.

٣- فرايدانك: معطيات جديدة حول علاقة الدولة الآشورية مع البلاد الشمالية والشمالية الغربية. في **كتاب الشرق القديم الجزء الثاني**. يريفان ١٩٧٦ ص ٨٦–٨٨ (باللغة الروسية مع ملخص بالإنكليزية).

٤- دياكونوف: **المرجع السابق**، ص٢٩٥.

٥- ميليكيشفيلي: **الكتابات المسمارية الأورارتية**: إصدار أكاديمية العلوم السوفيتية موسكو ١٩٦٠.النص رقم١.

٦- باتسيف: الصراع الآشوري الآورارتي على شمال سورية. **مجلة أخبار التاريخ القديم** ١٩٥٣ العدد/٢/ ص١٧–١٩.

٧- باراصيدرة: أ.أ. **حول أهمية سورية بالنسبة لأورارتو**. مجلة أخبار متحف الدولة الجيورجي. تبيليس ١٩٥٩. العدد العشرون /ب/ ص٢٩٩.

٨- بلاد الكوليخد: (كولخا) تقع هذه البلاد على شواطئ البحر الأسود الشرقية وتشكل جزء من جمهورية جيورجية الحالية.

٩- باتسيف: **المرجع السابق** ص٢١.

١٠- ساغس، هنري: **جبروت آشور الذي كان**. ترجمه آحو يوسف. دمشق ١٩٩٥، ص١١٦–١١٧.

١١- ميريو سالفيني: **توسع النفوذ الأورارتي نحو الشرق. في كتاب الشرق القديم.** الجزء الرابع يريفان ١٩٨٣، ص٢٢١-٢٢٩ (بالروسية مع ملخص بالإنكليزية).

١٢- ميليكيشفيلي: **المرجع السابق**، النص ٢٤.

١٣- أرتوثيان: **بعض المواقع الجغرافية الأورارتية جنوب أورميا**، الشرق القديم، الكتاب الرابع ١٩٨٣، ص٢٣٠-٢٣١.

١٤- ميليكيشفيلي: **المرجع السابق**، النص ٢٨.

١٥- ميليكيشفيلي: **المرجع السابق**، النص ٢٩.

١٦- شبيتريا: من الممكن أن تكون على الضفة اليمنى للمجرى الأسفل لنهر أراتساني في منطقة بالوو المنطقة المحيطة إلى الشرق من خوزانا. انظر في كتاب أرتوبيان: **أسماء المواقع الجغرافية الأورارتية**. إصدار أكاديمية العلوم الأرمنية بريفان ١٩٨٥.

١٧- خوزانا: منطقة في أعالي بلاد الرافدين. أما خوزان الحالية عند المجرى الأسفل لنهر موزور-مونزو (رافد آراتساني) أو خوزات الحالية إلى الشمال الغربي من بالو على ضفاف خوزان سو (الرافد الآخر لنهر أراتساني) انظر في كتاب أرتونيان السابق ص٢٣٢.

١٨- تسوباني: هي صوفني الكلاسيكية.

١٩- بلاد خاتي في المصادر الأورارتية غالباً ما كان يقصد بها مناضق جنوب شرق الأناضول والمناطق الحدودية مع شمال سورية.

٢٠- ميليكيشفيلي: **المرجع السابق**، النقش ٣٩.

٢١- ميليكيشفيلي: **المرجع السابق**، النقش١٢٧، العمود الثالث.

٢٢- ميليكيشفيلي: **المرجع السابق**، ص٢٥١.

٢٣- ميليكيشفيلي: **المرجع السابق**، النقش ١٢٧ العمود الثاني.

٢٤- ميليكيشفيلي: **المرجع السابق**، ص٢٥٢.

٢٥- نيريب: منطقة في أعلي نهر دجلة إلى الجنوب من توشخي (كـــارخ الحاليـــة) على المرتفعات الشمالية لجبال كاشياي. أوتونيان المرجع السابق، ص١٥٣.

٢٦- ربما كانت تعني حاكم باللغة الأورارتية.

٢٧- ميليكيشفيلي: **المرجع السابق**، النقش ١٢٧ العمود الثاني.

٢٨- ميليكيشفيلي: **المرجع السابق**، النقش ١٥٨.

٢٩- هي نفسها بلاد كوموخ وترد أيضاً بصيغة كوما جالني.

٣٠- حالبا: موقع هالفاني الحالية إلى الجنوب الشرقي من عينتاب. عند منعطف نهر الفرات نحو الجنوب.

٣١- ميليكيشفيلي: **المرجع السابق**،: النقض ١٥٥./E/.

٣٢- ميليكيشفيلي: **المرجع السابق**، النقش ١٥٥ /A/.

٣٣- ميليكيشفيلي: **المرجع السابق**، النقش ١٥٥ /B/

٣٤- **أوليكوخي**: على الضفة الغربية لبحيرة سيفان.

٣٥- **لويخو**: على الضفة الغربية لبحيرة سيفان.

٣٦- آرام: مقاطعة في شمال بلاد الرافدين. إلى الشمال الغربي من مدينة ديار بكـو الحالية.

٣٧- ميليكيشفيلي: **المرجع السابق**،النقش١٥٦ D_1TD_2.

٣٨- ياكوبسون: ف. آ. **الدولة الآشورية الحديثة**. في كتاب تاريخ العـــالم القديـــم.

الجزء الثاني، موسكو ١٩٨٩، ص٣٢-٣٣.

٣٩- توروشيا: هي الصيغة الآشورية لاسم العاصمة الأورارتية توشيا.

٤٠- برو: البرو الواحد يعادل نحو ٧-٨ كم وبالتالي فإن ٦٠ بـــر يســـاوي نحـــو ٤٥٠ كم.

٤١- دياكونوف: المرجع السابق، ص٣١٣.

٤٢- ميدفيد سكايا: حول تحديد مسار حصة شاروكين عام ٧١٤ ق.م. مجلة أخبـــار التاريخ القديم. ١٩٩٨٩ العدد /٢/ ص١٠٥.

٤٣- دياكونوف: أورارتو-فريجية- ليدية في كتاب تاريخ العالم القديم الجـــزء /٢/ ص٦٠-٦١.

٤٤- دياكونوف: المصادر الآشورية ...ص٢٠٦.

دور المرأة العربية في معركة اليرموك

الدكتور ابراهيم زعرور

جامعة دمشق

دور المرأة العربية في معركة اليرموك

من المقرر علمياً وتاريخياً أن الإسلام أحدث في حياة العرب ومن ثم العالم ثورة دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية وسوى ذلك، أو بمعنى أكثر دقة، شكّل نقلةً في تاريخ العرب، وجعل لهم ديناً توحيدياً، محققاً بذلك وحدتهم السياسية بل أكثر من ذلك، جعل من العرب أمة موحدة قوية، حققت بفتوحاتها الكبرى أكثر مما حققته الإمبراطوريات القديمة في التاريخ. وبطبيعة الحال فإن لكل ثورة دينية أو سياسية أو اجتماعية مراحل تمهيدية ومقدمات يتجاذبها الإخفاق والنجاح، وهذا ينطبق على حال العرب قبيل الإسلام، وتجلى توصيف الواقع آنذاك في التقديم أو التمهيد في إظهار بعض جوانب الضعف في المثل القديمة، سواء أكانت سياسية أم دينية أم اجتماعية، والميل إلى تركها في سبيل مثل أخرى جديدة، والتنبؤ بقرب ظهور نبي مصلح يدعو إلى هذه المثل[1].

وكان العرب مهيئين للنقلة، متأهبين للثورة الدينية السياسية الكبرى التي اتخذت بادئ ذي بدء مظهراً دينياً لم يلبث أن اكتسب طابعاً سياسياً، وأصبحت الدعوة في آن واحد إلى دين ودولة، وظهرت هذه الثورة في مدينة مكة معقل الوثنية العربية، والمركز التجاري الهام في الجزيرة العربية.

ولسنا هنا بصدد التعرض لمراحل الدعوة وظروفها، وإنما أتت الهجرة إلى يثرب كمرحلة هامة وأساسية في تاريخ الدعوة، بعد أن أصبح الرسول صلى الله عليه وسلم رئيساً لأحزاب غير متجانسة، فعمد إلى توحيدها بأن ربط بين المهاجرين والأنصار برابطة المؤاخاة، ثم اتخذ النبي للدين الإسلامي مسجداً لصلاة المسلمين وللاجتماع بصحابته وأتباعه، وشرع بعد ذلك في وضع نظام للحياة الاجتماعية في الدولة المدنية يكون دعامة للوحدة بين سكان المدينة، فوضع الصحيفة التي تُعدّ بحق

دستور دولته في المدينة، وأخيراً شرّع الجهاد عندما وقف منه المكيون موقفاً مضاداً بسبب هجرته إلى يثرب وتحديه لهم. وكان لتشريع الجهاد أثر كبير بالنسبة للمسلمين في المدينة، إذ منحهم صفة سياسية لم تكن لديهم من قبل، واستكملت يثرب بذلك أهم خصائص الدولة المدنية، بعد أن نزل الوحي على النبي في المدينة يدعو المسلمين للقتال للذود عن أنفسهم بقوله تعالى:﴿ **أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظُلِمُوا وأن الله على نصرهم لقدير.. الذين أُخْرِجُوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله...** ﴾[٢].

وبعد أن استكمل النبي صلى الله عليه وسلم تأسيس نواة الدولة العربية الإسلامية الأولى بدأ بتسيير السرايا حيث بلغت ٤٧ سرية[٣]، وقيل ٤٣ سرية[٤]، ومجموع الغزوات ٢٧ غزوة قاتل في تسع منها فقط، وهي مرحلة من أهم مراحل تثبيت الدولة وانتشارها السياسي والديني وتأثيرها الاجتماعي والاقتصادي. وكانت المرحلة غنية بالنسبة لتجييش الرجال والنساء في السرايا والغزوات والمعارك المتبادلة، والمهم من وجهة نظري أن المجتمع، أي مجتمع من المجتمعات لا يقوم إلا بكامل أعضائه، والمرأة تشكل نصف المجتمع، ولا يمكن للمجتمع أن يعمل بنصفه، ويبقى النصف الآخر مشلولاً. وبطبيعة الحال لسنا هنا بصدد مناقشة هذا الأمر على أهميته القصوى، وضروراته الحياتية والإنسانية والمجتمعية، وإنما تكفي الإشارة لِيُتاح لنا تسليط بعض الضوء على مشاركة المرأة في الغزوات والمعارك وبخاصة مشاركة المرأة في معركة اليرموك، موضوع البحث، ويمكننا التقاط بعض الإشارات والصور من كتب الأدب والشعر والسير والتراجم والأخبار والقصص عن دور المرأة وأهمية هذا الدور.

وكثيراً ما رافقت المرأة العربية المقاتلين لمساعدتهم أثناء الحرب فيما يحتاجون إليه من السقاية والمداواة وغير ذلك، وحراسة الصفوف المتأخرة للمقاتلين، ينشدن الأهازيج والأناشيد والمقطوعات التي تحرك حماس المقاتلين عند شعورهم بأن أحدهم يفكر بالفرار من المعركة، فيثبت في الميدان، وأثناء سير المعارك، تقوم النساء بحسو

البراقع وكشف الشعور، ليستثرن حميّة الرجال المقاتلين، ويدفعنهم إلى الدفاع عنهن، وحمايتهن من السبي وهوانه، وكانت عادات سبي النساء من العادات الشائعة والتي استمرت لعصور طويلة.

وإلى أُحد خرجت قريش برجالها ونسائها(٥)، معهن الدفوف يحرضن الرجال على القتال، في شوال ثلاث للهجرة، وفي هذه المعركة قاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية دفاعاً عن النبي ﷺ وجرحت جراحات كثيرة، وبلغ الحقد بهند بنت عتبة على حمزة بن عبد المطلب درجة لا مثيل لها من الغلو الجنوني، فعهدت بقتله إلى وحشي عبد ابنة الحارث بن عامر بن نوفل، بعد أن وعدته بمكافأة مجزية، فلما قتله وحشي شق بطنه وأخرج كبده وجاء به إلى هند، فمضغته ثم لفظته، ومضت إلى جثته، فقطعت أذنيه وجدعت أنفه(٦)

وإذا كانت هند قد أثّرت في معركة أحد، وكان لها نفوذ على أبي سفيان وتأثيرها الهائل على نشأة ابنها معاوية بن أبي سفيان، نجد من جانب آخر أعظم، أهمية أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، فقد كان لها الدور الفعال في حياة النبي العربي محمد ﷺ قبل البعثة، وازداد هذا الدور فعالية وتأثيراً وألقاً ووهجاً بعد نزول الوحي على النبي ﷺ. فقد كانت أول المؤمنين به من النساء، وفي كل المواقف التي تعرض لها في سيرته النبوية، وكانت نعم الزوج والسكن، صاحبة رأي راجح، ويد سمحاء، وحب وإخلاص للنبي ﷺ، وبفضل الاستقرار الداخلي استطاع أن يفرغ لحمل الرسالة في المرحلة الصعبة من حياته في مكة المكرمة.

والمرأة العربية خصّها الإسلام بالمزيد من التقدير والاحترام، وإعلاء مركزها ورفعها إلى المكانة الجديرة بها في المجتمع، وأحاطها بكل الحماية والرعاية والاهتمام في النص القرآني الكريم، وأحاديث النبي العربي محمد ﷺ.

ويضم تاريخنا العربي والإسلامي في صفحاته صوراً بديعة لحياة المرأة في

شتى الميادين والأنشطة الاجتماعية: في العلم والدين والسياسة والحرب. وليس عجيباً أن يفتخر الآباء بأسماء بناتهم.

وأياً كانت هناك من مبالغات في أقوال النساء وأخبار جرأتهن وفصاحتهن، فإن تلك الأقوال والأخبار والشهادات، تؤكد بما لا يقبل مجالاً للشك، أن المرأة شغلت دوراً هاماً ورئيساً في الحياة السياسية والاجتماعية والعسكرية لا يقل عن دور الرجل.

وقد جاهدت المرأة العربية في سبيل نشر الدين وحمايته، وقدمت خدمات جليلة للإسلام، «كتبت في تاريخنا، وفي الصفحات المشرقة والمشرّفة»، ولم يكن دورها في حياة العرب قبل الإسلام بأقل من ذلك. وساهمت المرأة العربية في تحديد مسارات حياتها ومعالم الطريق الذي اختطته، فعرفت كيف تستقبل الرجال، وتتحدث إليهم، ووزنها في توجيه المسائل العامة، وفي سياسة الدول بشكل مباشر أو غير مباشر، والأمثلة كثيرة جداً على ربات السياسة والإدارة وسداد الرأي، سواء في صدر الإسلام (الدولة العربية الإسلامية الأولى ــ عصر الرسول ﷺ)، أو في الخلافة الراشدية، أو في العصر الأموي، والعباسي، وغيرها من العصور اللاحقة.

وانصرفت المرأة العربية كما هو حال الرجل إلى فنون العلم والأدب، فأسهمت في قوة البيان، وفصاحة اللسان وقول الشعر، وامتازت بالصدق في العلم والأمانة في الرواية، وشاركت المرأة الرجل جنباً لجنب في المغازي والحروب، وفي ميادين التضحية والبطولة في تاريخ العرب والإسلام.

فقد رافقت الرجل إلى الميدان، لخدمة الجند ومواساة الجرحى ومداواة المرضى وسقاية العطشى ودفن الموتى، وتنخية الرجال وإيقاد نار الحماسة والإقدام في صدورهم، وامتلأت صفحات التاريخ بأخبار المجاهدات اللائي قمن بأدوار هامة جداً وخطيرة في الحروب، وساعدتهن فصاحتهن وبلاغتهن على الاضطلاع بتلك الأدوار، فأهجن النفوس وهززن المنابر.

وكما كانت مشاركة المرأة ودورها هاماً وأساسياً في المعارك أيام النبي ﷺ، وكذلك كانت لها المشاركة الفعالة في حروب الردة، يوم استنفر الخليفة أبو بكر الصديق المسلمين رجالاً ونساءً للقضاء وبشكل حاسم على المرتدين والذين خرجوا عن الطاعة والولاء للدولة والدين. ويوم بلغ خالد بن الوليد أن فلول غطفان وطيء وسليم وهوازن قد اجتمعوا إلى أم زملٍ سلمى بنت مالك بنت حذيفة وأنها حرضتهم على القتال، وكثرت حشودها واستفحل أمرها، زحف إليها خالد واشتبك معها فقتلت وقتل حولها مائة رجل [٧].

ويتبين للباحث في هذه المرحلة من حركة الفتوحات الكبرى، والمواجهة الحاسمة في حرب المرتدين والظروف التي رافقت ذلك، أن الحاجة استدعت استنفار العرب وقدوم العشائر للمدينة للقتال تحت إمرة الخليفة أبو بكر الصديق، وهي حالة جهادية تعني تعبئة كل القوى من رجال ونساء واصطحاب العيال أيضاً، وهي هجرة واضحة أو انتقال جماعي أدى بطبيعة الحال إلى مشكلات اقتصادية واجتماعية وسوى ذلك، وكان لا يمكن للمدينة أن تستوعب هذه الأعداد الكبيرة المهاجرة أو المنتقلة، تلبي نداء الجهاد الشامل، ولابد من تحريك هذه الجموع والقوافل لمقاومة المرتدين والقضاء عليهم واستكمال حركة الفتوحات باتجاه العراق، الامتداد الطبيعي لشبه الجزيرة العربية، وكذلك بلاد الشام ولمواجهة أهم إمبراطوريتين في ذلك الوقت، الروم والفرس، وكيف السبيل إلى تحقيق الفتوحات العربية الإسلامية الكبرى، دون القضاء على حركة المرتدين بداية، واستعادة وقار وهيبة الدولة ووحدتها، دون اختراق هيبة ووقار الإمبراطوريتين وتحرير الأرض العربية من سيطرتهما، فكانت القادسية، ومن ثم اليرموك، أهم معارك التحرير العربية.

وكان قد جاء انتقال الرسول ﷺ إلى جوار ربه [في يوم الاثنين الثالث عشر من شهر ربيع الأول، سنة ١١ للهجرة، الموافق الثامن من حزيران، سنة ٦٣٢م][٨]، ثم القضاء على الردة. وبعد الفراغ من الردة وجه الخليفة الراشدي الأول، أبو بكر

الصديق خالد بن الوليد بالتحرك إلى العراق[٩]، حيث سار في المحرم من سنة ١٢ للهجرة، ليؤكد أن خطة الفتوحات العربية الكبرى، كانت قد وضعت في عصر الرسول ﷺ. فالجهاد شريعة من شرائع الإسلام، والرسول ﷺ، قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى، سار في طريق الجهاد داخل أراضي الجزيرة العربية وخارجها، وقام ﷺ بإرسال البعوث إلى تخوم الشام، فكانت معركة مؤتة، وكان بعث أسامة الذي جهزه الرسول ﷺ، فالفكرة، أي فكرة الفتح ونشر الإسلام خارج حدود الجزيرة، فكرة مناسبة مع عمومية الدعوة على عرب الجزيرة، بل على العرب القاطنين خارج الجزيرة وعلى سكان الأرض جميعاً. والعراق لم يكن غريباً عن سكان الجزيرة العربية، وكان امتداداً لمنازلها، ودار هجرة من هجراتها، وكانت من قبل العرب تنتقل إليه، وتسكنه، كما كانت، تنتقل إلى بلاد الشام وتسكنها أيضاً. وكان الفرس في العراق، كما كان الروم في الشام. وبعد أن وجه الخليفة الراشدي الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه، الجيوش لفتح بلاد الشام، علم قادة الجيوش، بإرسال بيزنطة لقوات كبيرة، فاستنجدوا بأبي بكر، وطلبوا الإمدادات، فما كان منه، إلا أن قام بإرسال رسالة إلى أهل اليمن، يستنفرهم فيها، قال فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

"من خليفة رسول الله ﷺ إلى من قرئ عليهم كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن.. سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

فإن الله تبارك وتعالى كتب على المسلمين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا فيه خفافاً وثقالاً فقال جل ثناؤه: ﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾، فالجهاد فريضة مفروضة، وثوابه عند الله عظيم، وقد استنفرنا من قبلنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، وقد سارعوا إلى ذلك، وخرجوا وعسكروا وحسنت في ذلك نيتهم، وعظمت

حسبيتهم، فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم وسنة نبيكم، وإلى إحدى الحسينين: إما الشهادة وإما الفتح والغنيمة، إن الله جل ذكره لم يرض من عباده بالقول دون العمل ولا يترك الجهاد فيه أهل عداوته حتى يدينوا بالحق ويقروا بحكم الكتاب، حفظ الله لكم دينكم وهدى قلوبكم وزكى أعمالكم، ورزقكم أجر المجاهدين الصابرين والسلام..»[١١].

وبعث بالكتاب مع أنس بن مالك واستجاب أهل اليمن استجابة كاملة لنداء الاستنفار وخلال أمد وجيز وصلت أعداد كبيرة من القبائل إلى المدينة المنورة، فلما قدمت حمير معها أولادها ونساؤها فرح أبو بكر بهم وقام فقال: «عباد الله ألم نكن نتحدث، فنقول: إذا مرت حمير معها نساؤها تحمل أولادها، نصر الله المسلمين، وخذل المشركين، فأبشروا أيها المسلمون قد جاءكم النصر» [١٢].

وعقد الخليفة الصديق للقادة وأمراء الجيش وخرجوا قبل الشام ومنهم يزيد بن أبي سفيان ومعه ربيعة بن عامر من بني عامر بن لؤي[١٣]، وأبي عبيدة بن الجراح[١٤]، وشرحبيل بن حسنة[١٥]، ومعاذ بن جبل[١٦]، وملحان بن زياد الطائي أخا عدي بن حاتم لأمه[١٧]، وخالد بن سعيد[١٨]، وقيس بن هبيرة بن مكشوح المرادئي[١٩]، وهاشمُ بن عتبة[٢٠]، وسعيد بن عامر بن حذيم، وحمزة بن مالك الهمذاني، وغيرهم كثيرون. وكانت وصاياه للقادة تعبّر عن روح إنسانية وحضارية وأخلاقية، وكذلك الرسائل التي كان يبثها عبر المراسلين ومما قاله ليزيد بن أبي سفيان في خروجه إلى الشام: «يا يزيد، إني أوصيك بتقوى الله وطاعته، والإيثار له والخوف منه، وإذا لقيتم العدو فأظفركم الله به، فلا تغلل، ولا تمثل، ولا تغدر، ولا تجبن، ولا تقتلن وليداً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تحرقن نخلاً، ولا تعقرنه، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تعقروا بهيمة، إلا بهيمة للأكل، وستمرّون بقوم في هذه الصوامع يزعمون أنهم حبسوا أنفسهم لله، فدعهم، وما حبسوا أنفسهم له، وستجدون آخرين، فحص الشيطان أوساط رؤوسهم، كأن أوساطها أفاحيص القطا، فاضربوا بالسيوف ما فحصوا من رؤوسهم حتى ينيبوا إلى الإسلام، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ولينصرن الله من

ينصره ورسله بالغيب وأقرأ عليك السلام، واستودعك الله، ثم أخذ بيده فودعه، ثم قال له: إنك أول أمرائي قد وليتك على رجال من المسلمين غير أوضاع في النـاس، ولا ضعفاء ولا أدنياء ولا جفاة في الدين، فأحسن الله لك الصحابة، وعلينا الخلافة» (٢١).

وتابع تقاطر العرب من اليمن وسواها على المدينة، وكان من هؤلاء قبيلة خثعم، فقد ورى ابن جبيش في مغازيه: « وعن أبي سعد المقربي قال: قدم ابـن ذي السهم الخثعمي على أبي بكر وجماعة من خثعم فوق السبعمائة ودون الألف، فقال ابن ذي السهم لأبي بكر: [إنا قد تركنا الديار والأصول والعشائر والأموال، وأقبلنا بنسائنا وأبنائنا ونحن نريد جهاد المشركين فماذا ترى لنا في أولادنا ونسائنا، أنخلفهم عنـدك ونمضي، فإذا جاء الله بالفتح بعثنا إليهم فأقدمناهم علينا، أم ترى لنا أن نخرجهم معنـا ونتوكل على الله ربنا].

فقال أبو بكر: « سبحان الله يا معشر المسلمين هل سمعتم أحد ممن سار مـن المسلمين إلى أرض الروم وأرض الشام ذكر في الأولاد والنساء مثل ما ذكـر أخـو خثعم؟ أما إني أقسم لك يا أخا خثعم لو سمعت هذا القول منك والناس مجتمعون عندي قبل أن يشخصوا لأحببت أن أحبس عيالاتهم عندي وأسرحهم ليس معهم من النسـاء والأبناء ما يشغلهم ويهمهم حتى يفتح الله عليهم، ولكنه قد مضى معظم الناس ومعـهم ذراريهم، ولك بجماعة المسلمين أسوة، وأنا أرجو أن يدفع الله بعزتـه عـن حرمـة الإسلام وأهله، فسر في حفظ الله وكنفه، فإن بالشام أمراء قد وجهنا إليهم، فأيهم أحببت أن تصحبه فاصحب، قال: فسار حتى لقي يزيد بن أبي سفيان فصحبه..»(٢٢).

ويوضح هذا النص بما لا يقبل مجالاً لشك، أن الجميع خرجوا بعيالاتـهم مـع المقاتلين، لأن هذا الخروج كان يحقق جملة أهداف دفعة واحـدة، منـها الاسـتقرار الداخلي للمقاتل بصحبة عياله والاطمئنان لوجودهم، وتحصين المقاتل من الوقوع فيما وقعت به الجيوش التي اضطرت في الغزو والفتوح إلى اللجوء إلى الممارسات غـير

الشرعية والأخلاقية بالتعامل مع الجنس الآخر، مما يترك آثاراً سلبية على المقـاتلين. ثم أن اندفاعهم وحماسهم للقتال والدفاع يزداد بوجود العيالات ويقوي مـن روحـهم المعنوية، وهم أيضاً حملة رسالة عليهم القيام بنشرها وخلق واقع جديد في المنـاطق التي يتم فتحها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ودينياً وسوى ذلك، وعلى هذا وسواه خرج اليمانيون نحو بلاد الشام بما يشبه هجرة بشرية عقائدية منتظمـة، وملـك المقـاتلون المهاجرون الآن السلاح مع أسباب العيش والمؤن والاستقرار والطمأنينة مع عيالاتهم، ذلك أن إرادة المدينة للدولة لم تكن تمتلك في ذلك الوقت ما تزود به الجيوش بكل مـا تحتاجه، وكان هذا يخفف الأعباء الاقتصادية والاجتماعية عن المدينة، يُضاف إلى هذا أن عملية الهجرة هذه ربما انطلت على القيادة البيزنطية حيث خيل لهرقل علـى مـا يبدو أن العرب وصلوا إلى أطراف الشام[٢٣]، مثلهم مثل القبائل التي كانت تصل مـن قبل، ارتياداً للمرعى والعيْش، وأنه يمكن للغساسنة معالجة الوضع، لكن ثبت فيما بعـد أن العرب استفادوا من أصحاب العيالات فائدة كبيرة، ورتبوا خططهم القتاليـة علـى الإفادة من النساء في تشجيع المقاتلين، ومداواتهم، ورعايتهم، كما أن بعضهن توليـن تأمين الماء، والقيام بالسقاية والخدمات للمقاتلين، وغالباً ما وضعت معسكرات النسـاء على طرف التشكيلات المقاتلة، فتولت النسوة منع من يحاول الفرار مـن المقـاتلين العرب[٢٤]، كما حلن دون أعمال الالتفاف على المقاتلين العرب المسلمين.

وبطبيعة الحال، فإن الهجرة المنتظمة كانت تستهدف أولاً وأخـيراً الـيرموك لملاقاة الروم في معركة فاصلة من أشهر وأهم معارك العرب في التاريخ»» ونزلـت الجموع بمكان من اليرموك يدعى دير الجبل[٢٥]. مما يلي المسلمين، والمسلمون قـد جعلوا نساءهم وأولادهم على جبل خلف ظهورهم[٢٦]، فمر قيس بن هبيرة بنسوة مـن نساء المسلمين مجتمعات، فلما رأينه، تقدمت أميمة بنت أبي بشر بن زيد بن الأطـول الأزدية إليه، وكان تحت عبد الله بن قرط الثمالي، وكان باد قيس يشبه باد عبد الله بـن قرط، وفرسه يشبه فرسه فظنت أنه زوجها، فقالت: اسمع، بنفسي أنت، فظن قيس أنها

شبهته بزوجها، فقال: أظنك شبهتني بزوجك، فقالت: وأسوأتاه، ثم انصرفت، وأقبل قيس على النساء فقال لهن:قبح الله امرأة منكن تضطجع لزوجها، وهذا عدوه قد حل بساحته يقاتله عنه، إذا أراد ذلك منها فلتمتنع عليه، ولتحث في وجهه التراب، ثم لتقل له: قاتل عني، لست لك بامرأة حتى تمنعني، فلعمري ما يقرب النساء على هذه الحال إلا أهل الفسولة[٢٧] والنذالة، ثم مضى، فقالت المرأة:» وأسوأتاه منه، لقد ظن أني ظننت أنه زوجي، فقمت إليه، أتعرض له، إنما ظننت أنه ابن قرط، ولم يكن تعشى البارحة إلا عشاءً خفيفاً، آثر بعشائه رجلين من إخوانه تعشيا عنده. فكنت قد هيأت له غداءه، فأردت أن ينزل فيتغدى».

ويفيد هذا النص أن إطعام الجيوش العربية كان ذاتياً وإفرادياً ولم يكن هناك مطابخ. وقبيل حدوث القتال يوم اليرموك، خاطب خالد بن الوليد[٢٨] حين نظر إلى الروم وهم يزفون زفاً ومعهم الصلبان، نساء المسلمين، وهن على تل مرتفع في المعسكر فقال: « يا نساء المسلمين أيما رجل أدركتنه منهزماً، فاقتلنه، فأخذن الخناجر[٢٩] ثم أقبلن نحو المسلمين، فقلن: لستم بعولتنا، إن لم تمنعونا اليوم» .

«وكانت النسوة بالفعل أثناء سير المعركة تواجه المنهزمين من المسلمين في المعارك بالعناهر» والعناهر عمد البيوت« وكن يضربن بها وجوههم[٣٠]، وعن ثابت عن سهل بن سعد قال: » أخذت خولة بنت ثعلبة بن مالك بن الدخشم عموداً من تلك العمد ثم أقبلت نحو المنهزمة وهي ترتجز وتقول:

يا هارباً عن نسوة تقيات رميت بالسهم وبالمنيات[٣١]

فعن قليل ما ترى سبيات غير خطيات ولا رضيات»

وقال يزيد بن أبي سفيان: أنه سمع أم حبيبة بنت العاص، وهي تقول:« قبح الله رجلاً يفر عن حليلته، وقبح الله رجلاً يفر عن كريمته» .

ثم قال أيضاً: وسمعت نسوة من المسلمين يقلن «قاتلوا أيها المسلمون، فلستم

بعولتنا إن لم تمنعونا، وأخذن العناهر فكلما مر بهن منهزم من المسلمين ، حملن عليه حتى يضربن وجهه، ويرددنه إلى جماعة المسلمين»[٣٢].

ومع أن ذكر النساء وأدوارهن ورد في أخبار كل معركة من معارك الفتوح سواء في الشام، أو العراق، نجد أخبار دور النساء واضحاً تمام الوضوح في معركة اليرموك، خلال أعمال قتالية استمرت عدة أيام، وذكر ابن حبيش، وأيضاً ورد لدى البدر العيني ذكر عدد من النسوة اللواتي شاركن في اليرموك[٣٣] مشاركة فعالة وقاتلن بالسيوف والعناهر وكان على رأسهن هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان، وخولة بنت الأزور، وأم حكيم زوجة عكرمة بن أبي جهل.

وقاتلت نساء من قريش بالسيوف حين دخل المعسكر الرومي معسكر المسلمين، منهن ابن حكيم ابنة الحارث ابن هشام حتى سابقن الرجال[٣٤]، وعن «أبي أمامة وكان شهد اليرموك هو وعبادة بن الصامت، إن النساء قاتلن في يوم اليرموك في جولة، وخرجت جويرية بنت أبي سفيان في جولة، وكانت مع زوجها، في قتال شديد، وأصيبت يومئذ عين أبي سفيان، فأخرج السهم من عينه حتمه، وفي الطبري أبو حتمه»[٣٥].

أما هند بنت عتبة فقد كانت أسلمت يوم فتح مكة ومعها نساء، أتين رسول الله ﷺ وهو بالأبطح فبايعنه، فتكلمت هند، فقالت: « يا رسول الله الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه لتنفعني رحمتك، يا محمد إني امرأة مؤمنة بالله مصدقة برسوله، ثم كشفت عن نقابها، وقالت: أنا هند بنت عتبة.فقال رسول الله ﷺ: مرحباً بك, فقالت: والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب إليّ من أن يذلّوا من خبائك, فقال رسول الله: وزيادة, وقرأ عليهن القرآن, وبايعهن, وجاءت هند إلى رسول الله ﷺ, فقالت: يا رسول الله, إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني وولدي ما يكفيني إلا ما أخذت من ماله وهو لا يعلم، فقال: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف» [٣٦].

وجويرية بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف, وأمها هند بنت عتبة بن ربيعة, تزوجها السائب بن أبي حبيش بن المطلب بن أسد بن عبد العزي بن قصي, ثم خلف عليها عبد الرحمن بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس, كانت من اللائي شاركن وقاتلن في معركة اليرموك[٣٧].

«ومن النساء اللواتي شهدن وشاركن في اليرموك, أم حكيم بنت الحارث بن هشام القرشية المخزومية, وأمها فاطمة بنت الوليد أخت خالد, وشهدت أحد كافرة في صف المشتركين, ثم أسلمت يوم الفتح تحت ابن عمها عكرمة ابن أبي جهل، ولما أسلمت كان زوجها قد هرب إلى اليمن، فاستأذنت له النبي ﷺ، واستأذنته في أن تسير في طلبه، فأذن لها، فردته، فأسلم، وقتل عنها عكرمة أثناء معارك فتح الشام،فتزوجها خالد بن سعيد، فلما نزل المسلمون مرج الصفر عند دمشق، أراد خالد بن سعيد أن يعرس بها، فقال: إن نفسي تحدثني أني أقتل، قالت: فدونك، فأعرس بها عند القنطرة التي بالصفر، وبها سميت قنطرة أم حكيم، وأولم عليها، فلما فرغوا من الطعام تقدمت الروم، وقاتلوا، وقتل خالد، وقاتلت أم حكيم يومئذ، فقتلت سبعة بعمود الفسطاط الذي عرس بها خالد فيه[٣٨].

وأما أسماء بنت أبي بكر الصديق بن أبي قحافة »عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم«، وأمها قتيلة بنت عبد العزى بن أسعد بن جابر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، وهي أخت عبد الله بن أبي الصديق لأبيه وأمه، تزوجت الزبير بن العوام، وأسلمت قديماً بمكة، وبايعت رسول الله ﷺ، وهي ذات النطاقين، أخذت نطاقها بعد الهجرة فشقته باثنين، فجعلت واحداً لسفرة رسول الله ﷺ، والآخر عصاماً لقربته، ليلة خرج رسول الله ﷺ، وأبو بكر إلى الغار، فسميت ذات النطاقين، وأنجبت للزبير بن العوام:عبد الله، وعروة، والمنذر، وعاصماً، والمهاجر، وخديجة الكبرى، وأم الحسن، وعائشة.

وجاء عن أبي واقد الليثي صاحب النبي ﷺ، وكان قد شهد اليرموك قال: «كانت أسماء بنت أبي بكر مع الزبير، قال فسمعتها وهي تقول للزبير: يا أبا عبد الله، والله، إن الرجل من العدو يستمر يسعى، فتصيب قدمه عروة، أطناب خبائي فيسقط على وجهه ميتاً ما أصابه السلاح».

وذكر البدر العيني: «أن أبا عبيدة تولى الحرس بنفسه في ليلة من ليالي اليرموك فبينما هو يطوف حول معسكر المسلمين إذ نظر إلى فارسين وهما يدوران بدورانه فكلما قال أبو عبيدة لا إله إلا الله محمد رسول الله قالاها معه فلما قرب منهما تأملهما وإذا هما الزبير بن العوام وزوجته أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم، فسلم أبو عبيدة وقال للزبير: يا بن عمة رسول الله ما الذي أخرجك، قال: أحرس المسلمين وذلك أن أسماء زوجتي قالت لي يا بن عمة رسول الله لا شك أن المسلمين مشغولون في هذه الليلة عن الحرس، فهل لك أن تساعدني على حرس المسلمين؟ فأجبتها إلى ذلك، فشكر له أبو عبيدة وعزم عليه أن يرجعها إلى رحلهما فلم يفعلا، فكان الزبير وزوجته أسماء في تلك الليلة يطوفان ليلتهما، وكان أبو عبيدة يطوف مع جماعته من المهاجرين في تلك الليلة.

ويورد أيضاً البدر العيني في كتابه « **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**» أن عبد الله بن قرط قال وهو يراقب القتال الشديد في اليرموك(٣٩) بين العرب المسلمين والروم:« فقلت في نفسي وكم مقدار ما يقاتل هؤلاء وهم نفر يسير ومن بينهم أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وشرحبيل وضرار وهشام والمسيب وعبد الرحمن بن أبي بكر والفضل بن أبي عباس رضي الله عنهم حتى أسعدنا الله تعالى بحملة من النساء اللاتي شهدن المواطن مع رسول الله ﷺ يداوين الجرحى ويسقين الماء ويبرزن إلى القتال فما رأيت امرأة من نساء قريش قاتلت بين يدي رسول الله عليه السلام ولا في اليمامة مع خالد رضي الله عنه مثلما قاتلت نساء قريش يوم اليرموك حتى دهمهن القتال، وخالط الروم المسلمين فضربن بالسيوف ضرباً

عظيماً وضربن وجوه الخيل بالعمد ولوّحن بالأطفال وجعل بعضهن يقاتلن المشــركين وبعضهم يقاتل المسلمين الفارين حتى رجعوا إلى القتـــال وبعضـــهن يســقين المـــاء وبعضهن يضمدن الجراح، فبينما هن يقاتلن انهزمت نساء لخم وجذام وخذلن المسلمين فخرجت خولة بنت الأزور، وأم حكيم بنت الحارث، ولبنى بنت سالم، وســلمى بنــت لؤي بن عامر، وجعلن يضربن في وجوههن ورؤوسهن بالعمد ويقلن أخرجن من بيننا فإنكن توهنّ جمعنا فرجعت نساء تميم وجذام ولخم وقاتلت قتال الموت»[٤٠].

وفي رواية أخرى «قال واقد بن أبي عون نظرت إلى هند بنت عتبة وبيدهـــا من سيوف الهند وهي تضرب في الروم وتقول يا معشر العـــرب احزمـــوا الغلفـــان بالسيوف»[٤١].

وأما أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما فإنها كما قلنـــا مـــن قبـــل قارنت عنانها مع عنان زوجها الزبير بن العوام فما كان يضرب ضربــــة إلا وهـــي تضرب مثلها.

«وتراجع المسلمون إلى القتال حين نظروا إلى النساء يقاتلن قتال الموت فللـــه درّ النساء يوم اليرموك، وحملت خولة بنت الأزور على علج من علوج الروم، كـــان قد حمل على المسلمين، فاستقبلته وجعلت تسابقه بالسيف، حتى طار السيف من يدهـــا، وضربها العلج بسيفه، فأسال دمها، وسقطت على الأرض، فصاحت عفيرة بنت عفـــار حين نظرت إليها صريعة، فجع والله ضرار بأخته ثم حملت عفــــيرة علــــى العلــــج، وضربته ضربة أبانت رأسه، وأقبلت عفيرة نحو خولة والدم قد صبغ رأسها كالشقائق، فقالت لها: كيف أنت؟ فقالت: بخير ولكني أظن أني هالكة لا محالة فهل لك علم بأخي ضرار؟ فقالت عفيرة: ما رأيته! فقالت خولة: اللهم اجعلني فداءً لأخــــي وأعـــز بـــه الإسلام، فقالت عفيرة: فجهدت أن تقوم فلم تقم فحملناها إلى أن أتينا بها موضعها فمـــا كان الليل حتى رأيتها تدور وتسقي الماء وكأنها ما بها أذى، قال ولم تزل الحرب مـــن

ول النهار وكلما قرب الليل زاد ضرامها وشعلت نارها وقتل من الروم يوم التعوير أربعون ألفاً أو يزيدون »[٤٢].

ولقد قيل عن خالد بن الوليد أنه انقطع في يده ذلك اليوم تسعة أسياف وكان يعدل قتاله ماية رجل من شجعان الفرسان.. وفي هذا اليوم رجع المسلمون وأخذوا على أنفسهم مما وصل إليهم من الشدة والألم، وانقلبوا نحو تل النساء، ولم يلبث معهم غير أصحاب الرايات ، قال عبد الله بن قرط الأزدي « شهدت قتال الشام كلها ولم أر أشد قتالاً من يوم التعوير، ورجعت خيل المسلمين على أعقابها، وقابلت الأمر بأنفسها والرايات بأيديهم...»

واتصف النسوة بالشجاعة وتصرفن بدون ارباكات، وتحققت المساواة بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات دون عوائق نفسية، بأن شعور المرأة هي أدنى مرتبة من الرجل بل كانت تشعر آنذاك أنها مساوية للرجل تماماً وأن التركيب الفيزيولوجي ليس عائقاً[٤٣]..

ونخلص إلى القول من خلال النصوص التي تقدمت، ومن مجمل الأخبار، أن القتال في اليرموك استمر ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث ونتيجة الضغط البيزنطي الشديد، رجحت الكفة في القتال لصالح البيزنطيين، ولعل ذلك كان من الظهيرة أو بعد الظهيرة بقليل، وهذا أدى إلى تراجع البعض من المقاتلين العرب، ومكّن البيزنطيين من الوصول إلى معسكر النساء، وهنا تميّز دور النساء، فخرجن بالخناجر والسيوف والعناهر، وردوا البيزنطيين، ووقفوا في وجه المتراجعين من المقاتلين العرب، وأجبروهم على جمع شملهم، وتهيأت الفرصة لقيام المقاتلين العرب بالهجوم المعاكس، مما جعل القتال يستمر حتى ما بعد حلول الظلام، وتم دفع البيزنطيين إلى الوراء، ووقع معظمهم في وادي الواقوصة، وحسمت معركة اليرموك بتحقيق النصر على البيزنطيين، وكان للنساء الدور الحاسم فيها.

الهوامش

١ــ راجع في ذلك ما أورده ابن هشام في «**السـيرة النبويـة**» ج ١، قسم ١، ط. القاهرة ١٩٥٥، ص ١٧٤، ٢٠٤، ٢١٣، وما أورده ابن الأثير في كتابه « **أسد الغابة في معرفة الصحابة**«، تحقيق الأستاذ محمد صبيح، ط. القاهرة، ص ٣٢.

٢ــ **القرآن الكريم**، سورة الحج ٢٢، آية ٣٩.

٣ــ **قيام الدولة العربية الإسلامية**، محمد جمال الدين سرور، ص ٦.

٤ــ **ابن كثير**، ج ٢، ص ٣٥٤.

٥ــ **الواقدي**، ج ١، ص ٢٠٣، خرج أبو سفيان بن حرب بامرأتين: هند بنت عتبة وأميمة بنت سعد بن أشيم، وخرج صفوان بن أمين بامرأتين هما: برزة بنت مسعود الثقفي والبغوم بنت المعذل، وخرج طلحة بن أبي طلحة بامرأة هي سلافة بنت سعد بن شهيد، وعكرمة بن أبي جهل بامرأته أم جهيم، والحارث بامرأته فاطمة بنت الوليد، وعمرو بن العاص بامرأته هند بنت منبه.

٦ــ **الواقدي**، ص ٢٨٦.

٧ــ **ابن الأثير**، ج ٢، ص ٣٥٠، ٣٥١.

٨ــ **الطبري**، المجلد الرابع، ص ١٨، ص ٣٦.

٩ــ **الطبري**، المجلد الرابع، ص ١٥٩.

١٠ــ **سورة التوبة** ــ الآية ٤١.

١١ــ **ابن حبيش ــ الإمام عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن حبيش**، تحقيق الأستاذ الدكتور سهيل زكار، ط بيروت، دار الفكر، المجلد الأول، ص ١٤٩.

١٢ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ١٥٠.

١٣ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ١٥٠.

١٤ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ١٥٣.

١٥ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ١٥٢.

١٦ ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ١٥٤.

١٧ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ١٥٧.

١٨ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ١٥٦.

١٩ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ١٥٨.

٢٠ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ١٥٩.

٢١ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ١٥٠ــ ١٥١.

٢٢ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ١٥٨.

٢٣ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ١٦٣.

٢٤ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ٢٧٢.

٢٥ــ كذا في الأصل **معجم البلدان** « **دير الخل**» ووافق ما جاء بالأصل ما ورد في **الأزرقي** ــ ص ١٧٣، فهو المصدر هنا.

٢٦ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ٢٤٠.

٢٧ــ في حاشية الأصل: الفسل: الرذل الذي لا مروءة له.

٢٨ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ٢٧٢.

٢٩ــ في الحاشية « لعله العناهر « ووافق ما جاء هنا ما أورده **الأزدي**، ص ٢٢١، فإن العناهر هي الأصح، والعناهر هي « عمد البيوت».

٣٠ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ٢٧٤.

٣١ــ في الحاشية ما يفيد في رواية أخرى: رمين بالشام وبالثنيات، ووافق ما جاء هنا

ما أورده الأزدي ــ ص ٢٢٣.

٣٢ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ٢٧٨ــ٢٧٩.

٣٣ــ **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان** ــ البدر العيني ــ صورة عن مخطوط المجلد السابع، القسم الثالث ص ٤٧٣ــ ٤٧٤.

٣٤ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ٢٨٣.

٣٥ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ٢٩٩.

٣٦ــ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، عز الدين إبن الأثير الجزري ــ ط بيروت ــ دار الفكر ــ المجلد السادس ــ النساء ــ ص٢٩٢ــ٢٩٣.

ــ **الطبقات الكبرى** ــ ابن سعد ــ دار صادر ــ ط بيروت ١٩٥٨ــ ص ٢٣٥ــ ٢٣٧.

ــ **الإصابة في تمييز الصحابة** ــ ابن حجر ــ ط. القاهرة ١٩٣٩م ــ ص ٤٠٩ــ ٤١٠.

٣٧ــ **الإصابة في تمييز الصحابة** ــ ابن حجر ــ ص ٢٥٨.

ــ **الطبقات الكبرى** ــ ابن سعد ــ ص ٢٣٩.

٣٨ــ **أسد الغابة في معرفة الصحابة** ــ ص ٣٢١..

٣٩ــ **الطبري** ــ المجلد السابع ــ ط بيروت ــ دار الفكر ــ ص ٢١٣ــ ٢٣٧.

٤٠ــ **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان** ــ البدر العيني ــ صورة عن مخطوط ــ المجلد السابع ــ القسم الثالث ــ ص ٤٧١.

٤١ــ نفس المصدر ــ **عقد الجمان** ــ ص ٤٦٣.

٤٢ــ نفس المصدر ــ **عقد الجمان** ــ ص ٤٧٢ــ ٤٧٤.

٤٣ــ **ابن حبيش** ــ المجلد الأول ــ ص ٢٧٤ــ ٢٧٨ــ ٢٧٩ــ٢٨٣

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

١ــ ابن الأثير الجزري (أبو الحسن علي): **الكامل في التاريخ** ــ القــاهرة ١٣٤٨ هــ .

٢ــ الإربلي (عبد الرحمن سنبط قنيتو): **خلاصة الذهب المسبوك** ــ بغداد ــ مكتبة المثنى.

٣ــ الأزدي (محمد بن عبد الله): **فتوح الشام** ــ القاهرة ١٩٧٠.

٤ــ الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبد الله): **أخبار مكة** ــ بيروت ــ مكتبة خياط.

٥ــ ابن اسحق (محمد): **المغازي والسير** ــ بيروت ١٩٧٨.

٦ــ الأشعري (علي بن اسماعيل): **مقالات الإسلاميين** ــ القاهرة ١٩٥٠.

٧ــ الأصطخري: **المسالك والممالك** ــ ليدن ١٩٢٧.

٨ــ الأصفهاني (حمزة بن الحسن): **تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء** ــ بـيروت ١٩٦١.

٩ــ الأصفهاني (أبو الفرج): **الأغاني** ــ دار الكتب المصرية ــ القاهرة.

١٠ــ الأصفهاني (أبو نعيم أحمد بن عبد الله): **دلائل النبوة** ــ حيدر أباد ١٩٥٠.

١١ــ ابن العثم الكوفي (أحمد): **كتاب الفتوح** ــ حققه د. سهيل زكار ــ ط بـيروت ١٩٩٢.

١٢ــ ابن أنس (مالك): **الموطأ** ــ بيروت ١٩٧١.

١٣ــ البخاري (أبو عبد الله محمد بن اسماعيل): **صحيح البخاري** ــ بيروت ــ دار الفكر.

١٤ـ ابن بكار (الزبير): **جمهرة نسب قريش** ـ القاهرة ـ دار العروبة.

١٥ـ البكري (أبو عبد الله): **معجم ما استعجم** ـ القاهرة ١٩٦٥.

١٦ـ **البلاذري** (أحمد بن يحيى بن جابر):

١ـ **أنساب الأشراف** ـ حققه د. سهيل زكار ـ بيروت ١٩٩٧.

٢ـ **فتوح البلدان** ـ حققه د. سهيل زكار ـ بيروت ١٩٩٢.

١٧ـ البلخي (أبو زيد أحمد بن سهل): **البدء والتاريخ** ـ باريس ١٩١٦.

١٨ـ البياس (محمد): **الأعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام** ـ نسخة مصورة عن مخطوطة القاهرة.

١٩ـ البيروني (أبو الريحان): **الآثار الباقية من القرون الخالية** ـ ليبزغ ١٩٢٣.

٢٠ـ التوحيدي (أبو حيان): **رواية السقيفة في ملاحق المقابسات** ـ القاهرة ١٩٢٩.

٢١ـ الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر):

١ـ **البيان والتبيين** ـ القاهرة ١٣١١هـ .

٢ـ **التاج في أخلاق الملوك** ـ القاهرة ١٣٢٢هـ .

٣ـ **العثمانية** ـ القاهرة بدون تاريخ .

٢٢ـ الجرهمي (عبيد بن شريه): **أخبار عبيد** ـ حيدر أباد ١٣٤٧هـ .

٢٣ـ الجهشياري (ابن عبدوس): **الوزراء والكتاب** ـ القاهرة ١٩٣٨.

٢٤ـ ابن الجوزي (عبد الرحمن):

١ـ **تاريخ عمرو بن الخطاب** ـ القاهرة بدون تاريخ.

٢ـ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ـ حققه د. سهيل زكار ـ بيروت ١٩٩٧.

٢٥ـ ابن حبيب (محمد):

١ـ **كتاب المحبر** ـ حيدر أباد ١٩٤٢.

٢ـ **المنمق في أخبار قريش** ـ حيدر أباد ١٩٦٠.

٢٦ـ ابن حبيش (عبد الرحمن): **المغازي** ـ حققه د. سهيل زكار ـ ط بيروت ١٩٩٢.

٢٧ـ ابن حزم الأندلس (محمد بن علي):

١ـ **جمهرة أنساب العرب** ـ القاهرة ١٩٦٢.

٢ـ **المحلى** ـ القاهرة بدون تاريخ.

٢٨ـ الحموي (محمد): **التاريخ المنصوري** ـ موسكو ١٩٦٠.

٢٩ـ الحموي (ياقوت بن عبد الله): **معجم البلدان** ـ بيروت ١٩٦٨.

٣٠ـ ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي): **صورة الأرض** ـ بيروت ـ مكتبة الحياة.

٣١ـ ابن خلدون (عبد الرحمن): **العبر وديوان المبتدأ والخبر** ـ بيروت ١٩٥٨.

٣٢ـ خليفة (حاجي): **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** ـ ليبزغ ١٨٥٨.

٣٣ـ ابن خياط (خليفة):

١ـ **تاريخ خليفة بن خياط** ـ دمشق ١٩٦٨.

٢ـ **طبقات خليفة بن خياط** ـ دمشق ١٩٦٧.

٣٤ـ أبو داود (سليمان بن الأشعث): **السنن** ـ بيروت ـ دار الفكر.

٣٥ـ دحلان (أحمد بن زيني): **الفتوحات الإسلامية** ـ القاهرة ١٣٥٤هـ .

٣٦ـ الدينوري (أبو حنيفة أحمد بن داود): **الأخبار الطوال** ـ القاهرة ١٩٦٠.

٣٧ـ الذهبي (محمد بن أحمد): **تاريخ الإسلام** ـ نسخة مصورة عن مخطوطة المتحف البريطاني.

٣٨ــ الرازي (أحمد بن عبد الله): **تاريخ مدينة صنعاء** ــ دمشق ١٩٧٤.

٣٩ــ الزهري (محمد): **المغازي النبوية** ــ دمشق ١٩٨٠.

٤٠ــ ابن سعد (محمد بن منيع): **الطبقات** ــ بيروت ١٩٥٨.

٤١ــ ابن سلام (أبو عبيد القاسم): **كتاب الأموال** ــ القاهرة بدون تاريخ.

٤٢ــ السمهودي (أبو الحسن علي بن عبد الله): **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى** ــ القاهرة ١٣٢٦.

٤٣ــ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن): **تاريخ الخلفاء** ــ القاهرة ١٩٦٤.

٤٤ــ ابن أبي شبه (عمر): **تاريخ المدينة** ــ المدينة ١٩٨٣.

٤٥ــ ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ــ بيروت ١٩٦٦.

٤٦ــ الطبري (محمد بن جرير): **تاريخ الرسل والملوك** ــ القاهرة ــ دار المعارف.

٤٧ــ ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ــ القاهرة ــ تحقيق العريان.

٤٨ــ ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد):

١ــ **بغية الطلب في تاريخ حلب** ــ حققه د. سهيل زكار ــ ط دمشق ١٩٨٨.

٢ــ **زبدة الحلب من تاريخ حلب** ــ حققه د. سهيل زكار ــ بيروت ١٩٩٧.

٤٩ــ ابن عساكر (علي بن الحسن): **تاريخ مدينة دمشق** ــ المجلد الأول ــ دمشق ١٩٥١.

٥٠ــ العظيمي (محمد بن علي): **تاريخ حلب** ــ رسالة ماجستير ــ ابراهيم زعرور ــ دمشق ١٩٨٥.

٥١ــ أبو الفداء (اسماعيل بن محمد):

١ــ **تقويم البلدان** ــ باريس ١٨٤٠.

٢ــ **المختصر في أخبار البشر** ــ استانبول ١٨٩٦.

٥٢ــ ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم):

١ــ **كتاب المعارف** ــ القاهرة ١٣٠٠هــ .

٢ــ **عيون الأخبار** ــ القاهرة ١٩٦٣.

٣ــ **الإمامة والسياسة** (ينسب له) القاهرة ١٩٦٣.

٥٣ــ القرشي (يحيى بن آدم): **كتاب الخراج** ــ القاهرة بدون تاريخ.

٥٤ــ ابن كثير (اسماعيل بن عمر): **البداية والنهاية** ــ القاهرة ١٩٣٢.

٥٥ــ ابن الكلبي (هشام بن محمد):

١ــ **جمهرة أنساب العرب** ت دمشق ١٩٨٤ــ ١٩٨٧.

٢ــ **الأصنام** ــ القاهرة ١٩٦٥.

٥٦ــ الكوفي (علي): **فتح ــ فتح السندر** ــ ترجمه وحققــه د. ســهيل زكــار ــ بيروت ١٩٩٢.

٥٧ــ الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد): **الأحكام السلطانية** ــ القاهرة ١٩٦٠.

٥٨ــ المبرد (أبو العباس): **الكامل في الأدب** ــ القاهرة بدون تاريخ.

٥٩ــ المسعودي (أبو الحسن علي):

١ــ **التنبيه والإشراف** ــ بيروت ١٩٦٥.

٢ــ **مروج الذهب** ــ القاهرة ١٩٥٨.

٦٠ــ ابن منبه (وهب): **التيجان في ملوك حمير**ــ حيدر أباد ١٣٤٧هــ .

٦١ــ النديم (محمد بن أبي يعقوب): **الفهرست** ــ طهران ١٩٧١.

٦٢ــ ابن هشام (أبو محمد عبد الملك): **السيرة النبوية** ــ تحقيق د. سهيل زكار ــ بيروت ١٩٩٢.

٦٣ــ الهمذاني (القاضي عبد الجبار): **تثبيت دلائل النبوة** ــ بيروت ١٩٦٦.

٦٤ـ الواقدي (محمد بن عمر): **المغازي** ـ اكسفورد ١٩٦٧.

٦٥ـ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح): **تـاريخ اليعقوبـي** ـ بـيروت ١٩٦٠.

٦٦ـ أبو يوسف القاضي (يعقوب): **كتاب الخراج** ـ القاهرة بدون تاريخ.

٦٧ـ مخطوطة **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان** بخط المؤلف بدر الدين محمـود العيني.

ثانياً: المراجع:

١ـ آرنولد (توماس): ١ـ **الخلافة** ـ دمشق ـ دار اليقظة. ٢ـ **الدعوى إلـى الإسلام** ـ القاهرة ١٩٥٧.

٢ـ الأفغاني (سعيد): **أوراق العرب** ـ دمشق ١٩٣٧.

٣ـ أكرم (الجنرال): **سيف الله خالد** ـ دمشق ١٩٧٨.

٤ـ أمير (علي): **مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي** ـ القاهرة ١٩٣٨.

٥ـ أومان: **الإمبراطورية البيزنطية** ـ القاهرة ١٩٥٣.

٦ـ الباز العريني (السيد): **الدولة البيزنطية** ـ القاهرة ١٩٦٥.

٧ـ باشميل (محمد أحمد): **العرب في الشام قبل الإسلام** ـ بيروت ١٩٧٣.

٨ـ بروكلمان (كارل): **تاريخ الشعوب الإسلامية** ـ بيروت ١٩٤٨.

٩ـ حتي (فيليب): **تاريخ العرب** ـ بيروت دار الكشاف.

١٠ـ حميد الله (محمد): **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبـوي والخلافـة الراشدة** ـ بيروت ـ دار الإرشاد.

١١ــ خطاب (محمود شيث): **قادة الفتح الإسلامي** ــ بيروت ١٩٦٦.

١٢ــ علي (جواد): **تاريخ العرب قبل الإسلام** ــ بغداد ١٩٥٠.

١٣ــ غلوب (جون باجوت): **الفتوحات العربية الكبرى** ــ مكتبة المثنى ــ بغداد.

1- Belyaev (E. A.): **Arab, Islam and the Arab Caliphate**, Jerusalem 1969.

2- **Cambridge History of Islam**, Cambridge 1970.

Cambridge Medieval History, vol IV, Cambridge 1967.

3- Ostrogorsky (D): **History of the Byzantine state**, Oxford 1968.

4- Gabrieli (Francesco): **Muhammad and the conquests of Islam**, London 1965.

5- Vasiliev (A): **History of the Byzantine Empire**, 1964.

6- **The Chronicle of the Theophanes**, Philadelphia 1982.

أصداء الحركة الموحدية في دمشق

الدكتورة اكتمال اسماعيل

جامعة دمشق - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - قسم التاريخ

أصداء الحركة الموحدية في دمشق

شكلت العلاقات المشرقية المغربية محور اهتمام كبير لدى الكثير من الباحثين والدارسين على حد سواء ذلك أنه منذ إتمام عملية فتح الأندلس والمغرب، قامت علاقات بينها وبين بلاد الشام على أكثر من صعيد، وقد تفاوتت هذه العلاقات من حيث أهميتها ونشاطها، فكانت ذات زخم كبير ووتيرة عالية في الميدانين الاقتصادي والثقافي، ففي الميدان الاقتصادي ازدهرت التجارة بكل أنواعها وتفرعاتها بين بلاد الشام والمغرب والأندلس، وكذلك الأمر في الميدان الزراعي والصناعي حيث تبودلت الخبرات والعلوم والمعارف حول ذلك.

أما في الميدان الثقافي فقد نشطت حركة قوية بين البلدين، وذلك لأن الأندلس والمغرب كانتا بحاجة ماسة إلى ثقافة وعلوم المشرق، وظلت هذه الحاجة قائمة حتى وقت متأخر من القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي/، عندما استقل المغاربة والأندلسيون، وراحوا يشقون طريقهم معتمدين على أنفسهم، وقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد، وتفوقوا على المشارقة في عدد من الأمور الثقافية، وعلى الرغم من أنهم ظلوا ينظرون إلى المشرق نظرة احترام وإعجاب وتقدير[١].

وقد استقبل المغاربة والأندلسيون على هيئة طلبة علم وتجار زائرين، لتختلف الصورة فيما بعد وتصبح بلاد الشام من أهم أقطار المشرق العربي بالنسبة للمغاربة والأندلسيين الذين قصدوها واستقروا فيها وأصبحوا من رعاياها بلا معارضة أو قيود، وقد اشتغلوا فيها بحرية تامة في كل المجالات العامة دون أن يواجهوا أدنى عقبة، حيث أنهم فُضّلوا في أحيان كثيرة على الشاميين أنفسهم[٢].

وما يدفعنا لهذه المقدمة موضوع البحث ألا وهو أصداء الحركة الموحدية في المشرق العربي. ولحسن الحظ فإن تلك الأصداء سوف نستقرِؤها من الرسالة الوحيدة

التي ذكرها المؤرخ حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي المعروف بابن القلانسي (٤٧٠-٦٦٦هـ/ ١٠٧٧-١١٦٠م) في كتابه تاريخ دمشق، وفيما أعلم بأنه المصدر الوحيد من المصادر الشرقية الذي حوى رسالة من رسائل الموحدين، وهذه الرسالة تمتّ إلى عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي الكومي.

وكان قد وصلنا من المكتبة الأندلسية المغربية عدد من الرسائل يتصدرها مجموعة الرسائل الموحدية التي نشرها ليفي بروفنسال، هذه الرسائل التي كان الموحدون ومن قبلهم المرابطين قد اعتادوا على إرسالها، إما للدعوة أو الإنذار أو لغايات أخرى.

ومن المحقق أنه لا يمكن قراءة تلك الرسائل بكل أوجهها ومقارنتها مع ابن القلانسي دون شك، بمعزل عن معرفة من هم الموحدون؟ وكيف نشأت دولتهم؟ وما هي التنظيمات التي بينت عليها دولتهم؟ إضافة إلى معرفة أوضاع بلاد الشام في تلك الحقبة؟

وبناء على تلك الأسئلة نستطيع القول: هم الذين ينتسبون إلى الفقيه محمد بن تومرت، الذي ولد سنة (٤٨٥هـ/١٠٩٢م) في قبيلة مصمودية تسمى أرغان أوهرغان، والتي عرّبت إلى هرغة، ويلقب ابن /بامغار/ ومعناه العالم الفقيه[٣]. وفي الكتاب الذي كتبه خادمه أبو بكر الصنهاجي الملقب بالبيذق نجد أن ابن تومرت يوصف بأنه /أمغار آن سوس/ أي فقيه السوس.

درس ابن تومرت في مراكش، وحوالي سنة (٥٠١هـ/١١٠٧-١١٠٨م) بدأ في رحلة طويلة إلى المشرق، وتفاصيل هذه الرحلة موضع شك لدى بعض الباحثين لأن ابن تومرت يقول أنه وصل فيها بغداد ودرس على أبي حامد الغزالي، ويروي أحاديث دارت بينه وبين حجة الإسلام، غير أن هناك بعض الباحثين يستبعدون هذه الرحلة لأسباب منها: أن الغزالي رحل إلى طوس سنة (٥٠٠هـ/١١٠٦م) ولم يعد

لبغداد أو دمشق ثانية، ثم توفي سنة (٥٠٥هـ/١١١١م) فإذا كان ابن تومرت قد غادر بلده سنة (٥٠٦هـ/١١١٢م) فهو قطعاً لم يلقَ الغزالي.

ويرجع هؤلاء بأنه قد وصل إلى الإسكندرية وربما إلى القاهرة، وأطال المكوث في مصر والقيروان حيث ألمّ بجانب كبير من العلم[٤].

وقد تصدى ابن تومرت لإنشاء كيان سياسي هو حركة الموحدين ونظمه على طريقة مبتكرة ولم يجعل نفسه خليفة أو سلطاناً، بل مهّد الطريق لعبد المؤمن بن علي لكي يبلغ الرئاسة السياسية والدينية ويتمتع هو وبنوه بالملك وما يتصل به[٥].

وكان ابن تومرت قد التقى بعبد المؤمن بن علي الكومي في تلمسان، وينتمي عبد المؤمن إلى قبيلة زناتية كانت تسكن في قرية تاجره، وقد أصبح عبد المؤمن كبير تلاميذ ابن تومرت وقد فضّله على غيره لذكائه وإخلاصه وعقله[٦].

ولكن ما هي القبائل التي قامت على أكتافها دولة الموحدين؟

من خلال تتبع الحوادث التاريخية يلاحظ بأن أهم هذه القبائل هي: القبائل المصمودية القوية التي تسكن جبال الأطلس الكبير في المغرب الأقصى (درن) وتضم تحت لوائها هرغة، هزرجه، هزميره.هسكورة، هيلانة، هنتاته، وكانت الأخيرة أكبر تلك القبائل فأفرادها يعدون بالألوف ويسكنون الطرف الشرقي لسهل السوس والهضاب المؤدية إلى جبال الساحل أو الأطلس العالية[٧].

والجدير بالذكر أن محمد بن تومرت توفي بعد أن بذر البذرة الأولى لتأسيس تلك الدولة ليكمل الطريق من بعده تلميذه عبد المؤمن بن علي الكومي. وإذا تأملنا شخصية عبد المؤمن من خلال ما ذكرته المصادر، نلاحظ بأنه تمكن من أن ينشئ حركة دينية سياسية كبرى من لا شيء، فما كان بصاحب طريقة صوفية، ولا صاحب علم واسع وإنما هو فقيه متوسط العلم، بدأ حياته داعياً إلى المعروف ناهياً عن المنكر، وبعد ذلك تتطور حياته ويقوم بتوحيد أنحاء المغرب وبعض أجزاء من الأندلس. فقد

امتدت دولته من خط وادي آنه في الأندلس إلى وادي درعه في جنوبـــي المغــرب، وترامت من المحيط الأطلسي إلى طرابلس(٨).

أما أهم التنظيمات التي قامت عليها دولة الموحديــن: هــي مجلــس العشــرة ومجلس الخمسين ويقال مجلس السبعين(٩).

ولكن أليس من المفروض الإحاطة بأوضاع المشرق في تلك الآونة حتى يتــم الغرض من دراسة الرسالة؟ كانت أوضاع المشرق في ذلك الحيــن غــير مســتقرة، فالدولة العباسية قد هبطت إلى درك سحيق من الضعف وكانت الخلافة اسمية فقـــط، بينما كان الحكم الفعلي للسلاطين السلاجقة الذين أحكموا قبضتهم على مقاليد الأمــور. وكان الاحتلال الصليبي لأرض الشام آنذاك في عنفوانه، إضافة إلى أنه كانت كل من أسرتي الزنكيين والبوريين تتقاسمان سلطات دمشق وحلب وحمص وحماه، فدمشـــق، كانت في تلك الآونة تحكم من قبل البوريين الذين تنازعوا مع عماد الدين الزنكي وابنه نور الدين محمود من بعده، فقد توالى على حكم دمشق كل من طغتكين وابنـــه تـــاج الدين بوري وابنه الذي تعرض منذ مطلع حكمـــه لمؤامــرات الباطنيـــة وهجمـــات الصليبيين(١٠).

"وتعرضت ولايته لمطامع عماد الدين الزنكي، وتوفي سنة (٥٢٦هـــ/١١١٣م) بعد أن أوصى بالولاية من بعده لولده شمس الملوك اسماعيل الذي قتل غيلـــة فتولـــى الحكم أخوه شهاب الدين محمود(١١)، وهكذا ظل البوريون يحكمـــون دمشـــق حتـــى استطاع نور الدين محمود بن زنكي دخولها وتوحيد بلاد الشام كلها تحت سلطته. وفي المقابل كان الزنكيون يتولون حكم حلب.

هذا بالنسبة إلى بلاد الشام، فقد كانت تحكم من قبل الفاطميين وعلى ما يبدو أنه كان هناك عداء بين الفاطميين والموحدين وربما يعود لأسباب سياسية أو دينية وهـــذا ما سنحاول عرضه من خلال الحديث.

بعد كل ما ذكر أعلاه أصبح من الضروري عقد مقارنة بين رسائل بروفنسال ورسالة ابن القلانسي من أجل استخلاص أصداء تلك الحركة في دمشق، ونحن في غنى عن التذكير بما يعتور هذا الموضوع من صعوبات نظراً لانعدام تلك الرسائل في مؤلفات مؤرخي المشرق العربي وانحصار ذكرها فقط في كتاب ابن القلانسي، ولكن أليس من المفروض الاستفسار عن الدواعي التي حدت بابن القلانسي إلى ذكر تلك الرسالة؟ وما هي الطريقة التي وصلت بها تلك الرسالة؟

إن مجرد اهتمام ابن القلانسي بالمغرب وذكره لتلك الرسالة وقبلها روايات نقلها فقهاء مغاربة عن الأوضاع في عصر الموحدين في تلك الآونة، دليل على متابعة ما جري في المغرب العربي، وهذه المتابعة دليل على بقاء وحدة المشاعر ووحدة التاريخ، وبالتالي فإن اهتمامات ابن القلانسي تعود لعدة أسباب أهمها الأسباب السياسية إلى جانب الأسباب الإنسانية والاجتماعية المتمثلة في صلة القربى والآمال المشتركة والتاريخ المشترك، وهذا كله يدل على أنه كان هناك صدى كبير لتلك الحركة في المشرق وقد أكد ذلك حين قال:

(وكان قد ورد من فقهاء المغاربة من وثقت النفس بما أورده، وسكنت إلى ما شرحه وعدده.

وحضرت كتب من أهل المغرب إلى أقاربهم ببعض الشرح ورافق ورود ذلك في سنة (٥٤١هـ) بالتواريخ المتقدمة والحكايات المختلفة، فرأيت ذكر ذلك في هذا المكان[١٢]).

إن دل هذا على شيء فهو يدل على الاتصالات القائمة بين بلدان المشرق العربي وبخاصة بلاد الشام، وبين المغرب العربي وقد أشار إلى ذلك ابن القلانسي عندما ذكر أن علاقات القربى هي أحد أسباب تلك الاتصالات.

والمعروف تاريخياً بأن المغاربة وردوا إلى المشرق العربي في هذه الحقبة

لتلقي العلم أو الإقامة. وقد خصص لهم الأمراء أماكن لإقامتهم وزوايا ليدرسون فيها وتشهد على ذلك الزاوية المالكية في الجامع الأموي.

ولم يكتفِ ابن القلانسي بذكر تلك الروايات والكتب بل أشار إلى طريقة وصولها حيث قال:

"أما أخبار المغرب، والحوادث فيه، فلم تسكن النفس إلى إثبات شيء من طوائح أخباره، وما يؤخذ من أفواه تجاره، وقد أفردت من أحوال الخوارج فيه، والفتن المتصلة بين أهليه من الحروب المتصلة وسفك الدماء وما لا تثق النفس به، لاختلاف الروايات وتباين الحكايات"(١٣).

ولكن من الصعوبة الإجابة عن الأسباب التي دعت ابن القلانسي لذكر أخبار الحركة في سنة (٥٤١هـ)، مع العلم أنها نشأت في حقبة مبكرة عن هذا التاريخ، وربما يكون مرد ذلك إلى أسباب سياسية قاهرة ناجمة عن المجازر التي ارتكبت في هذه الآونة، ولاسيما أن الحاكم كان الخليفة عبد المؤمن بن علي (٥٣٤-٥٥٨هـ)، ومع ذلك تبقى الأمور في حدود الفرضية.

والمتتبع لأخبار المغرب عن ابن القلانسي يرى بأن المؤرخ بدأ حديثه منذ ظهور محمد بن تومرت وقد نعته بألقاب وألفاظ قاسية ربما تدخلت فيها أحاسيسه وعواطفه سيما أنه كان المتلقي لتلك الروايات والرسائل من أشخاص جاءوا من المغرب العربي ومن أهم تلك الأوصاف أنه كان سفاكاً للدماء مفسداً، مخالفاً للشريعة الإسلامية وفيما يلي نورد ذلك: "ومبدأ ذلك على ما حكي ظهور الفقيه أبي عبد الله محمد بن تومرت من جبل السوس، ومولده به، وأصله مصمودي، وكان غاية في التفقه والدين، مشهوداً له بالورع والزهد، وكان قد سافر إلى العراق، وجال في تلك الأعمال، ومهر في المناظرة والجدال، واجتمع بأئمة الفقهاء وأخذ عنهم وسمع منهم، وعاد إلى ناحية مصر وما والاها واجتمع مع علمائها، وقرأ عليهم، ثم عاد إلى

المغرب ودعا إلى مذهب الفكر وابتداء ظهوره في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة في مدينة تعرف بدرن في جبل /أولّه/ في البحر المحيط وآخره في بحر الإسكندرية في (رأس أوثان)، وغلب على جبل السوس، واجتمع عليه خلق كثير من المصامدة بجبل درن، وقيل أنه وصل إلى المهدية[١٤].

ثم يتابع سرد الحوادث بأن فقهاء المهدية لم يتقبلوا فكره فاقتضى خروجه منها إلى بجاية، حيث قام بالإنكار على أهلها شرب الخمور وعمد إلى تكسير الأواني، وتابع بعدها حتى دخل أغمات، حيث أصبح معه /٤٠٠/ رجل من المصامدة[١٥].

إن قراءة متأنية لنص ابن القلانسي ينتج عنها أولى الإشاعات لعدم قبول سكان المشرق للدعوة الموحدية، هذه الدعوة التي لم تكتب بحقها أية كلمة إيجابية. فلو كانت مقبولة لكتب عنها الكثير ويثبت ذلك كثرة الأوصاف التي أطلقَها على ابن تومرت فقد قال عنه عند دخوله إلى أغمات: "ارتفع أمره وظهر شرّه"[١٦].

وتبيّن المناظرة التي جرت بين ابن تومرت وبين أحد الفقهاء بحضرة علي بن يوسف بن تاشفين بأنه غلب على أمره حيث قيل له: "ينبغي أن يأمر الأمير بحبس هذا المفتن ليكشف سره، ويحقق أمره ويظهر لكافة المسلمين صحة خبره، فإنه لا يريد غير الدنيا والسلطنة والفساد في الأرض وقتل النفوس"[١٧].

ويستطرد ابن القلانسي في نصه الحديث عن قتال ابن تاشفين والمعارك التي كانت بين المرابطين وبين الموحدين حتى يأتي إلى ذكر وفاة ابن تومرت وتسلم عبد المؤمن بعده حيث يقول: "وخلف جماعة من تلامذته وأصحابه، سلكوا سبيله، وبنوا على بنائه، وسلكوا مذهبه في الفساد وتولد بينهم مذهب سموه ("تكفير الذنب" هذا ما أورده وحكاه وشاهده واستقصاه الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الجبار الصقلي بإملائه من لسانه)[١٨].

ويبدو أن تكفير الذنب هو ما يعرف في المصادر المغربية والأندلسية باسم

(التمييز)، حيث كانت تجري مذابح كبيرة جداً سواء كان ذلك في أيام حكم محمد بن تومرت أو خليفته عبد المؤمن بن علي من بعده.

فقد أوردت المصادر التاريخية الكثير عن هذه المذابح منها ما قام به عبد المؤمن في تلمسان[١٩] حيث قُتل فيها مئة ألف من سكانها[٢٠]، وإلى جانب ما ارتكبه في فاس، فبعد استيلائه عليها قتل معظم سكانها، أما بالنسبة لمدينة مراكش فكان الأمر مختلفاً تماماً فقد حاصر المدينة وقطع الأقوات عنها، حتى أكل الناس الجثث البشرية، وأكل السجناء في السجن بعضهم بعضاً، وأفضى الجوع والضيق والأمراض على شنيع الأطعمة إلى موت كثير من السكان خصوصاً من الشباب والأطفال حتى فني منهم في وقت قصير حسبما تؤكد الرواية العربية زهاء مائتي ألف نفس، وكان الأحياء يطوفون بين الموتى كالأشباح، ولما دخل الموحدون المدينة فعلوا فيها فعل الذئاب المفترسة بالأغنام، فقد ارتكبوا المجازر حتى غمر المدينة سيل مروع من الدماء، واستمر القتل من الصباح حتى المساء[٢١].

لكن ما أوردته المصادر عن الأفعال تجاه العرب كان أكثر. فقد جمع عبد المؤمن العرب من بني رياح كانوا بأفريقية واستحلفهم على قتال المشركين في الأندلس وطلب منهم عشرة آلاف فارس فأجابوا بالسمع والطاعة غير أن هؤلاء نكصوا الوعود وأرادوا العودة، فلما علم عبد المؤمن برجوعهم بعث أولاده فقاتلوهم، ويقال أنه جمعت عظام العرب المقتولين في هذه المعركة عند جبل القرن فكانت كالتل العظيم يلوح للناظرين من مكان بعيد[٢٢]. حتى أن المؤرخ المشرقي عز الدين ابن الأثير ذكر في ترجمة عبد المؤمن أنه كان كثير البذل، كثير السفك لدماء المسلمين على الذنب الصغير، وكان يلزم الناس في سائر بلاده بالصلاة، ومن رؤي وقت الصلاة غير مصل قتل[٢٣].

وذكر ابن القلانسي أن: "الأخبار وصلته من ناحية المغرب بظهور عبد المؤمن فلقب بالمهدي أمير المؤمنين وخليفة المهدي إلى سبيل الموحدين، واجتمع إليه من كان

في حزبه من طوائف السوس، والبربر، والمصامدة، والمرابطين، والملثمين ما لا يحصى له عدد، ولا يدركه أمر، وشرع في سفك الدماء، وافتتاح البلاد المغربية بالسيف والقتل لمن بها من الرجال والحرم والأطفال ما شاعت به الأخبار وانتشر ذكره في سائر الأقطار"(٢٤).

والمتتبع لما ورد من قبل، يلاحظ بأن جميع المؤرخين اتفقوا على أن عبد المؤمن كان سفاكاً سفاحاً للدماء، لم يميز بين الأطفال والنساء والشيوخ وغيرهم، لكن ابن القلانسي انفرد برواية لم يأتِ بها غيره، وهي أن عبد المؤمن تلقب بالمهدي، وهذه الصفة أطلقت على ابن تومرت فقط، بينما اتخذ هو صفة خليفة وأمير المؤمنين وهناك روايات كثيرة حول هذه التسمية.

ومن يراجع الدراسات التاريخية بعين ثاقبة يسترعي انتباهه عزوف هذه الدراسات عن بحث أمر الرسائل الموحدية التي جاءت من المكتبة المغربية، وربما يكون هذا ناتج عن الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، لا سيّما وأن تلك الرسائل هامة جداً لأنها تعكس واقع المنطقة في حقبة تعد هامة جداً للباحثين. وعلى الرغم من الصعوبات التي تعترض الباحث إلا أن عليه المتابعة للتعرف على حقيقة تلك الرسائل واستخلاص النتائج.

وبناءً على ذلك لا بد من عقد مقارنة بين الرسائل الموحدية التي نشرها ليفي بروفنسال ورسالة ابن القلانسي لمعرفة الحقبة الزمنية الحقيقية التي كتبت فيها تلك الرسائل، وهل هي متشابهة أو مختلفة مع رسالة ابن القلانسي؟

في البداية يلاحظ بأن عدد الرسائل الصادرة عن الخليفة عبد المؤمن بلغت ثلاثاً وعشرين رسالة، إلى جانب تعدد كتابها، وتباين تاريخ وفاة هؤلاء الكتاب. أما بالنسبة لرسالة ابن القلانسي فليس لها كاتب معروف.

وعند دراسة أنماط أسلوب الكتب الصادرة عن الخليفة نلاحظ تعدد تلك

الأنماط، ففي رسائل بروفنسال نلاحظ ثلاثة أنماط:

١- النمط الأول تفتتح فيه المكاتب بلفظ من فلان إلى فلان. مثلاً من أمير المؤمنين إلى الطلبة أو المشايخ الذين بسبته أو بفاس أو بمراكش أو غيرها من مدن المغرب[٢٥].

٢- النمط الثاني تفتتح فيه المكاتبة أما بعد حمداً لله[٢٦].

٣- النمط الثالث فتكون المكاتبة فيه بالحمد لله[٢٧].

وبالعودة إلى رسالة ابن القلانسي نلاحظ أنها اتبعت أسلوب النمط الأول من الرسائل المتقدمة أي من أمير المؤمنين، لكنها معهم بالأشخاص الموجهة إليهم فهي موجهة إلى سبيل الموحدين إلى أهلية.

"من أمير المؤمنين، وخليفة المهدي إلى سبيل الموحدين إلى أهلية"[٢٨].

بعد ذلك يعقب المقدمة في رسائل بروفنسال الصلاة والسلام على النبي محمد (ص) وعلى آله وصحبه أجمعين، ثم يذكر مناقب النبي وأخلاقه الحميدة، يتلو ذلك ذكر الإمام المهدي الذي نلاحظ وعلى مدار صفحات الكتاب بأنه وصف بأحلى وأنبل الصفات فمثلاً قيل عنه: "الإمام المعصوم المهدي المعلوم، وليّه الذي تقبل سبل الهداية واقتفاها، وأقام رسوم الشريعة على الرغم من جحدها ونفاها، فأنا كتبناه إليكم كتب الله لكم أجر من جاهد واجتهد...إلخ"[٢٩].

وهذه مقتطفات أيضاً من وصف المهدي:

"الإمام المعصوم، القائم بأمر الله، قيام من كان لله ولرسوله ولكافة المؤمنين خير نصيح.، والداعي إلى ما أمر الله بالدعاء إليه علي ما جبله عليه من صحة بالهداية وتصحيح".

ثم يتابع لأنه "سبب النجاة والخاص والمأمن من نوائب الانتكاس والانتقاص،

والموعود بالظهور والاستيلاء والانتقام من عداته والاقتصاص..هو ستره الذي أضفاه على أوليائه ستراً وسدلاً..وبه إن شاء الله تأمنون من كل ما خامركم نبل روعه، وتصلون إلى ما حال دونه صرم الزمن وقطعه"[٣٠].

وذكر كتاب الرسائل بأن المهدي ذكر في الرسالات السماوية جميعها، فقد ذكر في المزامير، وقد ذكره النبي (ص).

وعموماً فالقول والتوحيد والمهدية وعصمة الإمام لدى الموحدين كلها دعوات سياسية استخدمها ابن تومرت في تحقيق غاياته، فالمهدي هنا معصوم من أن يناله أحد بأذى، والله سبحانه وتعالى يعصمه حتى يتم رسالته[٣١]. والمفروض أن المهدي يعرف الغيب، ولديه قوى خارقة لعمل المعجزات والكرامات، وهذه كلها صفقات لم توجد في ابن تومرت، كما أنها في نظر أهل التوحيد صفات لا يتصف بها غير الخالق، وهو سبحانه وتعالى لا يأذن في الإتيان بالخوارق إلا لمن يشاء من الرسل[٣٢].

ومن خلال قراءة الرسائل وقراءة تاريخ الموحدين تتضح لنا الأسباب بالقول بالمهدية وتتجلى في أن عبد المؤمن كان مضطراً للقول فيها لأن ذلك هو السند الشرعي الوحيد الذي قامت عليه ولايته، فهو خليفة المهدي، والمهدي هو الذي اختاره للولاية، ولهذا عمل على الاستكثار من الطلبة وجعلهم لسان الدعوة لمذهب المهدي وعصمته[٣٣].

وقد خلت رسالة ابن القلانسي من كل تلك المقدمة واقتصرت على البسملة والصلاة على سيدنا محمد (ص) وآله الطاهرين ثم انتقلت إلى خطاب المقصودين، فهل يا ترى حذف ابن القلانسي ذلك؟

بعد تحليل المقدمة لا بد من استعراض ودراسة صلب هذه الرسائل من حيث الموضوعات التي عالجتها وأيضاً من حيث الشكل.

. إن موضوعات الرسائل عند بروفنسال تراوحت ما بين موضوعات حربية أو

غزوات مثل غزو الروم والنصارى الذين تحامل عليهم خلفاء الموحدين، وقد وصفهم الخليفة عبد المؤمن بألفاظ قاسية ونعتهم بالكفر وخير مثال على ذلك ما ورد في الرسالة السادسة عشرة وهي في فتح المرية، وأبذوت، وموت السليطين، أمير النصارى حيث قال:

"ألم يكن هذا الكافر الخاسر عجّل الله بنفسه إلى النار، وأحله متبوأه من دار البوار، يشمخ بأنفه، ويعرض تأني عضفه، وهاهو مجدل بحتفه ومبدل من حياته ونجاته بنسفه وخسفه"(٣٤).

وحوت الرسائل موضوعات اجتماعية كدخول القبائل في المغرب أو في الأندلس في دعوة الموحدين، أو مواضيع إصلاحية كالتوحيد الذي دعت إليه كل الرسائل التالية، السابعة، العاشرة، الثالثة والعشرون، فقد ورد في الرسالة السابعة:

"فبادروا وفقكم الله إلى إجابة منادي الحق وداعيه واسعوا إلى الخير بأعماله المزلفة ومساعيه وسارعوا بالتوبة النصوح تسارع الراغب بدينه المقبل إلى ما يعنيه الصارف نفسه عن ما كانت تكسب من الإثم وتجنيه. واعلموا أن الواجب عليكم وعلى جميع عمرة البسيطة إتيان هذا الأمر العزيز في محل قيامه، والهجرة إليه وقت ظهور دلائله وارتفاع أعلامه"(٣٥).

على أنه يجب ألا يغيب عن الذهن المواضيع السياسية المطروحة في الرسائل مثل تنصيب أبناء الخليفة خلفاء من بعده.

وسواء أكانت الموضوعات المطروحة في الرسائل سياسية أو اجتماعية أو إصلاحية أو حربية فإنها تمثل لنا من الوجهة التاريخية بياناً مبشراً ودقيقاً لأهم الحوادث التي وقعت في أيام الموحدين، ومن الوجهة الثانية تبين لنا تطور الآداب بالديار الإسلامية الغربية حيث تعرض نماذج عن فن الكتابة الرسمية في العصر الموحدي.

ولدى الانتقال من مواضيع رسائل بروفنسال إلى موضوع رسالة ابن القلانسي نرى اختلافاً كبيراً، فعند التعمّق في دراسة النص الذي بين أيدينا نكشف النقاب على أن النص عبارة عن تهديد ووعيد، والملاحظ أنه غير معروف لمن هذا التهديد، ولكن من المؤكد أن الخليفة قد خاطب الحاكم أكثر من مرة ولم يستجب لطلبه وذكر ذلك عندما قال:

"ياعضد الفجار، وعناد الفساق الأشرار، فقد كاتبناكم بالبنان، وخاطبناكم بالبيان، حتى سار كالبدر، واستمر مروز الدهر، فلم تجيبوا ولا أطعتم بل تثاقلتم عن الحق وعصيتم، فانتظروا سيف الدم يهلككم وحجارة المدر تدمغكم، ثم لا يكون لكم استرجاع، ولا يقبل فيكم استشفاع"[٣٦].

إن التهديد والوعيد والغدر هو صفة من صفات الموحدين. فالخليفة عبد المؤمن حرص على القضاء على كل من تطلع إلى جاه أو سلطان من غير أسرة عبد المؤمن، كما أن محمد بن تومرت الخليفة المهدي غدر بجماعات من قبيلة هزيرة المصمودية، فبعد أن أعطاهم الأمان وتركوا سلاحهم انقض عليهم رجاله وأنزلوا بهم مذبحة بشعة. وفرّق ابن تومرت سلاحهم وما كان معهم من مال على أنصاره ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي غدر بها وإنما غدر بأصحابه كأبي محمد عبد الله بن محسن الونشريشي الملقب بالبشير[٣٧].

والواضح أن هناك تساؤلاً ملحاً يفرض نفسه وهو لمن وجّه هذا الكتاب، هل المقصود الخليفة العباسي، أم الخليفة الفاطمي أم السلطان الأيوبي؟

نستطيع القول بأنه مستبعد تماماً أن تكون الرسالة موجهة إلى الأيوبيين لأن الدولة الأيوبية لم تكن قد قامت بعد، إنما قامت علاقات بين الأيوبيين والموحدين أيام أبي يوسف يعقوب المنصور الذي حكم (٥٨٠-٥٩٦هـ/١١٨٤-١١٩٨م).

كما أنه مستبعد تماماً أن تكون وجهت إلى الخليفة العباسي لأن الخلافة

العباسية كانت تعاني من الضعف والانحطاط وكان يسيطر السلاطين السلاجقة على بغداد. والرأي المرجح أن الرسالة قد وجهت إلى الخليفة الفاطمي، ومما يؤكد هذا الترجيح أن بعض المؤرخين قد ذكر بأن المكاتبات الصادرة عن الخلفاء الموحدين إلى أهل الكفر كانت تخرج برسم: أما بعد، ويختم الكتاب بلفظ (والسلام على من اتبع الهدى)(٣٨). وهذا ما تأكد من خلال قراءة الرسالة فكانت خاتمتها على الشكل التالي: (والسلام على من اتبع الهدى هداه، ولم يغلب عليه هواه ورحمة الله وبركاته)(٣٩).

إلى جانب أن الفاطميين أعداء "الإمام المهدي" مرتبة دينية وظلوا يرتبطون مع المغرب بصلة التواصل والموقع الجغرافي وهذا ما أثار حفيظة الموحدين الذين عدوهم منافسيهم الحقيقيين.

وعند الانتقال من صلب الرسائل إلى الخاتمة عند بروفنسال، نلاحظ أن نهاية أكثر الرسائل كانت تنتهي بالدعوة إلى الإيمان بالله تعالى، والتمسك بأهداب الدين الحنيف، ثم تختتم بعض الرسائل بذكر سنة الانتهاء من تاريخ كتابتها. نسوق مثالاً على ذلك ما ورد في الرسالة الأولى. "فبادروا –رحمكم الله– إلى طاعة الله العلانية والنجوى، وشدوا أيديكم على هذا الجبل الأمتن الأقوى، واعلموا أنكم راحلون، فتزودوا، فإن خير الزاد التقوى، وحافظوا –أصلحكم الله– على إخلاص النيات، والتزام الصلوات، وسائر أعمال الطاعات، وتلاوة القرآن والتوحيد، فهي أكرم التلاوات واصفحوا، وأصلحوا، وتعاملوا بالخير تفلحوا واقرعوا أبواب الرحمة بإيمان الإيمان تستفتحوا، وواظبوا على تغيير المنكر وأتمروا بينكم تنجحوا، واشتغلوا بدينكم اشتغالاً، والتزموه التزاماً يخصكم على الدوام ويحرّصكم..."(٤٠).

وهذا يعني بأن نهاية الرسائل كانت تتسم بالطول وهي تقف على طرفي نقيض بالنسبة لرسالة ابن القلانسي التي اتسمت نهايتها بالقصر والاختصار إلى جانب عدم ذكر للسنة التي كتبت فيها هذه الرسالة:

"السلام على من اتبع الهدى هـداه، ولـم يغلـب عليـه هـواه ورحمـة الله وبركاته"[٤١].

وبعد الانتهاء من عقد المقارنة بين تلك الرسائل من حيث الشكل والموضـوع أصبح لزاماً علينا دراسة تلك الرسائل من حيث السمات العامة والمنهج، وهذا يقودنـا إلى دراسة التراكيب اللفظية، وأسلوب الكتابة وغير ذلك.

من الواضح أن رسائل بروفنسال اتسمت من حيث الشكل بأنها حـوت علـى مقدمة وصلب وخاتمة ما عدا الرسالة الحادية عشرة فقد وجدت مبتورة الرأس، هـذا من جهة، ومن جهة أخرى نلاحظ بأن تلك الرسائل كانت تتفاوت في الطول والقصر، إلى جانب أن الرسالة العاشرة منقولة من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي.

ومما يسترعي الانتباه على الطرف الآخر بأن رسالة ابن القلانسي حوت علـى مقدمة وصلب وخاتمة ولكنها قصيرة جداً، فالخليفة دخل الموضوع مباشرة حيث ذكـر أما بعد، ثم تابع الموضوع.

وتكشف لنا الرسائل عند بروفنسال أيضاً تعدد أساليب المخاطبة، فقد تراوحـت تلك الأساليب بين أسلوب الأمر كما في الرسالة الأولى والرسالة الثانيـة والعشـرين وهذه بعض الكلمات التي تدل على ذلك (اعلموا، حافظوا، اصفحوا، تعاملوا، اقرعـوا أبواب الرحمة، واظبوا على تغيير المنكر، اشتغلوا بدينكم).

وأسلوب الوصف الذي ظهر في الرسالة السادسة عشرة عند مراحل (الفتـح) من قبل الموحدين وكيفية دخول القبائل في طاعة الموحدين، وإلـى جـانب أسـلوب الترهيب ولكن هذا ما قل استعماله.

وكان أسلوب التهديد والترهيب الغالب صياغة على رسالة ابن القلانسي وخير دليل على ذلك قوله: "انتظروا ألا يكون لكم استرجاع، ولا يقبل فيكم استشفاع، تـأهبوا للموت"[٤٢] وإلى غير ذلك من الكلمات المستخدمة وبالتالي كان هذا الأسـلوب قاسـياً

جداً وهذا يتواءم مع أسلوب الموحدين القائم على سفك الدماء وعلى الغلو في الأفكار وغيرها.

وتمتاز رسائل بروفنسال بلغة متينة، بليغة، جزلة بأسلوبها، ولا عجب فقد عرف ذلك العصر هذا النوع من الأسلوب في الكتابة سيما وأن محرري هذه الرسائل يعودون إلى العصر الأندلسي، وإلى البلد الأندلسي.

وتتسم التراكيب اللفظية بسمتين: السمة الأولى الغموض والصعوبة، والسمة الأخرى هي السهولة والبساطة، وإلى جانب استخدام بعض الكلمات الجارحة والقاسية مثل شقي -لعنة الله- ذئاب الغارة وكلابها الأوباش. ولم يخل مضمون الرسائل من المحسنات البديعية كالتشبيه والكناية والاستعارة والسجع وغير ذلك، فقد استخدم السجع تقريباً في كل الرسائل حتى أنه لم تخل منه أية رسالة وهذه مقتطفات مما ورد في الرسالة الخامسة.

"أما بعد حمداً لله فاتح الفتوح، وواهب الخير للممنوح، والصلاة على محمد نبيه الأمين النصيح وعلى آله وصحبه الآخذين بأخذه المحض، وقصده الصريح"(٤٣).

ومن الرسالة العاشرة اقتطفنا هذا المقطع:

"الحمد لله الذي له الاقتدار والاختيار، ومنه العون لأوليائه والأقدار، وإليه يرجع الأمر كله فلا يمنع منه الاستبداد والاستئثار، والصلاة على محمد نبيه الذي ابتعثت بمبعثه الأضواء والأنوار عمرت بدعوته الأنجاد والأغوار وخصم بحجته الكفر والكفار"(٤٤).

ومع ذلك لم يخل أسلوب رسائل بروفنسال من رشاقة ومتعة على الرغم من تراكم التفاصيل، وكثرة الأماكن والإعلام، وهذا ما افتقدته رسالة ابن القلانسي، فالكلمات التي أُستُخدِمت فيها سهلة جداً، وتدلّ على أن كاتبها كان لا يتمتع بأي ثقافة أدبية تساعده على الصياغة الأدبية الجميلة التي وجدناها في رسائل بروفنسال.

صفوة القول أن رسائل بروفنسال أعِدَّت من قبل عدد من الكتاب لذلك اختلفت الأساليب، كما أنها كتبت في فترات متباينة وبالتالي كل واحدة تتعلق بمناسبتها، والمرجح أن جميع الكتاب الذين كتبوا الرسائل هم أندلسيون. فالفن واللغة العالية كانت من سماتهم، كذلك كان كتاب الدولة المرابطية أندلسيين.

وبالتالي فإن رسالة دمشق تثير عدة تساؤلات من أهمها، هل ما نشره بروفنسال يمثل فقط نماذج من الرسائل الموحدية أو مما صدر عن ديوان الموحدين؟ هل هذه الرسائل جمعت فيما بعد في كتاب أو مجلد قائم بذاته، لاسيما أنه وصلنا من الأندلس مجاميع تحتوي هذا النوع؟

وهل يعني أو قد يشير إلى أن الذي جمع ربما نقح أو زاد أو أنقص أو لطّف؟ إلى جانب تساؤل هام عن رسالة دمشق ويتمحور حول المخاطب في هذه الرسالة لماذا لم يذكره ابن القلانسي، فإذا كان ملكاً أو خليفة لماذا لم يخاطب على قدر مقامه بالسيادة والرفعة؟

من المرجح أن رسائل الموحدين تلطّفت وصُنّفت في مرحلة تالية لاسيما أنها تتشابه مع الرسائل التي كتبت في عصر أبناء عبد المؤمن وأحفاده، لكن الرسالة التي أثبتها ابن القلانسي ترقى إلى وقت صدورها ولا شك في أصالتها، وهنا تنبع أهميتها ووثائقيتها، وهي أعلى من وثائقية رسائل بروفنسال لكون ابن القلانسي أتى بها عند الحديث عن أخبار المغرب، وأورد كيف وصلت هذه الرسالة، وهذا يدل على أن الاتصالات كانت مستمرة ما بين بلاد الشام وبلدان المغرب العربي على الرغم من كل شيء. خاصة أن مؤرخي بلاد الشام كانوا يهتمون كثيراً بأخبار المغرب، هذه الأخبار التي كانت تصل مع المسافرين والتجار منطلقين في ذلك بأن دمشق في تلك الحقبة كان يقطنها مجموعة كبيرة من المغاربة والذين ظلوا فيها لأمد طويل.

وأخيراً يمكن القول أنّ رسالة ابن القلانسي ألقت ضوءاً جديداً على تاريخ

الموحدين، فهو المؤرخ المشرقي الوحيد الذي نقل رسالة من رسائل الموحدين كـــانت أكثر واقعية وأصالة، وترقى إلى العصر الذي كتبت فيه، وهي تمثل الواقع الذي كـــان يعيشه الموحدون، لذا أثارت عدداً من التساؤلات حول السبب الذي دفع كتاب الرسائل إلى إهمالها وبالتالي فقد كانت السبب في الجدل الذي أحيط بالرســـائل العديـــدة عنـــد بروفنسال، وقطعت الشك بأنها تتمتع بالأصالة، وأن الرسائل الأخرى من صنع الكتاب وربما ليست من صنع عبد المؤمن وخلفائه.

المصادر والمراجع

١- زعرور، ابراهيم: "القضاة الأندلسيون في بلاد الشام"، **مجلة دراسات تاريخية**، عدد ٥٣/٥٤ سنة ١٩٩٥م، ص٦١.

٢- **زعرور:** مجلة دراسات.

٣- المراكشي، عبد الواحد: **وثائق المرابطين والموحدين**، تحقيق د. حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص٦٩.

٤- المراكشي: **المصدر نفسه**، ص٧.

٥- المراكشي: **المصدر نفسه**، ص٧.

٦- المراكشي: **المصدر نفسه**، ص٧٢-٧٥.

٧- المراكشي: **المصدر نفسه**، ص٧٦-٩٧-٩٨.

٨- المراكشي: **المصدر نفسه**، ص٩٥-١١٣.

٩- المراكشي: **المصدر نفسه**، ص.ص١٥٧-٢١٧-٢١٨-٢٠٧.

١٠- ابن الأثير، عز الدين: (ت.٦٣٠هـ): **الكامل في التاريخ**، ١٣ جزء، دار صادر بيروت، ١٩٧٩/١٢٩٩هـ، ج١٠، ص.ص٦٣٢-٦٥٦-٦٥٧.

١١- ابن القلانسي، حمزة بن أسد: (ت.٥٥٥هـ): **تاريخ دمشق**: تحقيق د. سهيل زكار، دار حسان، الطبعة الأولى: دمشق، ١٩٨٣م/ ١٤٠٣هـ، ص٢٤٧-٢٤٨.

١٢- ابن القلانسي: **المصدر نفسه**، ص٤٥٣-٤٥٤.

١٣- ابن القلانسي: **المصدر نفسه**، ص٤٥٣.

١٤- ابن القلانسي: **المصدر نفسه**، ص٤٥٤.

١٥- ابن القلانسي: **المصدر نفسه**، ص٤٥٥.

١٦- ابن القلانسي: **المصدر نفسه**، ص٤٥٥.

١٧- ابن القلانسي: **المصدر نفسه**، ص٤٥٥.

١٨- ابن القلانسي: **المصدر نفسه**، ص٤٥٦.

١٩- أشباخ، يوسف: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، ترجمة محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٤٠م، ص٢١١.

٢٠- أشباخ: **المرجع نفسه**، ص٢١١.

٢١- أشباخ: **المرجع نفسه**، ص٢١١-٢١٣.

٢٢- ابن الأثير: **المصدر نفسه**، ج١١، ص٢٤٧.

٢٣- ابن الأثير: **المصدر نفسه**، ج١١، ص٢٩٢.

٢٤- ابن القلانسي: **المصدر نفسه**، ص٤٥٧.

٢٥- بروفنسال، لافي بروفنسال: **مجموع رسائل موحدية**: المطبعة الاقتصادية، الرباط، رسائل الموحدين: جميع رسائل عبد المؤمن.

٢٦- بروفنسال: **المرجع نفسه**، ص٩٣ -الرسالة الثامنة عشر.

٢٧- بروفنسال: **المرجع نفسه**، ص١٢١ -الرسالة الثانية والعشرون.

٢٨- ابن القلانسي: **المصدر نفسه**، ص٤٥٧.

٢٩- بروفنسال: **المرجع نفسه**، ص٥ -الرسالة الثالثة.

٣٠- بروفنسال: **المرجع نفسه**، ص١٦ -الرسالة السادسة.

٣١- المراكشي: **المصدر نفسه**، ص٧٨.

٣٢- المراكشي: **المصدر نفسه**، ص٩٧.

٣٣- المراكشي: **المصدر نفسه**، ص١٥٧.

٣٤- المراكشي- بروفنسال: **المرجع نفسه**، ص ٨٠ -الرسالة السادسة عشرة.

٣٥- بروفنسال: **المرجع نفسه**، ص١٨-١٩.

٣٦- ابن القلانسي: **المصدر نفسه**، ص٤٥٧.

٣٧- بروفنسال: **المرجع نفسه**، ص٧٨-٩١-٩٢.

٣٨- القلقشندي، أحمد بن علي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**: عشرة أجـزاء، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت ١٩٨٧، ج٦، ص٤٩٦.

٣٩- ابن القلانسي: **المصدر نفسه**، ص٣، الرسالة الأولى.

٤٠- بروفنسال: **المرجع نفسه**، ص٣- الرسالة الأولى.

٤١- ابن القلانسي: **المصدر نفسه**، ص٤٥٧، ج٦، ص٤٩٦.

٤٢- ابن القلانسي: **المصدر نفسه**، ص٤٥٧.

٤٣- بروفنسال: **المرجع نفسه**، ص١٠.

٤٤- بروفنسال: **المرجع نفسه**، ص٣٥.



من التاريخ الثقافي للقهوة
في الحجاز ومصر والشام
في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي

الدكتور محمد م. الأرناؤوط

جامعة آل البيت - الأردن

من التاريخ الثقافي للقهوةفي الحجاز ومصر والشام في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي

اختلف العلماء حول الموطن الأصلي للقهوة (الحبشة أو اليمن) ومكتشفها ووقت انتشارها، ولكن لا خلاف على أن القهوة انتقلت بالفعل من اليمن إلى الحجاز ومنه إلى مصر وبلاد الشام. وقد أثار وصول وانتشار القهوة في الحجاز ومصر وبلاد الشام الخلاف بين الفقهاء / الأدباء / مما أدى إلى تراكم نتاج فقهي أدبي مهم بالنسبة لذلك الوقت، كما أدى إلى حراك / تغير اجتماعي / تمثل في بروز بيوت القهوة / المقاهي / وما صاحب ذلك من مظاهر جديدة، مما جعلها تتحول بالتدريج إلى مراكز ثقافية جديدة وهو ما تناولناه في مقالة سابقة. وفي هذا البحث يتم التركيز على موقف العلماء (الفقهاء /الأدباء) في المراكز الثلاثة المهمة للدولة المملوكية / العثمانية (مكة والقاهرة ودمشق) في المنطقة وتأثيره على المجتمع المحلي، وذلك بالاستناد إلى مصادر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي.

«وقد ألف فيها من أهل العصر بمكة والقاهرة وغيرها مؤلفات منهم من سلك منهج الصواب، المجرد من هوى بغض وحب ظهور، وأطنب الشعراء في مدحها وحلها نظماً على اختلاف القوافي والروى».

عبد القادر الأنصاري الجزيري[١]

«وهو مشروب الكتاب والمدرسين والمطالعين للكتب والمعلمين للعلوم الأدبية والصناعية والشعراء وأهل الأدب» .

جمال الدين القاسمي[٢]

تكشف «واقعة مكة» في ٩١٧هـ /١٥١١م على أن القهوة كانت قد وصلت الحجاز قبل سنوات على الأقل، حتى انتشرت وارتبطت بها مظاهر معينة كما هو واضح من المحضر الذي حُرّر بالواقعة وأُرسل إلى القاهرة حسب الأصول في تلك السنة، وهو أقدم ما لدينا من النصوص التي توفر بعض المعطيات المهمة المتعلقة بوصول وانتشار القهوة. وكان السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠٠-١٥١٦م) قد عيّن خاير بك ناظراً على الحُسبة في مكة، حيث رأى ليلة ٢٢/٢٣ربيع الأول ٩١١هـ/١٥١١م، خلال طريقه من الكعبة إلى بيته جماعة تحتفل بالمولد النبوي و" وجد بينهم شيئاً يتعاطونه على هيئة الشربة الذين يتناولون المسكر ومعهم كأس يديرونه ويتداولونه بينهم ... فسأل عن الشراب المذكور فقيل هذا شراب اتخذ في هذا الزمان وسمي القهوة يُطبخ من قشر حبّ يأتي من بلاد اليمن يُقال له البن، وأن هذا الشراب قد فشا أمره بمكة وكثر وصار يباع في مكة على هيئة الخمارات ويجتمع عليه بعض الناس بالرهن وغيره مما هو ممنوع في شريعة المطهرة[٣].

ويلاحظ هنا على النص / المحضر الذي حرر حينئذ بالواقعة جملة من الأمور التي تستدعي الاهتمام:

١ــ أن القهوة الموجودة حينئذ في مكة كانت تصنع من قشر حب البن، أي مما ستعرف بالقهوة القشرية تمييزاً لها عن القهوة الأخرى (البنية).

٢ــ أن القهوة جاءت إلى الحجاز من اليمن.

٣ــ أن القهوة قد فشت في مكة وصارت تباع في أماكن على هيئة الخمارات / بيوت القهوة.

٤ــ أن القهوة قد أصبحت تجمع الرجال والنساء في هذه الأماكن.

٥ــ أن هذه الأماكن (بيوت القهوة) أصبحت تضم أيضاً أدوات التسلية كالشطرنج والمنقلة.

٦ـ أن هذه الأدوات / الألعاب لم تكن للتسلية البريئة بل أصبحت أيضاً وسيلة للرهن / القمار.

ويبدو أن كل هذه الأمور المصاحبة لانتشار المشروب الجديد قد أقلقت ناظر الحسبة (الوصي على أخلاق المجتمع)، ولذلك فقد جمع في صباح اليوم التالي " قضاة الإسلام وعلماء الأنام ممن هو يتصف بمعرفة العلم والتصوف والزهد والورع والدين ممن يقتدى بقولهم وفعلهم" مثل قاضي القضاة صلاح الدين بن ظهيرة الشافعي والقاضي نجم الدين بن عبد الوهاب المالكي والشيخ شهاب الدين فاتح البيت الحرام، والشيخ عبد الله اليماني الحضرمي والشيخ عبد النبي المالكي المغربي، وغيرهم لمناقشة " أمر القهوة المذكورة واجتماع الناس عليها على هذه الهيئة المشروحة". وقد اتفق العلماء في نقاشهم على التمييز بين القهوة نفسها وبين ما صاحب شربها من مظاهر وأحوال. وهكذا فقد أجمعوا على "أن اجتماع الناس على هذه الهيئة حرام اتفاقاً يجب انكاره على كل قادر عليه". و " أما الحب المسمى البن فحكمه حكم النباتات والأصل فيه الإباحة لقوله تعالى:(وخلق لكم ما في الأرض جميعا)، ولكن تركوا الأمر للأطباء لكي يقرروا إذا كان يحصل من شرب القهوة ضرر في البدن أو العقل. وقد اقتنع خاير بك بما انتهى إليه العلماء وأحضر فوراً طبيبين من " أعيان السادة الأطباء بمكة "، هما الشيخ نور الدين أحمد العجمي الكازروني، وأخوه الشيخ علاء الدين الكازروني، فشهدا بأن المشروب المتخذ من قشر البن " بارد يابس مفسد للبدن المعتدل". وحين اعترض أحد الحاضرين على ذلك بأن البن مباح ومفيد (محرق للبلغم) قيل له أنه حتى " لو كان مباحاً فقد جرّ إلى معصية، وكل طاعة جرت إلى معصية سقطت ". ولما تحقق الأمر كذلك لخاير بك " أشهر النداء بمكة المشرفة بمسعاها ونواحيها وطرقها بالمنع من تعاطي القهوة المذكورة "، وذلك في " ضحوة يوم الجمعة المبارك الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة وتسعمائة"[٤].

ويبدو من المحضر المذكور أن الشيخ نور الدين بن ناصر الشافعي مفتي مكة ومدرسها آنذاك كان من المدافعين عن القهوة خلال ذلك الاجتماع مع خاير بك، مما عرّضه إلى مصاعب بعد أن كفّره بعض الحاضرين. وقد وصل الأمر إلى أن يرسل مع المحضر المذكور إلى العاصمة / القاهرة سؤال يشير إليه لاستصدار فتوى ضد القهوة. وقد جاء هذا السؤال على الصيغة التالية :"ما قولكم في مشروب يقال له القهوة مشاع شربه بمكة المشرفة وغيرها بحيث يتعاطونه في المسجد الحرام وغيره يدار بينهم بكأس من إناء آخر. وقد أخبر خلق ممن تاب عنه بأن كثيره يؤدي إلى السكر، وأخبر عدول من الأطباء بأنه مضر بالأبدان، وقد منع من شربه من يعتد بقوله من العلماء بمكة والزهاد بها، وهناك شاهد جاهل جعل نفسه واعظاً وأفتى الفسّاق بحل شربه، فقيل له ما تقول في هذه الإدارة على هذه الصفة فقال الشارع أدار اللبن. فقيل أخطأت لم يكن إدارة اللبن على هذه الصفة. فهل يحل شربه على الوجه المذكور أم يحرم مطلقاً لكونه مسكراً ومضر بالأبدان؟ وماذا على الجاهل المبيح لشربه، وهل يجب على ولي الأمر أيده الله تعالى إزالة هذا المنكر والمنع منه وردع هذا الجاهل ومن يقول بقوله أم لا ومن الحكم في ذلك؟"(٥)

وحين وصل المحضر / السؤال إلى السلطان الغوري أصدر مرسوماً لنشره في مكة جاء فيه " أما القهوة فقد بلغنا أن أناساً يشربونها على هيئة شرب الخمر ويخلطون فيها المسكر ويغنون عليها بآلة ويرقصون وينكسرون ومعلوم أن ماء زمزم إذا شرب على هذه الهيئة كان حراماً. فليمنع شرابها من التظاهر بشربها والدوران بها في الأسواق(٦).

يبدو لنا أن مرسوم السلطان الغوري، الذي لم يستجب لما ورد في السؤال المتحيز ضد الشيخ ابن ناصر الشافعي بل كان يتميز بروح توفيقية، إنما كان يعبر عن الجو العام في العاصمة / القاهرة، وبالتحديد عن اختلاف العلماء ما بين مؤيد ومعارض للقهوة وامتداد ذلك إلى الحجاز وبلاد الشام، نظراً لمكانة أولئك العلماء.

وفي هذا الإطار يبرز أولاً شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (٨٢٣-٩٢٦هـ-١٤٢٠-١٥٢٠م) الذي أصبح تلاميذه، كما يقول الغزي، شيوخ الإسلام في الحجاز وبلاد الشام كابن حمزة الدمشقي وبدر الدين الغزي وابن السيوفي " مفتي الديار الحلبية " وشهاب الدين الرملي " فقيه مصر " وابن حجر الهيثمي " مفتي الحجاز وعالمها " وغيرهم[٧]. ولذلك فقد كان من المهم هنا موقفه من القهوة لما لذلك من تأثير على تلاميذه الكثر سواء في مصر أو في الحجاز وبلاد الشام. ومن المثير للاهتمام أن الأنصاري نفسه قد تقلب في موقفه من القهوة بين التحريم والتحليل. وهكذا يسوق العيدروسي في " النور السافر" رواية تفيد بأن " بعض المالكية كتب إليهم بتحريم شرب القهوة وساعده من لا بصيرة له على ذلك " مما دفع الأنصاري إلى " منع الناس من شربها " وانتشر الخبر في مصر. إلا أن المولعين بشرب القهوة راجعوه في ذلك فاستفسر أولاً ممن يشربون القهوة عنها، ولم يكتف بذلك بل " أراد الاختبار وأحضر قشر البن ثم أمر بطبخه ثم أمرهم بشربها ثم فاتحهم في الكلام فراجعهم فيه ساعة زمنية فلم ير منهم من الكلام لا تغيراً و لا طرباً فاحشاً بل وجد منهم انبساطاً قليلاً .... ثم زاد فلم يؤثر ". ولذلك فقد " صنّف في حلّها مصنفاً قاطعاً بالحل "[٨]. ومع أن هذا المؤلف لم يصلنا للأسف، إلا أن تأثيره واضح في بعض تلاميذه. ومن هؤلاء مثلاً شيخ الإسلام المحدث ابن باكثير المكي (٩٠٥-٩٨٩هـ/١٤٩٩-١٥٨١م)، الذي له أشعار في مدح القهوة[٩]، وقطب العارفين الشيخ محمد البكري الصديقي (توفي ٩٩٣هـ/١٥٨٥م)، الذي أفتى بتحليل القهوة وله في ذلك أشعار أيضاً[١٠].

وفي المقابل فقد وجد في محيط الأنصاري من العلماء من عارض القهوة وأثّر بدوره على موقف الآخرين في الحجاز وبلاد الشام. ومن أهم هؤلاء دون شك قاضي القضاة ابن الشحنة الحلبي (٨٥١-٩٢١هـ/١٤٤٧-١٥١٥م) الذي كان قد رحل من حلب إلى القاهرة حيث درس فيها وأفتى وتولى قضاء القاهرة وصار أخيراً جليس السلطان الغوري، والذي أفتى بتحريم القهوة[١١]، وكان من أهم تلاميذه محمد بن

سلطان الدمشقي مفتي بلاد الشام (٨٧٠-٩٥٠هـ/١٤٦٥-١٥٤٣م) الذي كان قد تولى قضاء القاهرة في عهد السلطان الغوري نيابة عن أستاذه ابن الشحنة، والذي أفتى أيضاً بتحريم القهوة[١٢].

وفي مثل هذا الوضع لا يعدُّ من المستغرب أن يتفاعل هذا الموقف للعلماء بين مؤيد ومعارض في وقت واحد تقريباً في القاهرة ودمشق ومكة بحكم الأستذة والتلمذة، وأن يؤدي إلى تجاذب دين / اجتماعي، سياسي غير مألوف /.

ففي مكة، التي انطلقت منها الشرارة الأولى في ٩١٧هـ/١٥١١م، استمر انقسام العلماء ما بين معارض ومؤيد للقهوة بل أنه تعمق أكثر من خلال النتاج الفقهي /الأدبي. فقد أصرَّ بعض العلماء على تحريم القهوة كالشيخ الحكمي الكازروني الذي ألف رسالة في تحريمها، بينما أيد بعض العلماء تحليل القهوة كالشيخ أبو بكر المكي الذي ألف أولاً للدفاع عن القهوة رسالته » إثارة النخوة بحكم القهوة « ثم رد على الكازروني برسالة أخرى » إجابة الدعوة بنص القهوة «[١٣]. وفي هذا الوضع جاء مكة في ذي القعدة ٩٣٢هـ/١٥٢٤م العلَم المعروف محمد بن عراق (توفي ٩٣٣هـ/١٥٢٥م) "شافعي زمانه و جنيد أوانه "[١٤]، الذي هاله " أن يفعل في بيوت القهوة من المنكرات فأشار على الحكّام بإبطال بيوت القهوة مع تصريحه بحلها في حد ذاتها غير مرة لغير واحد "[١٥].

ومن المثير أن ابنه الشيخ علي بن محمد " قدوة وقته في المعقول والمنقول "[١٦] كان من أقوى أنصار القهوة في ذلك الوقت. فقد سؤل للفتوة فيها شعراً من قبل العالم الشاعر الحلبي المعروف ابن الحنبلي[١٧] نفسه:

أيها السامي لكلتا الذرتين	بجوار المصطفى والمروتين
أفتني في قهوة قد ظلمت	حيثما شئت تعاطيها بشين

فأجاب عن ذلك بفتوى يحلل فيها شرب القهوة بغض النظر عما يشوبها أحياناً

من مظاهر في أبيات شعرية منها:

فعلى ذي الأمر إنكار الـــــذي شابها حتى يصفـــي دون ديـــــن

فإذا لم يستطعــــــه دون أن يمنع الأصل ففعل منه زيـــــن[١٨]

وفي الواقع لقد كان لهذا الخلاف / الانقسام بين علماء مكة حول القهوة أثـــره في دمشق إذ كان لبعض العلماء من أنصار القهوة دور مهم في ترويجها.

وهكذا يروي لنـــا المـــؤرخ الدمشـــقي المخضـــرم ابـــن طولـــون (توفـــي ٩٥٣هـ/١٥٤٥م) أول معلومة عن شرب القهوة في دمشق بمناسبة زيـــارة قـــاضي مكة، وشيخ الحرم ابن الضياء (توفي ٩٤٢هـ/١٥٣٤م) لدمشق، وإقامته فيها فترة من الزمن. فقد ذكر ابن الضياء ذهب عند الشيخ علي الكزواني[١٩] لسماع المولد النبـــوي وشرب مع الجماعة " القهوة المتخذة من البن، ويعلق على ذلك بالقول: ولا أعلم أنـــها شربت في بلدنا من قبل ذلك "[٢٠]. والأهم من هذا حديث ابن طولون عن الشيخ علـــي بن محمد بن عراق نفسه، الذي جاء دمشق أيضاً في سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٩م، و " أشهر شرب القهوة فاقتدى به الناس وكثرت يومئذ حوانيتها "[٢١]. ومن ناحية أخـــرى، فقـــد جاء دمشق في ذلك الوقت العالم المكي ابن أبي كثير (توفي ٩٥٠هـ/١٥٤٢م)، حيث أقام مدة فيها تصاحب خلالها مع العالم /الشاعر الدمشقي أبو الفتح المالكي. وكان ابـــن أبي كثير من أنصار القهوة وممن أبدعوا فيها الأشعار. فابن العماد يذكر أن له شـــعر حسن منه الموشح المشهور في القهوة الذي مطلعه:

قـــهوة البـــن مرهـــم الحــــزن وشـــفا الأنفـــــــــس

فـــهي تكســـو شـــقائق الحســـن من لــــها يحتســـــــــي

وقد عارضه أبو الفتح المالكي بموشح على وزنه وقافيته[٢٢].

إلا أن هذا الموقف دفع بالعلماء المعارضين للقهوة كابن سلطان والشيخ يونـــس

العيثاوي[٢٣] إلى الرد على ذلك بتحريم " القهوة البنية " وحتى إلى منعها بشكل رسمي. فقد جاء دمشق قاضياً في مطلع ٩٥٣هـ/١٥٤٥م. الشيخ محمد بن عبد الأول الحسيني الذي انضم إلى ابن سلطان والعيثاوي في تحريم القهوة، ولذلك فقد نادى بأبطالها في يوم الأحد المصادف ٧ ربيع الأول ٩٥٣هـ/ ١٥٤٥م، ولم يكتف القاضي الحسيني بذلك بل أنه عرض الأمر بإبطالها إلى السلطان سليمان القانوني (٩٢٦-٩٧٤هـ/١٥٢٠-١٥٦٦م) فورد أمره بإبطالها في شوال من سنة ٩٥٣هـ/١٥٤٦م[٢٤].

ولكن كل هذا لم يمنع بعض العلماء من التعبير عن تأييدهم للقهوة كالشيخ أبو الفتح المالكي توفي (٩٧٥هـ/١٥٦٧م) الذي يصفه الغزي بأنه كان " مغالياً في نصرة القهوة "[٢٥] وتجدر الإشارة إلى أن المالكي كان بالإضافة إلى علمه الغزير في الفقه واللغة وانشغاله بالفتوى والقضاء، من أفضل الشعراء في وقته واشتهر بالهجاء حتى أن الناس كانوا يخافون من لسانه[٢٦]. ولذلك فلم يقصر في شعره بحق الشيخ العيثاوي الذي كان يحرم القهوة:

أنا أفتي بمقتضى الظاهر	أنها مغنم
ليت شعري من أين للماهر	أنها تحرم؟[٢٧]

ويذكر البوريني المعاصر لهما (توفي ١٠٢٤هـ/١٦١٥م) أن المالكي كانت له في القهوة البنية مواقف ومشاهد مع شيخ الإسلام يونس العيثاوي .... فحصل بينهما شقاق طال أمده وتأجج حسده[٢٨]. ويضيف البوريني هنا أنهما اجتمعا مرة لدى قاضي الشام علي أفندي و " تناقشا فيما يتعلق بالقهوة وذكر كل منهما دليله فظهر الشيخ أبو الفتح في البحث على الشيخ يونس حيث لم تكن أدلة التحريم ناهضة"[٢٩].

وقد تصاعد الخلاف بين العالمين / الطرفين المؤيد والمعارض للقهوة خلال عهد الوالي الجديد لدمشق لالا مصطفى باشا[٣٠] الذي بقي في دمشق خمس سنوات

(٩٧١-٩٧٦هـ/١٥٦٣-١٥٦٨م). وكان هذا الوالي كما يصفه الغزي " غشوماً سفاكاً ومع ذلك يحترم العلماء ويعظمهم "[٣١]. ويبدو أنه كان من أنصار القهوة، ولذلك فقد امتدحه الشيخ أبو الفتح المالكي حين أنجز بناء الحمام الجديد في دمشق، بينما كان يتعرض له الشيخ يونس العيثاوي. وهكذا يذكر الغزي أن الوالي صلّى مرة الجمعة في الجامع الجديد خلف الشيخ العيثاوي مع الدفتردار و الأغوات فتعرض العيثاوي للظلم وتحريم القهوة، فغضب لذلك الوالي وعقد مجلساً للعيثاوي دعا إليه خصمه اللدود أبو الفتح المالكي. إلا أن القاضي، كما يذكر الغزي، أنصف إلى حد ما العيثاوي مع أنه لم يكن راضياً عنه بسبب "تشديده في الظلم وتعرضه له وللباشا "[٣٢]. ولكن مع وفاة العيثاوي في ٩٧٦-٩٧٧هـ/١٥٦٨-١٥٦٩م، رجحت كفة المؤيدين للقهوة في دمشق وبلاد الشام بشكل عام، إذ أخذت تنتشر بيوت القهوة في نهاية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي بفضل الأوقاف الجديد التي عرفتها دمشق حينئذ[٣٣]، ولم يعد العلماء / الشعراء يتحرجون من الجلوس فيها والإبداع بها والتغني بالقهوة في أشعارهم[٣٤] وفيما يتعلق بالقاهرة فقد كان في غضون ذلك الشيخ أحمد بن عبد الحق السنباطي (توفي ٩٥٠هـ/١٥٤٣م)، الذي " اشتهر في أقطار الأرض كالشام والحجاز واليمن والروم وصاروا يضربون المثل وأذعن له علماء مصر " على حد قول ابن العماد الحنبلي[٣٥]، يقود الحملة ضد القهوة و بيوت القهوة التي أخذت تنتشر حينئذ بعد أن أفتى هو بتحريمها سنة ٩٣٩هـ/١٥٣٢م. فقد وجه إليه أحد تلاميذه سؤالاً مقصوداً " ما قولكم، رضي الله عنكم ، في شراب يسمونه القهوة، يجتمع عليه الجماعة يشربونه ويزعمون أنه مباح مع أنه يترتب عليه مفاسد كثيرة. فهل هذا جائز أم حرام؟ أفتونا".وقد أجابه الشيخ السنباطي حينئذ: " أنها حرام لأنها مسكرة "[٣٦].

ومن الطبيعي ألا تمر هذه الفتوى دون اعتراض من أنصار القهوة التي عبرت عنهم هذه الأبيات:

أن أقواماً تعدوا والبلا منهم تأتي

حرموا القهوة عمـــــــــداً قد رووا إفكا وبهــــــــتا

إن سألت النص قالـــــــــوا أن عبد الحق أفتـــــــــى[٣٧]

ويبدو أن الموقف قد تصاعد بين الطرفين إلى أن اندلعت فتنة عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م، حين أفتى الشيخ السنباطي بحرمتها وأكد على ذلك في مجالسهم بالأزهر، فتعصب جماعةٌ من العوام لما سمعوا منه ذلك وخرجوا إلى بيوتها من تلقاء أنفسهم من غير أمر حاكم فكسروا أوانها وضربوا جماعة ممن هناك فقام بسبب ذلك فتنة كبيرة "[٣٨]. ولتجنب هذه الفتنة أحيل الأمر إلى قاضي القضاة محمد بن الياس الحنفي، الذي ناقش العلماء أولاً ثم أحضر جماعة ممن يشربون القهوة فـ " أمر بطبخها في منزله وسقى منها جماعات بحضرته وجلس يتحدث معهم معظم النهار ليختبر حاله فلم ير فيهم منهم تغيراً أو شيئاً منكراً فأقرها على حالها "[٣٩].

ويبدو أن هذه الفتوى قد أعادت الاعتبار للقهوة وشجعت أنصارها على التمتع بشربها في بيوت القهوة/القهاوي. وهكذا يشير عبد الغني في كتابه " أوضح الإشارات " عن الوالي الجديد خسرف باشا الذي تولى حكم مصر خلال ٩٤١-٩٤٣هـ/١٥٣٤- ١٥٣٦م، أنه " في زمنه فشت القهوة والقهاوي "[٤٠].

ولكن هذا الوضع انقلب من جديد في سنة ٩٦٨هـ/١٥٧٢م، مع الفارق أنه لم يكن هذه المرة نتيجة لفتوى بل لحكم سلطاني. فقد أورد الجزيري المعاصر للأحداث في " الدرر الفرائد " عن ورود حكم سلطاني مفاجئ إلى القاهرة في مطلع شعبان ٩٦٨هـ/١٥٧٢م" يقضي بمنع المنكرات والمسكرات والمحرمات، ويغلق أبواب الحانات والخانات، ومنع استعمال القهوة والتجاهل بشربها وهدم كوانينها وكسر أوانيها ". ولتنفيذ هذا الحكم، كما يضيف الجزيري، " كان العسس على الفحص وبيوتها وباعتها شديداً جداً، وضربوا و أشهروا، وهدموا البيوت، وكسروا أوانيها المحترمة الطاهرة التي هي مالٌ لرجل مسلم... ولم يبلغن فعلهم مثل ذلك في أوان الخمر

والبرش والحشيشة "[٤١]. ويتضح من النص أن الجزيري ساخطٌ على التعسف في منع القهوة وإغلاق المقاهي، خاصة وإن السلطة العثمانية كانت تتساهل مع شرب الخمر والبرش والحشيشة معللةً ذلك بأن منع البرش يؤدي إلى موت المدمنين عليه وحرمان الخزينة من الضرائب المفروضة عليه[٤٢].

ويبدو أن الموقف قد حسم أخيراً لصالح أنصار القهوة، حيث عبّر عن هذا شاعر القاهرة ابراهيم بن المبلط (توفي سنة ٩٩١هـ/١٥٨٣م) بأبيات يقول في مطلعها:

أرى قهوة البن في عصرنا   على شربها الناس قد أجمعوا[٤٣]

الهوامش

١ـ عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن ابراهيم الأنصاري الجزيري الحنبلي، **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**، تحقيق حمد الجاسر، ج ٢، الرياض (دار اليمامة)، ١٩٨٣، ص١٠٢٥.

ولد المؤلف سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م، في القاهرة وكان والده قد درس الطب وعمل في البيمارستان المنصوري بالقاهرة ثم تولى إدارته وانتقل بعدها في ديوان الإنشاء ثم في ديوان إمرة الحج. وقد نشأ المؤلف في رعاية أبيه حيث كان يرافقه / يساعده في ديوان الحج، مما وفّر له مادة واسعة استفاد منها في تأليف كتابه الضخم "**الدرر الفرائد**". للمزيد عنه وعن مؤلفاته الأخرى انظر مقدمة المحقق/ حمد الجاسر، ص٩-٣٢.

٢ـ جمال الدين القاسمي، **رسالة في الشاي والقهوة والدخان**، دمشق، ١٣٢٢هـ،ص١٧.

٣ـ عبد القادر محمد الأنصاري الجزيري الحنبلي، **عمدة الصفوة في حل القهوة**، مخطوطة في معهد المخطوطات العربية، رقم م ٢١٥٣١، ورقة ٢٨-٢٩.

٤ـ **المصدر السابق**، ورقة ٣١.

٥ـ **المصدر السابق**، ورقة ٣٧-٣٨.

٦ـ **المصدر السابق**، ورقة ٣٨-٣٩.

٧ـ نجم الدين الغزي، **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة**، تحقيق: جبرائيل

جبور، بيروت (دار الآفاق الجديدة)، ١٩٧٩، ج ١، ص ١٩٩.

٨ـ عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروسي، **النور السافر في أخبار القرن العاشر**، صححه وضبطه محمد رشيد الصفار، بغداد (المكتبة العربية) ١٩٣٤، ص ٢٦٠.

٩ـ انظر ترجمته في **المصدر السابق**، ص ٣٦٤-٣٦٨، حيث يسوق المؤلف بعض أشعاره عن القهوة:

أهلاً بصافي قهوة كالآثمد	جليت فزانت بالخمار الأسود
لما أديرت في كؤوس لجينها	بيمين ساقٍ كالقضيب الأملد
يحكي بياض أنائها وسوادها	طرفاً كحيلاً لا بكحل المرود

١٠ـ انظر ترجمته في **المصدر السابق**، ص ٤١٤-٤٣٣،حيث يسوق له المؤلف هذه الأبيات:

أقول لمن ضاق بالهم صدره	وأصبح من كثر التشاغل في فكر
عليك بشرب الصالحين فإنه	شراب طهور سامي الذكر والقدر
فمطبوخ قشر البن قد شاع ذكره	عليك به تنجو من الهم في الصدر

١١ـ انظر ترجمته لدى الغزي، **الكواكب السائرة**، ج١،ص٢١٩-٢٢٠، ابن العماد الحنبلي. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** تحقيق محمود الأرناؤوط، دمشق، بيروت (دار ابن كثير)، ١٩٩٣،ج١٠، ص١٤١-١٤٣.

١٢ـ انظر ترجمته لدى الغزي، **الكواكب السائرة**، ج١، ص٤٠٦-٤٠٧، ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج١٠، ص١٤٢.

١٣ـ القاسمي رسالة، **الشاي والقهوة والدخان**، ص٨.

١٤ـ انظر ترجمته لدى العيدروسي، **النور السافر**، ص١٩٢-١٩٧.

١٥ـ الجزيري، عمدة **الصفوة في حل القهوة**، ورقة ٢٢.

ويضيف الجزيري هنا أن هذا الوضع لم يستمر سوى عدة شهور، وبالتحديد إلى وفاة ابن عراق في صفر ٩٣٣هـ،إذ "رجع الحال إلى ما كان عليه ولم يزل في تزايد إلى وقتنا هذا ".

١٦ـ انظر ترجمته لدى العيدروسي، **النور السافر**، ص١٩٣-١٩٥، والغزي، **الكواكب السائرة**، ج٢، ص١٩٧-١٩٨.

١٧ـ رضي الدين محمد بن الحسن المعروف بابن الحنبلي (٩٠٨-٩٧١هـ) فقيه وأديب ومؤرخ مشهور في حلب اعتبر " عالم الشهباء في عصره "، له مؤلفات كثيرة من أشهرها " **در الحبب في أعيان حلب** "، وله ديوان شعر يرصد فيه قضايا عصره بما في ذلك القهوة:

ابن الحنبلي، **درر الحبب في أعيان حلب**، تحقيق محمود حمد الفاخوري، ويحيى زكريا عيارة، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٧٣، ص٧م-٢٠م؛ راغب الطباخ، **إعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء**، صححه وعلق عليه محمد كمال، حلب (دار القلم العربي)، ج٦، ص٦٢-٧٢.

١٨ـ العيدروسي، **النور المسافر**، ص١٩٤-١٩٥، وانظر أيضاً الغزي، **الكواكب السائرة**، ج٢، ص١٩٨-١٩٩.

١٩ـ الشيخ علي الكيزواني من شيوخ الصوفية الشاذلية في عصره. ولد سنة ٨٨٨ هـ/ م. وتنقل ما بين حماة وحلب ودمشق ومكة، حيث دفن سنة ٩٥٢ هـ: الغزي، **الكواكب السائرة**، ج٣، ص٢٠١-٢٠٣.

٢٠ـ ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج١٠، ص٣٥٠.

٢١ـ الغزي، **الكواكب السائرة**، ج٢، ص١٨٩.

٢٢ـ ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج١٠، ص٤٠٤؛ الغزي، **الكواكب السائرة**، ج٢، ص١٧٩-١٨١.

٢٣ـ الشيخ يونس العيثاوي شيخ الإسلام في عصره، ولد سنة ٨٩٨ في عيثا البقاع وتتلمذ على شيوخ عصره كابن القاضي وابن حمزة وغيرهما. اشتغل في الفقه والوعظ واشتهر بخطابة الجامع الجديد / المعلق في دمشق. له عدة رسائل في الفقه وأشعار، وألف رسالة ضد القهوة حيث " كان يعلن بالإنكار على شربها على المنبر ". توفي سنة ٩٧٦هـ أو ٩٧٧هـ. الغزي، **الكواكب السائرة**، ج٢، ص٢٢-٢٢٣.

٢٤ـ الغزي، **الكواكب السائرة**، ج٢، ص٣٩.

٢٥ـ **المصدر السابق**، ج٣، ص٢٢.

٢٦ـ للمزيد عن المالكي وأشعاره انظر: الغزي، **الكواكب السائرة**، ج٣، ص٢١-٢٦ والبوريني، **تراجم الأعيان من أبناء الزمان**، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، ج١، ص٢٤٩-٢٥٥.

٢٧ـ البوريني، **المصدر السابق**،ج١، ص٢٥٣.

٢٨ـ **المصدر السابق**.

٢٩ـ **المصدر السابق**.

٣٠ـ لالا مصطفى باشا من وزراء/ قادة / ولاة الدولة العثمانية في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. ولد في صوقول في البوسنة، وبدأ صعوده تحت رعاية الصدر الأعظم أحمد باشا (٩٦٠-٩٦٢هـ/١٥٥٣-١٥٥٥م). عين في ٩٦٣هـ/١٥٥٦م مربياً (لالا) للأمير سليم، ولذلك فقد برز أكثر بعد

تولي الأمير سليم للسلطة. وهكذا فقد عين والياً على الشام ثم وزيراً في استنبول في ١٥٦٩م ثم قائداً للجيش العثماني المرسل إلى اليمن في السنة ذاتها، وبعد خلافه مع سنان باشا تولى الحملة لفتح قبرص خلال ٩٧٨-٩٧٩هـ/١٥٧٠-١٥٧١م، ثم فتح جورجيا ٩٨٦هـ/١٥٧٨م، وتوفي أخيراً في ٩٨٨هـ/١٥٨٧م، دون أن يتوج حياته بالصدارة العظمى. تزوج حفيدة السلطان قانصوه الغوري وحظي بثروة واسعة أنفق منها الكثير على بناء أوقاف له في عدة ولايات. وفيما يتعلق ببلاد الشام فقد بنى منشآت مختلفة دينية وثقافية واجتماعية:

S.J.Shaw, **History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol.1,Cambridge 1976**, pp .180-181.

كتاب وقف الوزير لالا مصطفى باشا، وقف على طبعه-خليل مردم بك، دمشق (مطبعة الترقي)، ١٩٢٥.

٣١ــ الغزي ، **الكواكب السائرة**، ج٣، ص٢٠٧.

٣٢ــ **المصدر السابق**.

٣٣ــ تميزت تلك الفترة ببناء منشآت وقفية كثيرة لولاة دمشق من الوزراء الكبار كأحمد باشا ولالا مصطفى باشا ودرويش باشا وسنان باشا ومراد باشا التي تضمنت بيوت القهوة كمصدر للدخل، مما يدل أنها أخذت تجتذب الدمشقيين. وهكذا تكشف وقفية الوالي أحمد باشا (التي تعود إلى سنة ٩٨٣هـ-١٥٧٤م) إلى ما يمكن اعتباره أقدم بيت للقهوة معروف لدينا في دمشق، حيث كان يقع في السوق الجديد (سوق السيباهية / سوق الأروام).

للمزيد حول ذلك انظر: محمد م. الأرناؤوط، **معطيات جديدة عن دمشق في منتصف القرن السادس عشر- وقفية أحمد باشا، مجلة دراسات تاريخية**،

عدد ٥١، دمشق ١٩٩٥، ص١٩٣-٢٢٣.

٣٤ـ يروي البوريني على سبيل المثالَ في حديثه عن الشيخ أحمد العناياتي النابلسي أنه " كانت عادته في كل يوم على الصباح أن يجيب في الغالب داعي الفلاح ثم يسير إلى بيت من بيوت القهوة يكون فيه الماء الجاري مع المليح الساقي والجلوة، ويشرب من قهوة البن أقداح، ويرتاح بها كأنه عاقر راحا ثم يشرع في الكتابة ": البوريني، **تراجم الأعيان**، ج٢،ص٨٩٣.

٣٥ـ ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج١٠،ص٤٠٢.

٣٦ـ الجزيري، **عمدة الصفوة في حل القهوة**، ورقة ٢٤.

٣٧ـ **المصدر السابق**، ورقة ٢٥.

٣٨ـ **المصدر السابق**، ورقة ٢٤.

٣٩ـ **المصدر السابق**، ورقة٢٥.

٤٠ـ أحمد جلبي عبد الغني، **أوضح الإشارات فيمن ولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات**، تحقيق د. فؤاد محمد الماوي، القاهرة ١٩٧٧، ص١٤٧.

٤١ـ الجزيري، **الدرر الفرائد**، ج٢، ص١٠١٨-١٠١٩.

٤٢ـ **المصدر السابق**، ج٢، ص١٠١٩.

٤٣ـ الغزي، **الكواكب السائرة** ، ج٣، ص٩٢-٩٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج١٠، ص ٦٢٣.

معاهدة مكة عام ١٩٢٦

وانعكاساتها الإقليمية والدولية

الدكتور مفيد الزيدي

جامعة بغداد

معاهدة مكة عام ١٩٢٦ وانعكاساتها الإقليمية والدولية

حظيت منطقة شبه الجزيرة العربية باهتمام كبير من قبل القوى الكبرى بعد الحرب العالمية الأولى، لكونها تمثل عقدة مواصلات بحرية وبرية بين أوروبة من جهة والشرق الأقصى من جهة أخرى، فضلاً عن المنافسة الدولية في منطقة الجنوب الغربي منها من أجل السيطرة على الساحل الممتد على طول البحر الأحمر غرباً.

وعلى هذا الأساس يهدف هذا البحث إلى دراسة المواقف الإقليمية والدولية من التوقيع على معاهدة مكة في ٢١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٦ والعلاقات السعودية – اليمنية، هذه المعاهدة التي جاءت ثمن تسويات مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى.

١- الموقع الجغرافي للبحر الأحمر:

يتميز البحر الأحمر بأهمية سياسية وجغرافية واقتصادية وعسكرية لكونه يمثل قناة الاتصال بين المحيطين الأطلسي والهندي عبر البحر المتوسط، والمشرف على منطقة الخليج العربي، والمتحكم بالبحر المتوسط. وتطل عليه عدة دول مثل المملكة العربية السعودية واليمن والصومال وأرتيرية وجيبوتي والسودان، وتبلغ مساحة البحر الأحمر ٤٥٨,٤٨كم٢ وعمقه ٤٩١م، ويقع بين خطي عرض ١٠ْ ،٣٠ْ شمالاً وخطي طول ٢٥ْ، ٥٥ْ شرقاً، ويتصل بقناة السويس شمالاً، ومضيق باب المندب جنوباً، ويضم على جانبيه عدة جزر هي فرسان في عسير، وسواكره في السودان، وباضع في اليمن، وقمران في اليمن أيضاً، ودهلك في أريترية[١].

أما عسير فتقع في جنوب ساحل البحر الأحمر نقطة التقاء الحجاز شمالاً واليمن جنوباً، ونجد شرقاً والبحر الأحمر غرباً[٢] ، ولعسير حدود طويلة نسبياً تمتد من الليث شمالاً حتى زهران وشمران ووادي رينة، وجنوباً من الحديدة إلى المخا

ودراعة وسمار الشام، وحمدان وصعدة وحاشد وتكبير وتنتهي بوادي الفرع ووصلة. أما شرقاً فتبدأ من الدواسر وماء عقيلان وبيشة، وغرباً على طول الساحل الشرقي المطل على البحر الأحمر في الجزء المقابل لعسير(٣).

وعلى هذا الأساس فإن موقع عسير يعد ذو أهمية كبيرة سياسياً وجغرافياً، فضلاً عن تنوع مصادرها الاقتصادية الزراعية والتجارية، ووجود الموارد المائية الوفيرة فيها، والموانئ البحرية مثل الجديدة، والقنفذة على مسافة منها، مما جعلها تكتسب بذلك أهمية كبيرة وتجعل الدولة المسيطرة عليها تحصل على مكانة متميزة في هذه المنطقة الاستراتيجية الحيوية.

٢- الظروف المؤدية لعقد المعاهدة:

ارتبط تاريخ اليمن الحديث بعلاقاته مع ثلاث قوى هي بريطانية، وإيطالية، والدولة العثمانية، والتي انعكست سياساتها في هذه المنطقة على مصير وتاريخ اليمن دون شك.

ارتبط اليمن في الثلث الأول من القرن السادس عشر بالحكم العثماني في عهد السلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) أول الأمر، عندما سعى إلى فرض السيطرة العثمانية على المشرق العربي بعد دخول الشام ١٥١٦، ثمّ مصر ١٥١٧، ومحاولة الوصول إلى اليمن بحجة الدفاع عن البحر الأحمر، والحدود الجنوبية للوجود العثماني في البلاد العثمانية، والوقوف أمام الغزو البرتغالي لمنطقة الخليج العربي والبحر الأحمر، ولاستكمال السيطرة على مصر بتأمين حدودها الجنوبية الشرقية. وقد استغل العثمانيون ضعف الحكم المملوكي في الشام ومصر، وبذلك استطاعوا في عام ١٥٣٨ من دخول اليمن في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦)، بعد أن دخل بغداد عام ١٥٣٤ـ وبذلك فرض سيطرته على معظم بلاد المشرق العربي، وكان هدفه الحقيقي من دخول اليمن هو التحكم بقنوات المواصلات بين قناة السويس

ومضيق باب المندب من خلال مياه البحر الأحمر(٤).

ولكن العثمانيين لم يستطيعوا في واقع الأمر أن يفرضوا سيطرتهم على كامل بلاد اليمن إلا في عام ١٨٧٢ حيث طبقوا قانون الولايات العثماني في البلاد العربية، وقسموا اليمن إلى أربعة ولايات رئيسية هي صنعاء، والحديدة، وعسير، وتعز(٥).

وقد مارس العثمانيون إدارة مباشرة على عسير عن طريق المتصرف العثماني الذي عينوه عليها، وحكم الوالي رديف باشا ثم الوالي مختار باشا "متصرفية عسير" التابعة لولاية اليمن للفترة بين (١٨٧٢ – ١٩١٠).

وظل الأمر هكذا حتى تمكن الأدارسة(٦) من بسط نفوذهم على عسير، وانتزاع اعتراف عثماني بحكم قائمقامية صبيا وأبا عريش أيضاً في ظل ظروف انحلال الدولة العثمانية ومجيء جماعة الاتحاد والترقي، (١٩٠٩ – ١٩١٨)، الذين تغافلوا عن تحركات الأدارسة، وأوعزوا للوالي محي الدين باشا بالرحيل بحراً عن عسير وتسليمها لأهلها، فسارع محمد علي بن محمد بن أحمد الإدريسي بإعلان دخوله الحرب العالمية الأولى إلى جانب بريطانية وحلفائها بعقد معاهدة جيزان في ٣٠ نيسان/أبريل ١٩١٥، وتعهد بموجبها بوقوفه والأدارسة إلى جانب بريطانية ضد الدولة العثمانية، وفي المقابل تعهدت بريطانية بتقديم الحماية الكافية له ضد أية تهديدات خارجية يتعرض لها وأسرته، وقررت منحه الأسلحة والأموال، بشرط عدم دخوله في علاقات سياسية، بأية قوة أجنبية دون موافقة بريطانية. وقد جددت هذه المعاهدة بين الطرفين في كانون الثاني/يناير ١٩١٧ حينما قدمت بريطانية للإدريسي ميناء الحديدة الذي انتزعته من اليمن، ومكافأة شهرية قدرها ٥٠٠٠ جنيه استرليني(٧).

ولكن كيف تحدد مصير عسير في التاريخ المعاصر في منطقة شبه الجزيرة العربية؟

للإجابة عن ذلك، لابد من استعراض سريع لخارطة القوى السياسية في هذه المنطقة في تلك المرحلة، ففي نجد، استطاع الملك عبد العزيز آل سعود (١٨٨٠ –

١٩٥٣) أن يثبت حكم الدولة السعودية بعد أن انتزع اعتراف بريطانية فيها بحكم آل سعود لنجد والحسا والقطيف وملحقاتها.

أما في الحجاز، فقد أعلن شريف مكة الحسين بن علي (١٨٨٠ – ١٩٣٠م) الثورة في ١٠ حزيران/يونيو ١٩١٦ في الحجاز ضد الحكم العثماني، بعد اتفاقه مع بريطانية بمنحه في مقابل ذلك الاستقلال الكامل في الحجاز وبقية البلاد العربية بموجب مراسلات "حسين – مكماهون".

وفي اليمن، وقف الإمام يحيى حميد الدين (١٨٦٩ – ١٩٤٨) تجاه أية محاولة لدخول اليمن في الحرب العالمية الأولى، وتخلص من الحكم العثماني الطويل على بلاده، وحاول اتخاذ موقف محايد من الأطراف المتصارعة في الحرب[٨].

وهكذا تناقضت مواقف القوى الإقليمية من إعلان الحرب العالمية الأولى واتباع سياسة مؤيدة أو محايدة لبريطانية وحلفائها، مما سينعكس ذلك بداهة على مواقف هذه القوى في تحديد مصير عسير.

كانت المطالبة من قبل الإمام يحيى بعودة عسير إلى اليمن، في حين دعا الأدارسة إلى الإبقاء على عسير ضمن حدود إمارتهم بوضعها الجديد، وزاد من حدة الصراع بين الجانبين تدخل القوى الإقليمية والدولية بجانب هذا الطرف أو ذاك، كل حسب مصالحه وسياساته في المنطقة.

ومن جانب آخر، فإن ثمة عوامل موضوعية حدت من هذا الصراع وقربت من التحالف السعودي – الإدريسي، حيث نقل الرحالة اللبناني أمين الريحاني مستشار الملك عبد العزيز آل سعود حينذاك خلال زيارته للمنطقة، أن حقيقة الخلاف تكمن في ضعف القدرة العسكرية لليمن مقارنة بالأدارسة، والاختلاف المذهبي بينهما، ودعم بريطانية القوي للأدارسة عسكرياً ومالياً ومعنوياً ضد اليمن مكافأة لهم على إعلان وقوفهم إلى جانبها في الحرب العالمية الأولى[٩]، في حين لم يرضِ بريطانية موقف الحياد الذي اتبعه الإمام يحيى في هذه الحرب، ودخوله في تحالف مع إيطالية

المتنافسة مع بريطانية في هذه المنطقة(١٠).

وعلى هذا الأساس بنيت الأسس المتينة والمشتركة للصداقة بين آل سعود والأدارسة، وبدأت منذ أن أعلن الإدريسي في عام ١٩١٩ في رسالة وجهها إلى الملك عبد العزيز آل سعود يعلن تأييده وتهنئته له بمناسبة انتصاره على الشريف حسين في معركة تربة(١١).

وبعد عام بعثت قبائل من عسير تشكو جور وظلم آل عائض(١٢)، فحاول الملك عبد العزيز آل سعود الصلح بينهما، ولكن آل عائض رفضوا ذلك فأرسل الملك عبد العزيز جيشاً بقيادة محمد بن عبد الرحمن بن جلوى إلى عسير، وجرت معركة "جحلة"، وانتصر آل سعود ودخلوا عسير، وأناب الملك عبد العزيز بن جلوى وكيلاً عنه ثم عاد إلى الرياض، ولكن آل عائض عادوا ثانية وخرجوا عليه، فجهز الملك عبد العزيز هذه المرة جيشاً بقيادة نجله الأمير فيصل بن عبد العزيز، واستطاع احتلال أبها، وفر آل عائض إلى الحجاز ولقوا دعم وحماية الشريف حسين مادياً وعسكرياً، وعادوا ثانية إلى عسير ولكنهم فشلوا أيضاً في تحقيق أحلامهم، وفضلوا أخيراً اللجوء إلى آل سعود والإقامة بين يديهم(١٣).

وتم عقد معاهدة "الأخوة والصداقة بين الأدارسة والملك عبد العزيز آل سعود في عام ١٩٢٠ تم فيها تقسيم الأشراف على قبائل عسير بين الطرفين لضمان استقرار الإمارة تحت حكم الأدارسة(١٤).

ولكن الأدارسة في عسير بدأوا بالضعف والانحلال بعد وفاة محمد علي الإدريسي في ٣٠ كانون الثاني/يناير ١٩٢٣، ومجيء نجله السيد علي والذي كان ضعيف الشخصية، وغير قادر على إدارة البلاد، فانتهز الإمام يحيى الفرصة واستولى على ميناء الحديدة ثم صبيا، وجيزان، وباجل، واللحية، وميدى(١٥)، وتحول القتال إلى تهامة، وعلى وشك الدخول في مواجهة حاسمة في شمال عسير(١٦).

وقد تدخلت بريطانية وإيطالية في هذه الأزمة الخطيرة نظراً لتهديد ذلك لموقف

بريطانية ومصالحها الاستراتيجية في المنطقة، وتخوفت من انتصار الإمام يحيى ومنافسته لها في عسير وعدن، والدعم الذي يلقاه من إيطالية وتثبيت نفوذها في المنطقة ومنافستها لبريطانية على المصالح الحيوية، ولكن الغريب في الأمر أن بريطانية رفضت النداءات المتكررة من الإدريسي للتدخل ضد الإمام يحيى وإيطالية بحسب صيغة معاهدتي ١٩١٥، ١٩١٧ بين بريطانية والأدارسة، ولكن الأولى رفضت ذلك بحجة أن المعاهدتين لم تشيرا إلى دعم الأدارسة في قضايا خارجية. بل مساندتهم في تثبيت حكمهم ودعمهم مالياً وعسكرياً في القضايا والشؤون الداخلية، وإن الصراع مع الإمام يحيى شان محلي (عربي) لا دخل لبريطانية به[١٧]. ويبدو سبب هذا الموقف أن بريطانية رأت أن الأدارسة أصبحوا قوة غير قادرة بشكل كامل على الحفاظ على مصالحهم الاستراتيجية بالشكل الذي يدفعها للمجازفة في دخول مواجهة مباشرة مع إمام اليمن وحليفته إيطالية، مما قد ينعكس على مجمل ميدان الصراع معها في الشرق الأوسط حتى أوربة.

٣- عقد المعاهدة:

وقد أدت هذه الأزمة إلى محاصرة الزعيم الإدريسي، فثار أهل عسير، وعزلوه ونصبوا بدلاً منه عمه الحسن الإدريسي الذي طالب مجدداً بتدخل بريطانية ودعمه ضد اليمن، ولكنها جددت موقفها السابق في عدم التدخل، مما دفعه ذلك إلى طلب مساعدة الملك عبد العزيز آل سعود بعد أن وصل إلى مكانة متميزة في نجد بدخول نجد ١٩٠٢، والحسا ١٩١٣، وحائل ١٩٢١، والحجاز ١٩٢٥، وأصبح أكبر قوة فعلية في شبه الجزيرة العربية، والوحيد القادر أمام أطماع إمام اليمن في ساحل البحر الأحمر ولاسيما عسير[١٨].

فبعث الحسن الإدريسي وفداً إلى مكة المكرمة في شباط/ فبراير ١٩٢٦ برئاسة محمد بن هادي النعمي الذي قدم الطاعة والولاء للملك عبد العزيز آل سعود،

وطلب مساعدته ضد الإمام يحيى، ولكن عبد العزيز تريث في الأمر في الوقت الذي كان منشغلاً في ترتيب الأوضاع في الحجاز[١٩].

ثم جدد الإدريسي دعوته إلى الملك عبد العزيز بإرسال وفد في أيار /مايو ١٩٢٦ برئاسة علي الميرغلي، ولكنه كرر موقفه السابق، ورغبته في الإبقاء على حسن العلاقة مع إمام اليمن، وتجنب الدخول في مواجهة مباشرة معه، ودعاهم إلى التفاوض مع إمام اليمن لحل أزمة عسير. ولكن الإدريسي أرسل في تشرين الأول/ أكتوبر من السنة ذاتها وفداً برئاسة السيد أحمد الشريف السنوسي الذي قدم من المغرب الأقصى في زيارة الإدريسي، واقترح عليه أن يتحالف مع الملك عبد العزيز آل سعود لمواجهة الإمام يحيى.

وأبدى استعداده للوساطة بهذا الشأن، وبالفعل ذهب إلى الحجاز والتقى الملك عبد العزيز آل سعود، وعرض عليه بإلحاح طلب الإدريسي في التحالف معه، وأخيراً ونظراً للمكانة الطيبة للشريف السنوسي لدى العاهل السعودي وافق على الدخول في معاهدة وقعت بينهما، وعرفت بـ "معاهدة مكة" في ٢١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٦[٢٠].

وعلى الفور، أرسل الملك عبد العزيز قوات عسكرية إلى عسير، ونصب الحسن الإدريسي حاكماً على عسير، وأبقى الشؤون الخارجية تحت حكمه، وتعهد بدعم الأدارسة تجاه تهديدات خارجية أو داخلية يتعرض لها، وأصبحت عسير تحت السيادة شبه الفعلية للملك عبد العزيز آل سعود[٢١].

واستمرت الأمور بهذا الحال حتى خرج الحسن الإدريسي على الحكم السعودي في عام ١٩٣٠، فأرسل الملك عبد العزيز قوات عسكرية لإيقافه، لكنه هرب إلى صنعاء واحتمى لدى الإمام يحيى[٢٢]، وكتب إليه يقول:

«كتب جلالتكم وصلت برفقة العبدلي وتذاكرنا مع وفدكم وتقرّر بموافقتنا ورضانا إسناد إدارة البلاد وماليتها إلى عهد جلالتكم[٢٣]».

أسفرت معاهدة مكة عن تأزم العلاقات البريطانية-الإيطالية فلم يعترف الإمام يحيى بالمعاهدة، وقلصت نفوذ إيطالية على البحر الأحمر، وتطلعها تجاه شمال اليمن(٢٤). وأيدت وزارة البحرية ضم جزر فرسان وخليج قمران إلى آل سعود، وإبعاد الأطماع الإيطالية.

بينما عدتها روما إضعافاً لنفوذها وتقوية لنفوذ لندن، وخشيت من فقدانها لنفوذها ومصالحها الحيوية بالمنطقة(٢٥).

واعترف المؤرخ الإنكليزي ستيفن همسلي لونكريك Stephen H. Longrigg أن المعاهدة حققت للملك عبد العزيز فرض كامل سيطرته على شبه الجزيرة العربية، وأصبحت حدود دولته تمتد بعد ضم عسير على أربعة أخماس المنطقة، وتصل شمالاً إلى حدود الكويت وشرق الأردن والعراق، وجنوباً إلى اليمن وعمان، وشرقاً إلى البحرين وقطر وإمارات ساحل عمان، وتطل على طول ٣٠٠ميل على ساحل الخليج العربي ومسافة ١٠٠ميل على طول ساحل البحر الأحمر الشرقي(٢٦).

وانتقلت بعد توقيع المعاهدة تسمية الدولة السعودية من "سلطنة نجد ومملكة الحجاز وملحقاتها"، إلى المملكة الحجازية النجدية وملحقاتها"، وذلك في ١٩ كانون الثاني/ يناير ١٩٢٧ وأصبح يلقب بـ "ملك الحجاز ونجد وملحقاتها"(٢٧).

٤- موقف إمام اليمن من المعاهدة:

كان حلم الإمام يحيى استعادة عسير من الأدارسة وضمها إلى بلاده، ويرسم سياسته على أساس الامتداد نحو الشمال وضم عسير، ولكن دخول عسير في تبعية آل سعود حرم الإمام يحيى من تطلعاته، وحرمه من منفذ بحري متميز(٢٨).

وظل الإمام يحيى في سياسته غير الودية مع الإدارسة، ولكنه واجه عدة مشكلات أخرى داخلية في هذه الفترة مثل تصاعد ثورة الزرانيق(٢٩) في اليمن، وازدياد أطماعهم في عدن(٣٠)، ولذلك اتبع الإمام يحيى سياسة ضبط النفس والتريث،

وحاول التحرش بتهامة وجسّ النبض، ولكن الملك عبد العزيز آل سعود أرسل وفـــداً إلى صنعاء لتثبيت الحدود، وتوطيد العلاقات مع إمام اليمن، وحمل الوفد الهدايا تعبيراً عن حسن النوايا[٣١]، وضم رجالات بارزة مثل سعيد بن مشيط، وعبد الوهـــاب بـــن محمد، وتركي بن محمد بن ماضي في حين شكل الإمام وفداً لإجراء المباحثات ضـــم عبد الله الوزير، وأحمد هاشم، ومحمد حيدر النعيمي، وتناولت المحادثات عدة قضايـــا هي:

١- مقاومة النفوذ الأجنبي في المنطقة.

٢- تنظيم العلاقات السياسية طبقاً للتعامل الدولي.

٣- إبقاء عسير على وضعها الحالي تحت سيطرة الملك عبد العزيز آل سعود.

٤- عقد معاهدة دفاع وأمن مشترك بينهما، وتنظيم العلاقات بالجهات الأوربيـــة الأخرى[٣٢].

إلا أن المحادثات فشلت لأن الإمام يحيى كرر موقفه السابق فـــي الاســـتحواذ على عسير، وعدم اعترافه بضمها من قبل الملك عبد العزيز، وعلـــى الرغـــم مـــن محاولة الأخير إرسال وفد آخر للتوصل إلى اتفاق مع الإمام يحيـــى وتثبيـــت حـــدود عسير وتهامة ونجران وأبها، ولكن المحاولات لم تنجح لتعنـــت الإمـــام يحيـــى فـــي موقفه[٣٣]. وعندما خرج الحسن الإدريسي عن طاعة الحكم السعودي في عـــام ١٩٣٠ ودعم الإمام يحيى له، أصبحت المواجهة مباشرة بين الطرفين، ودارت معارك عنيفـــة قادها الأمير فيصل بن عبد العزيز، واستطاع أخيراً في عام ١٩٣٣ أن يدخـــل إلـــى الحديدة، وضم الحدود الشمالية الغربية إلى الجنوب، وأجبر الملك عبـــد العزيـــز آل سعود الإمام يحيى على الاعتراف بسياسة الأمر الواقع Statu Quo إلى أن تم التوصل إلى الاتفاق في ضوء معاهدة الطائف في ٢٠ أيار/ مـــايو ١٩٣٤، والتـــي أصبحـــت بموجبها عسير مقاطعة سعودية[٣٤].

٥- التنافس البريطاني-الإيطالي:

أدركت بريطانية منذ بداية تغلغلها في الشرق الأوسط أهمية جنوب غربي شبه الجزيرة العربية الاستراتيجية، وتحكمها بالطرق البحرية والتجارية بين قناة السويس والبحر الأحمر والمحيط الهندي وبلاد الهند، إذ تتصل أورية بالهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح مروراً بالبحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي، وتستطيع من خلالها أن تحكم قبضتها على طريق السويس-بومباي، والتحكم بشرق أفريقية ومسقط وزنجبار، والتوسع في الصومال وشبه الجزيرة العربية بأسرها، وفضلت الحكومة البريطانية اتباع سياسة الإدارة غير المباشرة مع المحميات والمشيخات في الخليج العربي، وأشارت من خلال المعاهدات "المانعة والأبدية" التي عقدتها مع زعامات المنطقة. وأكدت من خلالها أيضاً تأمين محمية عدن ضد أية منافسة أجنبية[٣٥].

والجدير بالذكر أن بريطانية حاولت تسوية أوضاع هذه المنطقة مع الإمام يحيى، ولكن الأخير عد نفسه وريثاً شرعياً للدولة العثمانية، ويسعى إلى ضم عسير وعدن إلى أراضيه تحت اسم "اليمن الكبرى" وحاول التفاهم مع بريطانية لتحقيق هذه الدولة الكبيرة، ولكن بريطانية رأت فيه الرجل الثاني بعد الملك عبد العزيز آل سعود في منطقة شبه الجزيرة العربية لما يتمتع به من نفوذ سياسي وديني، وطموحاته الواسعة في عسير وجزر قمران وفرسان وعدن، وعدت الإدريسي رجلاً غير قادر على الوقوف أمام الإمام يحيى مع الدعم الإيطالي للأخير عبر أرتيرية، ولذلك تخوفت لندن من ازدياد الأطماع الإيطالية في اليمن والمنطقة بأسرها، مما دفع إلى إصدار إعلان حذرت فيه جميع الدول الأجنبية من محاولة التسلل إلى جنوب غربي المنطقة حيث القواعد البحرية البريطانية.

وقد بيّن الكابتن جاكوب H. Jacob المعاون البريطاني الأول لحاكم عدن أن مصالح بلاده تتمثل في دعم نفوذها في عدن، وعدم التدخل المباشر في النزاعات

الداخلية للزعماء العرب، والتفكير في إيجاد الحاكم البديل ليحل محل الإدريسي في عسير، وعدم رغبتها في التحالف مع إمام اليمن في مقابل تخليها عن عسير أو محمية عدن لصالحه[٣٧]. ولكنها تبنت موقف الملك عبد العزيز آل سعود في أزمة عسير مع الإمام يحيى، وكتب لها الملك عبد العزيز يستطلع رأيها بعد أن دعاه الإدارسة أكثر من مرة لضم عسير إليه، ونجدتهم من تحركات الإمام يحيى، وأبدى رغبته في ضم عسير من خلال رسالة بعثها إلى القنصلية البريطانية في جدة في حزيران/ يوليو ١٩٢٦[٣٨]. ورأت بريطانية في الملك عبد العزيز الشخصية القادرة على حفظ الأمن والاستقرار في المنطقة، بعد النجاحات التي حققها في سنوات حكمه الأخيرة في نجد وحائل والحجاز[٣٩].

وفي هذه الأثناء أُعلن عن توقيع معاهدة صداقة وتحالف بين إيطاليا وإمام اليمن في أيلول/ سبتمبر ١٩٢٦ للحفاظ على أمن البحر الأحمر، وإبعاد النفوذ البريطاني عن هذه المنطقة، وأن تكون عسير من نصيب اليمن، وعدم الاعتراف بضم أية قوة أخرى لها[٤٠].

وعدّت إيطالية أن منطقة جنوب البحر الأحمر ذات أهمية استراتيجية وحيوية مع وجود جزر "فرسان وقمران"، ووجودها في أرتيرية[٤١].

والغريب في الأمر أن الجانبين البريطاني والإيطالي كانا يعقدان اجتماعات في روما لبحث تسوية الأوضاع في البحر الأحمر، حينما وصلت أنباء عن عقد معاهدة مكة ١٩٢٦، فهرع وزير الخارجية الإيطالي حاملاً البرقية بهذا الخبر إلى رئيس حكومته، والذي فوجأ هو الأخير بالخبر، وعبر عن ذلك بأنه «كارثة حقيقية لبلاده»، وأصاب الساسة الإيطاليين القلق والخوف على مصالح بلادهم في البحر الأحمر، ولكن رئيس الوفد البريطاني في المباحثات حاول تهدئة الأمور، ولم يؤكد فعلاً عقد المعاهدة، وجدد سياسة بلاده في عدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلاد العربية، وأن المعاهدة شأن عربي بين بلدين متجاورين[٤٢].

حاولت بريطانية امتصاص زخم الإمام يحيى وإيجاد سياسة توازن قوى Balance of Power مع إيطالية في اليمن، وأرسلت الكابتن جيلبرت كلايتون Gelbart Clayton إلى صنعاء في كانون الثاني/ يناير ١٩٢٧، وعقد محادثات لعدة أيام مع الإمام يحيى، وعرض الأخير مقترحاته على بريطانية، في استعادة عسير إليه، وتعهد بضمان حرية الملاحة البحرية في البحر الأحمر ، ومنحه أيضاً السيادة على عدن، ولكن كلايتون رفض هذه المقترحات، وهدد الإمام يحيى بالهجوم على عدن واحتلالها عسكرياً، مما دعا سلاح الجو الملكي البريطاني للقيام لطلعات جوية استطلاعية فوق الأجواء اليمينة لمراقبة تحركات جيش الإمام يحيى(٤٣).

وفي منتصف آب/ أغسطس ١٩٢٧، أبلغ القنصل البريطاني في جدة J. Berid حكومته في لندن أن مدير الشؤون الخارجية السعودي الدكتور عبد الله الدملوجي بعث إليه رسالة من الملك عبد العزيز آل سعود إلى ملك بريطانية يحذره من تزايد المخاطر الإيطالية في المنطقة، ولاسيما بعد شحن أسلحة إيطالية إلى الإمام يحيى، واستفسر عن موقف الحكومة البريطانية من جراء ذلك، فأجاب كلايتون أن حكومته على معرفة كاملة بالتحركات الإيطالية في اليمن. وأكد الملك عبد العزيز في رسالة أخرى أن الإمام يحيى أصبح مهيئاً للقيام بعمل عسكري ضد عسير والحجاز(٤٤).

وكتب الملك عبد العزيز إلى الشيخ حافظ وهبة، ليلتقي المندوب السامي البريطاني اللورد لويد Lord Loyd، وتم التطرق في أثناء المباحثات إلى موقف إيطالية من المنطقة، وأبدى وهبة رغبة حكومته بالتوصل إلى اتفاق مع الإمام يحيى ينهي الأزمة سلمياً، ودعا بريطانية من جانب آخر إلى اتخاذ موقف حازم من التحركات الإيطالية وإيقاف تحريض الطليان للإمام يحيى من التحرش بعسير(٤٥).

وقامت وزارة الخارجية البريطانية بإبلاغ السفير الإيطالي في لندن في ٢٦ أيار/ أغسطس ١٩٢٧ للحضور إلى مقرها، ونقلت إليه مخاوف الملك عبد العزيز آل سعود من تصرفات الإمام يحيى في اليمن، وأنها لا تستطيع التمسك بسياسة ضبط

النفس لوقت طويل، وتساءلت عن مدى قدرة الحكومة الإيطالية في كبح جماح الإمام يحيى، وتجنيب المنطقة نشوب أزمات، وأكدت عدم علمها بنوايا الملك عبد العزيز في تهديد اليمن، وأنه يسعى للاستقرار والأمن بعد طول صراع مع خصومه وتوحيد البلاد[٤٦].

وأسفرت تطورات الأوضاع في نجد والنجاحات التي حققها الملك عبد العزيز آل سعود وضمه الحجاز؛ إلى إدراك بريطانية ضرورة تغيير علاقاته معه، وإحلال معاهدة جديدة بدل معاهدة دارين/ العقير عام١٩١٥، وتوصلت معه إلى معاهدة جدة في ٢٧ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٧، واعترفت بريطانية بموجبها بما حققه الملك عبد العزيز في نجد والحجاز وملحقاتها، وأكدت الصداقة والتحالف معه ضد التهديدات الإقليمية والدولية[٤٧].

وأرسلت حكومة لندن كلايتون إلى روما للتفاوض مع الخارجية الإيطالية، وتنسيق المواقف في البحر الأحمر، وإبعاد التهديد اليمني عن عسير بعد عقد معاهدة جدة ١٩٢٧[٤٨]، وخطت لندن خطوة أخرى بالتصديق على معاهدة مكة ١٩٢٦، وتم الاتفاق الإيطالي-البريطاني لتثبيت النفوذ البريطاني في جزر فرسان وقمران وعدن، وجدد الطرفان على أهمية الحفاظ على الأمن المشترك للمنطقة ضد أية تهديدات أجنبية[٤٩].

وأخيراً تم التوصل في ٢٥ آذار/ مارس ١٩٣٣ إلى معاهدة بريطانية-يمنية لمدة أربعين عاماً "للصداقة والسلام"، واعترفت بها بريطانية بحكم واستقلال اليمن، وتأجيل مسألة تثبيت حدود المنطقة.

الخاتمة:

كان عقد معاهدة مكة ١٩٢٦ في إطار تسوية الموقف حول عسير هو نتيجة طبيعية لما وصل إليه الملك عبد العزيز آل سعود من قوة في منطقة شبه الجزيرة العربية بعد الخطوات الكبيرة التي قام بها من أجل توحيد البلاد ١٩٠٢، استعادة نجد، ١٩١٣ ضم الحساء، ١٩٢١ ضم حائل، ١٩٢٥ ضم الحجاز، ثم أخيراً ١٩٢٦ عسير، خطوة يسود فيها الأمن والاستقرار في عسير وجنوب غربي الجزيرة العربي تحقق مصالح وسياسات بريطانية أيضاً، وإيقاف أطماع الإمام يحيى في عسير والبحر الأحمر، ودعم إيطالية له من أجل زعزعة نفوذ بريطانية من جهة وتأكيد نفوذها في هذه المنطقة.

الهوامش والملاحظات

١- ينظر:

محمد أزهر السماك، الوزن الجيوبوليتيكي للبحر الأحمر، **سلسلة رسائل جغرافية (١٢)**، جامعة الكويت، ١٩٨٩، ص١-١٤.

2- "Asir", Encyclopaedia of Islam, Vol.1, 1960, P.708.

٣- عبد الله بن مسفر، **السراج المنير في سيرة أمراء عسير**، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٨، ص١١-١٢.

٤- السيد مصطفى سالم، **الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨-١٦٣٥**، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٢١-١٥.

٥- سيّار الجميل،**تكوين العرب الحديث ١٥١٦-١٩١٦**، ط١، دار المكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٩٩١، ص٣٩٧.

٦- الأدارسة، أسرة عربية تعود إلى مؤسسها إدريس بن وعد الكامل بن الحسن المثنى، ورحلت من المغرب الأقصى في عام ٦٣٣م بزعامة أحمد بن إدريس، واستقرت في مكة لتأدية فريضة الحج ثم غادرت إلى مصر، وقدم إلى هناك السيد علي السنوسي فأخذ عنه أحمد مبادئ السنوسية وظل في الحجاز وتخرج على يديه نخبة من طلبة العلم، ثم توفي في صبيا عن عمر يناهز الثمانين عاماً، ودفن هناك وصار له مزاراً، وسميت الأسرة على اسمه، وتعاقب أحفاده على حكم الأسرة من بعده. للتفاصيل ينظر: القاضي حسين بن أحمد العريشي، **بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام**، نشره انستاس الكرملي، وبدون مكان، ١٩٣٩، ص١٠٩-١١١، هارولد

يعقوب، ملوك شبه الجزيرة العربية، ترجمة أحمد المضواحي، ط٣، دار العودة، بيروت، ١٩٨٨، ص١٣٠-١٣٢.

٧- فاروق عثمان أباظة، **الحكم العثماني في اليمن (١٨٧٢-١٩١٨)**، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥، ص١٩٤-١٩٥.

٨- هانز هولفزتير، **اليمن من الباب الخلفي**، تعريب خيري حماد، منشورات المكتب التجاري للطباعة، بيروت، ١٩٦١، ص ١٤٧-١٤٨.

٩- ينظر:

مفيد الزيدي، **سياسة بريطانية تجاه آل سعود ١٩١٥-١٩٢٧**، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، كلية الآداب، ١٩٩١، ص٤٢٣-٣٣٥.

١٠- تربة، موقع جرت فيه معركة مهمة بين القوات السعودية والهاشميين في ٢٤ أيار/ مايو ١٩١٩ في جنوب شرقي جبل حضن نحو ١٥٠ ميلاً شرقي مكة، وانتصر فيها السعوديون على جيش يقوده الأمين عبد الله بن الحسين ينظر: عبد الله بن الحسين، **الأمالي السياسية، الآثار الكاملة للملك عبد الله، الدار المتحدة للنشر**، بيروت، بدون تاريخ نشر، ص١٤٩.

11- H. E. Jacob, **"The Yeman" Journal of Central Asian Society**, Vol. XII, Part.1, 1925, PP.30-33.

١٢- آل عائض، ينتسبون إلى عائض بن مرعي من أهل البريدة، ورث الإمارة عن عمه علي بن مجثل وينحدرون من آل سراح فخذ آل يزيد من مغير آل عسير، ودخلوا في نزاع مع السعوديين في عام ١٩٢٠، ثم دخلوا في حماية الملك عبد العزيز آل سعود ينظر: **خير الدين الزركلي، والوجيز في سيرة الملك عبد العزيز**، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤، ص٦٧.

١٣- محمد بن أحمد العقيلي، **تاريخ المخلاف السليماني**، ج٢، ط٢، مراجعة

وإشراف محمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٩٨٢، ص ٧٣٦-٧٤٣.

١٤- فتوح عبد المحسن الخترش، **تاريخ العلاقات السعودية-اليمنية ١٩٢٦-١٩٣٤**، ط١، منشورات ذات السلاسل، ١٩٨٣، الكويت، ص٤٤-٤٦.

١٥- أريك ماكرو، **اليمن والغرب ١٥١٧-١٩٦٢**، تعريب وتعليق عبد الله العمري، الدار العربية للنشر، صنعاء، بدون تاريخ، ص١١٤.

١٦- **مجلة المقطم (القاهرة)**، العدد (١٠٠٤)، ١٤ أيار/ مايو ١٩٢٥.

١٧- سيد مصطفى سالم، **تكوين اليمن الحديث، اليمن والإمام يحيى ١٩٠٠-١٩٤٨**، ط١، مكتبة سعد رأفت، القاهرة، ١٩٧٧، ص٨٨-٨٩.

١٨- فتوح الخترش، **المرجع السابق**، ص٨٨-٨٩.

١٩- صباح مهدي الأموي، **إمارة عسير ١٨٧٦-١٩٣٢**، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة بغداد، ١٩٩٠، ص١٥١-١٦٠.

٢٠- محمد بن أحمد العقيلي، **المرجع السابق**، ج٢، ص٧٥٦-٧٦٠.

٢١- أمين سعيد، **تاريخ الدولة السعودية ١١٥٨-١٣٠٧هـ**، ج١، دار الملك عبد العزيز، الرياض، بدون تاريخ، ص٢١٥.

٢٢- **المرجع نفسه**، ص٢١٥-٢١٦.

٢٣- عبد الله بن مسفر، **المرجع السابق**، ص١١٦.

٢٤- فتوح الخترش، **المرجع السابق**، ص٩٤.

25- Cilve A. Leatherdale, **British Policy Towards Saudi Arabia 1925-1932**, Ph.D. 1984, P.238

26- S.H. Longrigg, the Middle East, **A social Geography**, Oxford Press, London, 1963,P 154.

27- David Howarth, **The Desert King, A. Life of Ibn Saud**, Collins Clear, London, 1964, P.150.

٢٨- سيد مصطفى سالم، **تكوين اليمن**، ص٢١٢.

٢٩- الزرانيق، قبيلة عربية سكنت بين الحديدة وزبير، عرفت بالقوة والشدة والبأس، وأبرز زعمائها أحمد الفتيني، ولقي دعم بريطانية للثورة على الإمام يحيى، وساندته بالطائرات الحربية. ينظر للتفاصيل: محمود الشرقاوي، **جنوب الجزيرة العربية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٩، ص٢٦.

٣٠- سيد مصطفى سالم، **تكوين اليمن**، ص٣٣٤.

٣١- **مجلة السياسة الأسبوعية (القاهرة)**، السنة (٢)، العدد (٦١)، ٢ تموز/ يوليو، ١٩٢١.

٣٢- أمين سعيد، **اليمن، تاريخه السياسي منذ استقلاله في القرن الثالث الهجري**، ط١، دار إحياء الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٥٩، ص٨٠.

٣٣- **مجلة الشرق الأدنى (القاهرة)**، السنة (٢)، العدد (٨)، تموز/ يوليو ١٩٢٧.

34- Fred Maliday, **Arabia Without Sultans**, Penguin Book, London, 1975,P.95.

٣٥- جاد طه، **سياسة بريطانية في جنوب اليمن**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٩، ص٧٠-٧١.

٣٦- مصطفى عبد القادر النجار، **دراسات في تاريخ الخليج العربي المعاصر**، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٨، ص٥٧-٥٨.

٣٧- **المرجع نفسه**، ص٥٨.

٣٨- فتوح الخترش، **المرجع السابق**، ص٩٣.

٣٩- مصطفى النجار، **المرجع السابق**، ص٥٥.

٤٠- أريك ماكرو، **المرجع السابق**، ص١١٧.

41- **Leatherdal**, **Op. Cit.**, p. 232

٤٢- محمد جلال كشك، **السعوديون والحل الإسلامي، مصدر الشرعية للنظام السعودي**، ط٤، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، ١٩٨٤، ص٤٠٣-٤٠٤.

٤٣- سيتون وليمز، **بريطانية والدول العربية، عرض للعلاقات الإنجليزية-العربية ١٩٢٠-١٩٤٨**، ترجمة وتعليق أحمد عبد الرحيم مصطفى مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، مكتبة الآنجلو المصرية، القاهرة،١١٩، ص٤٠٧-٤٠٨.

٤٤- محمد جلال كشك، **المرجع السابق**، ص٤٠٧-٤٠٨.

٤٥- **المرجع نفسه**، ص٤٠٩.

٤٦- **المرجع نفسه**، ص٤٠٩.

٤٧- **ينظر يوميات كلايتون**: J.F. Clayton, **An Arabian Diary**, University Of California Press, Los Angeles, 1969, P262.

48- Leatherdale, **Op. Cit.**, P. 232.

49- **Ibid.**, p240.

ملحق(١)

نص معاهدة مكة في ٢١/تشرين أول/ أكتوبر١٩٢٦

"الحمد لله وحده: بين ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها وبين الإمام الحسن بن علي الإدريسي رغبة في توحيد الكلمة، وحفاظاً لكيان الأمة العربية وتقوية للرابطة العربية بين أمراء جزيرة العرب، قد اتفق صاحب الجلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود، وصاحب السيادة إمام عسير السيد الحسن بن علي الإدريسي على عقد المعاهدة الآتية:

- **المادة الأولى:** يعترف سيادة الإمام الحسن بن علي الإدريسي بأن الحدود القديمة الموضحة في اتفاقية ١٠صفر ١٣٣٩هـ المنعقدة بين سلطان نجد وبين الإمام محمد بن علي الإدريسي التي كانت خاضعة للأدارسة في ذلك التاريخ، وهي تحت سيادة جلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها بموجب هذه المعاهدة.
- **المادة الثانية:** لايجوز لإمام عسير أن يدخل في مفاوضات سياسية مع أي حكومة وكذا لايجوز أن يمنح أي امتياز اقتصادي إلا بعد الموافقة على ذلك من صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها.
- **المادة الثالثة:** لا يجوز لإمام عسير إشهار الحرب أو إبرام الصلح إلا بموافقة صاحب الجلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها.
- **المادة الرابعة:** لا يجوز لإمام عسير التنازل عن جزء من أراضي عسير المبينة في المادة الأولى.
- **المادة الخامسة:** يعترف ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها بأن إدارة بلاد عسير الداخلية والنظر في شؤون عشائرها من نصب وعزل وذلك من الشؤون

الداخلية فهي حقوق إمام عسير على أن تكون الأحكام وفق الشرع والعدل كما هي عليه في الحكومتين.

- **المادة السادسة:** يعترف ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها أن الحكم لإمام عسير في الوقت الحاضر في فترة حياته للأقاليم المبينة في الفقرة الأولى وذلك (بعد أن يحصل على اعترافات خارجية مشابهة) لصالح الأسرة الإدريسية والسلطات الكاملة للإمامة.
- **المادة السابعة:** يتعهد ملك الحجاز وسلطان نجد بدفع كل تعد خارجي أو داخلي يقع على أراضي عسير المبينة في المادة الأولى وذلك بالاتفاق بين الطرفين حسب مقتضيات الأحوال ودواعي المصلحة.
- **المادة الثامنة:** يتعهد الطرفان بالمحافظة على هذه المعاهدة والقيام بواجبها.
- **المادة التاسعة:** تكون هذه المعاهدة معمولاً بها بعد التصديق عليها من الطرفين الساميين.
- **المادة العاشرة:** وقعت هذه المعاهدة باللغة العربية في صورتين تحفظ كل صورة لدى فريق من الحكومتين المتعاقدتين.
- **المادة الحادية عشرة:** وقعت هذه المعاهدة في تاريخ ٢٤ ربيع الآخرة ١٣٠٤هـ الموافق ٢١ أكتوبر ١٩٢٦.

من معطيات المسألة الشرقية العربية

مثال: التآمر البريطاني العثماني والوجود المصري في شبه جزيرة العرب

(١٢٢٦هـ-١٨١١م / ١٢٥٦هـ -١٨٤٠ م)

الدكتورة نجاح محمد

جامعة دمشق - قسم التاريخ

من معطيات المسألة الشرقية العربية

مثال: التآمر البريطاني-العثماني والوجود المصري في شبه جزيرة العرب

(١٢٢٦هـ-١٨١١م / ١٢٥٦هـ-١٨٤٠م)

مقدمة في ماهية المسألة الشرقية:

تتحدد هذه الماهية من خلال مضمونين أساسيين اثنين: أولهما عام وثانيهما خاص[1]. العام متعلق بالعلاقات بين الشرق والغرب ليس على المستوى السياسي فقط وإنما على كل المستويات الحياتية الإنسانية الحضارية، المادية والروحية. والخاص متعلق بالعلاقات الأوربية-العثمانية تحديداً، وعلى كل هذه المستويات أيضاً. وإذا كان وجود المسألة الشرقية بمضمونها الخاص هذا قد بدأ مع بداية وجود الدولة العثمانية في عشية التاريخ الحديث، فإن وجودها بمضمونها العام قد بدأ مع بداية ظهور العلاقات الإنسانية بين الشرق والغرب في العصور القديمة.

إن كلاً من الشرق والغرب قد شكل منذ هذا الظهور وحتى يومنا هذا "مسألة" بالنسبة للآخر، ارتبطت بتاريخه إذ شغلت حيزاً كبيراً من سياسته واهتمامه ووجوده الحياتي الكلي. واختلفت في شكلها ومضامينها حسب المرحلة التطورية للطرفين في هذا العصر أو ذاك، وحسب طبيعة الدور الذي كان يلعبه كل منهما، والمرتبط بالطبع بدرجة قوته وحضارته بالنسبة للآخر. وإذا كانت "المسألة" بالنسبة للطرف الحضاري والقوي هي كيفية الهيمنة على الطرف الآخر الضعيف، أو كيفية الاحتفاظ بها أو تطويرها أو تفعيلها في حالة وجودها، فإنها بالنسبة لهذا الطرف الآخر الضعيف هي كيفية مقاومة هذه الهيمنة أو التخلص والتحرر منها إما كلياً أو جزئياً في حال بروز ضرورة التفاعل والتكيف معها على الصعيد الحضاري المتقدم فقط في حالة وجوده.

وهكذا تكونت المسألة الشرقية وبينها وبين المسألة الغربيـة، وعلـى مـرّ العصـور التاريخية المتعددة، علاقة وجود محايثة، تعني أنه حيث توجد إحداهما يجب أن توجـد الأخرى بالضرورة، ولكن مع اختلاف الموقع والدور والشكل والمضمون.

ورغم أن موضوع بحثنا هذا متعلق بالمرحلة الثانية مـن تطـور المضمـون الخاص للمسألة الشرقية تحديداً، والتي بدأت في أوائل التاريخ المعـاصر وارتبطـت بالعلاقات العثمانية-الأوربية في ظل ضعف وانحدار الإمبراطوريـة العثمانيـة، إلا أننا، ونظراً لاستحالة فصل هذا المضمون ككل عن مضمونها العام الذي يشكل بعدهـا التاريخي الذي بدونه يستحيل الفهم الصحيح لأي من معطياتها وأحداثها، فقـد رأينـا أنفسنا مضطرين إلى عرض موجز عنه من خلال تمـهيد يتنـاول أبـرز مراحـل ومعطيات تطورها التاريخي الجغراسي والحضاري، ويبين أن الصراع بين الشـرق العربي والغرب لم يكن منذ بدايته في العصور القديمة، ومروراً بالوسـطى، وحتـى التاريخ المعاصر، "صراعاً بين حضارتين مختلفتين"[٢]، كما هو الآن في إحدى سماته الجزئية، وإنما كان صراع الحضارة العربية من طرف، مع "الهمجية" في "عصـور ظلام" الغرب الذي استمر في تخلفه بالنسبة لهذه الحضارة حتى القرن الثاني عشـر- الثامن عشر[٣]، من طرف آخر، مما يعني أن العمر الزمني للتقدم العربي يمتـد لآلاف السنين بينما العمر الزمني للتقدم الغربي ليس سوى حوالي مئتي عـام فقـط، ومـن معطيات الحضارة العربية القديمة والإسلامية بتدرجة الأولى انطلق.

تمهيد في التطور التاريخي الجغراسي والحضاري للمسألة الشرقية:

يؤكد الجمع البحثي الموضوعي أن الشرق العربـي كـان مـهد الحضـارة والبشرية[٤]، والمركز الذي انطلقت منه المدنية في توجهها الحركي شرقاً وغرباً ومـن الجنوب إلى الشمال، في وحدة حضارية أكدتها كل الدراسات التاريخية الآثاريـة[٥]، واستمرت باستمرار ريادة وإشعاع هذا المركز الأوحد والفريـد لآلاف السـنين قبـل

الميلاد، والذي شهد كل المنجزات الحضارية الأولى، ومنها تشكل الدول والعلاقات بينها، وكذلك السوق الرأسمالية التجارية العالمية ثم النظام الرأسمالي العالمي باعتباره أداة القوة المهيمنة على هذه الرأسمالية والراعية لشؤونها إدارةً وتطويراً وحمايةً، والذي كان في تطور مستمر(٦). وكان من الطبيعي أن تكون هذه القوة المهيمنة على النظام هي القوة الأم صاحبة هذه الدول والإنجازات الحضارية الأولى، والسباقة بها بآلاف السنين، إنها القوة العربية للمثلث الحضاري العراقي- السوري-المصري.

بدأ الصراع بين الشرق والغرب على أنه صراع بين حضارة العرب القدماء في الشرق، الذي هو "الشرق الأدنى" حسب ديورانت والمسميات الغربية اليوم الهادفة إلى إخفاء هويته العربية(٧) والذي هو "شرقي المتوسط" حسب تعبير بريستد(٨)، وبين "همجية البرابرة" في الغرب الذين كانوا ما يزالون يعيشون، كما يؤكد هذا المؤرخ الأمريكي معطيات "العصر الحجري"(٩)، وكان الأمر نفسه بالنسبة للصراع ما بين هذا الشرق العربي بداية وما بين شرقه الآسيوي، وبقي الأمر على حاله إلى أن أدّى فعل التمثل الحضاري وفعل تأثير اختلاف جدلية الناس والزمان والمكان، أي تبادلها لفعلي التأثير والتأثر، إلى نهاية الوحدة الحضارية لصالح تكوّن الخصوصيات الحضارية القوميّة المختلفة للتجمعات البشرية، والتي كان أبرزها خصوصية حضارات فارس والهند والصين شرقاً، وخصوصية حضارات اليونان ثم الرومان فبيزنطة غرباً وطبعاً برغم احتفاظها بالكثير من معطيات أصولها الشرقية من المركز العربي(١٠)، والذي انحصر وجوده القومي، بعد تكوّن هذه الخصوصيات القومية، في إطار الوطن العربي(١١).

شهدت العلاقات بين الشرق والغرب بعد ذلك صراعاً على مستويين: أولهما على المستوي الداخلي للمناطق الحضارية: ما بين الغرب اليوناني ثم الروماني فالبيزنطي من طرف، ونكرر القول برغم أصوله الشرقية، وما بين المركز العربي الشرقي وحده من طرف حتى بروز الوجود الفارسي كعنصر شرقي مواجه لهذا

الغرب منذ القرن السادس ق.م. أما ثانيهما فكان ذلك الصراع الذي ذكرناه ، سابقاً والمستمر منذ القديم ما بين المناطق الحضارية ككل وما بين عالم الهمجية لـ "برابرة الشمال الجرمان" حسب تعبير بريستد[١٢]، والذين ما لبثوا أن سيطروا على روما وعلى كل المنطقة الأوربية ليشكلوا أجداد شعوبها الراهنة[١٣]، وأحد أسباب خضوعها لـ"عصور الظلام" في العصور الوسطى.

برغم أنهم قد أخذوا كل سبل ومعطيات حضارتهم من المشرق العربي، بما فيه اسم بلادهم "أوربا[١٤] فإنهم ما لبثوا أن تنكروا لكل ذلك باحثين عن السبيل إلى الهيمنة على النظام الرأسمالي التجاري العالمي كسوق وكطريق وكتنظيم، وذلك كبديل عن القوة العربية، والتي زادتها دولة الإسلام قوة وازدهاراً، وبحيث شكل العرب كما يؤكد أحد الباحثين "إمبراطورية عظمى لم تبلغها أمم من بعدهم، وقدموا نموذجاً لنظام دولي أحادي كان يتعرض لخروقات وتمزقات وغزوات وحروب، إلا أنه كان قائماً بوجهيه السياسي-الاقتصادي والاجتماعي الحضاري"[١٥]. وكان مضمون هذا النظام وسيطاً كما كان قديماً إعمارياً حقيقياً حمل كل عناصر الحضارة إلى العالم عموماً، والغرب خصوصاً، إقتصاداً وعلماً وفكراً وفناً وأدباً وقوانين ونظماً سياسية واقتصادية ونقابية وديمقراطية وغيرها. وكانت المعرفة الوحيدة التي احتكرها العرب هي معرفة الطرق التجارية البحرية ما بين الغرب والشرق، ضماناً لاستمرارية هيمنتهم على النظام التجاري العالمي، أو بتعبير آخر ضماناً لاستمرارية نظامهم الرأسمالي التجاري العالمي، والذي كانت محاولة السيطرة عليه هي الهدف الأساسي من غزوات الغرب الفرنجي المدعوة خطأ بالصليبية"[١٦].

وعليه، استمر المضمون الجغراسي والحضاري للشرق بالنسبة للغرب طوال العصور الوسطى يعني الشرق العربي، ولكن بلبوسه الحضاري الإسلامي الجديد، والذي تركزت حوله تحديداً اهتمامات الدراسات والمؤسسات الاستشراقية في هذا الغرب، اقتباساً ونهباً حضارياً واستكشافاً استعمارياً، وتزويراً معرفياً موظفاً لخدمة

أهداف ما دعي بالمركزوية الأوربية أو الغربية، والمعتمدة على ادعاء زائف بأبدية الحضارة في أوربة والغرب مقابل أبدية التخلف في الشرق...والتي أدت إلى تزوير وقلب الحقائق التاريخية في كتابة الغرب للتاريخ الإنساني وبخاصة في العصور القديمة والوسطى[١٧]، وعصور الزمن العربي، زمن الهيمنة العالمية للنظام الدولي العربي، اقتصاداً وثقافة.

خمسة متغيرات عالمية أدت إلى سقوط هذا النظام، وبالتالي انتقال الهيمنة العالمية من الشرق العربي والإسلامي إلى الغرب الأوربي، وأدت بالتالي إلى تغيير المضمون الجغراسي والحضاري المذكور للمسألة الشرقية. أولهما متغير الانحدار العربي الذي أدى إلى الضعف الشرقي، وثانيهما متغير النهضة الأوربية الذي أدى إلى القوة الغربية، وثالثهما متغير نجاح أوربة بضرب الاحتكار العربي لمعرفة الطرق التجارية البحرية إلى الهند، من خلال إعادة كشفها لطريق رأس الرجاء الصالح منذ عام ٨٩٣هـ-١٤٨٨م، وإعادة كشفها لأمريكة منذ عام ٨٩٧هـ-١٤٩٢م، ثم للطريق الأطلسي إلى الهند، والذي أدى إلى نهاية النظام الرأسمالي العالمي العربي الشرقي لصالح بداية النظام الرأسمالي الاستعماري العلمي الأوربي الغربي في مرحلته الأولى، مرحلة الزعامات الأوربية المتعددة، وبالتالي لصالح الانعكاس في مسار ومضمون المسألتين الشرقية والغربية العام.

المتغير العالمي الرابع وهو بروز القوة العثمانية، وبخاصة بعد نجاحها بفتح القسطنطينية في عام ٨٥٧هـ-١٤٥٣م، ثم قيامها باحتلال معظم الوطن العربي في القرن العاشر-السادس عشر، والذي أدى إلى عدة معطيات هامة، متتابعة ومترابطة. أولها تحول المسألة الشرقية إلى التطور في منحى مضمونها الخاص المتعلق بالعلاقات العثمانية-الأوربية فقط، والذي مرّ في مرحلتين: أولهما في ظل قوة الدولة العثمانية، والممتدة منذ سقوط القسطنطينية هذا وحتى نهاية حكم السلطان سليمان القانوني في عام ٩٧٤هـ-١٥٦٦م، وثانيهما في ظل ضعف هذه الدولة منذ ما بعد

الحكم وحتى نهاية اللبوس العثماني لهذه الدولة في عـــام ١٣٣٧هـــ-١٩١٨م، وإذا كانت غائية المسألة الشرقية في مرحلتها الأولى بالنسبة للغرب الأوربي هـــي تجميـد التوسع العثماني أولاً، والسيطرة على البحار العربية والطرق التجارية والدولية ثانيـاً، والحصول على الامتيازات ثالثاً، فقد كانت غائية هذه المسألة في مرحلتها الثانية هـــي التنافس بين دول هذا الغرب من أجل الحصول على أكبر قدر ممكن مـــن ممتلكـات الدولة العثمانية، أو "الرجل المريض" كما دعتها روسية[١٨]. وإن مصطلــح "المســألة الشرقية" قد جاء متأخراً ليعبر عن هذه المرحلة بغائيتها هذه ليـــس إلاّ فـــي "مؤتمــر فيرونا" عام ١٢٣٧هــ-١٨٢٢م ولنا عودة إلى معطيات هذه المسألة الشرقية المتأخرة لاحقاً.

المعطي الثاني لمتغير بروز القوة العثمانية واحتلالها لمعظم الوطن العربي هو تغير المضمون الجغراسي والحضاري للمسألة الشرقية، بحيث ارتبـــط فـــي حـيزه الجغراسي بهذه القوة التي تبع لها معظم الشرق العربي، بينما استمر هذا الشرق فـــي مركز الصدارة في الحيّز الحضاري لهذا المضمون، وذلك نتيجة للفرق الكبـــير بيـــن المستوى الحضاري المتقدم لبلدانه وبين بقية مستوى البلدان على الصعيـــد العـــالمي عموماً، وعلى الصعيد التركي العثماني خصوصاً. ولكن السياسة الاقتصادية والثقافيـة والإدارية المتخلفة للدولة العثمانية، وبخاصة ما تعلق منها بمحاربة التجديد والابتكـــار وضرب رأس المال الوطني، وما تعلق منها، بنظام الامتيازات التي قدمتـــها للـــدول الأوربية، والتي ضربت البرجوازية العربية مقابل مساهمتها في إغناء وقوة عدوتـــها البرجوازية الأوربية التي استخدمتها "كوسيلة مـــن وســـائل الاســـتعباد الاســـتعماري للأقطار العربية"[١٩]، قد أدت إلى التراجع المستمر في هـــذا المســـتوى الحضـــاري العربي، والذي قاوم كل هذه الظروف المضادة محافظاً على تقدمه الصنـــاعي حتـــى القرن الثاني عشر(هــ)- الثامن عشر(م)[١٩ مكرر]، أي حتى حدوث المتغـــير العـــالمي الخامس، وهو متغير الثورة البرجوازية التقنية في أوربة.

كأن هذا المتغير حدّد الحسم في تحول الريادة الحضارية العالمية من الشـــرق العربي-الإسلامي إلى الغرب الأوربي، لتبدأ مسيرة تقدم هذا الغرب مقابل تخلف هـذا الشرق، ولتبدأ معها المرحلة الثانية في تطور النظام الرأسمالي الاستعماري العـــالمي الغربي، وهي مرحلة الزعامة البريطانية[٢٠]، والتي كان خوفها الأعظم، وبقية قـــوى هذا النظام، من عودة الزمن العربي، وهو السبب الأساسي في تآمرها المستمر ضـــد الوطن العربي، والذي شغل المساحة الأكبر والأهم من المسألة الشرقية المتأخرة.

المسألة الشرقية المتأخرة "العربية":

ارتبطت المسألة الشرقية المتأخرة بالكثير من المعطيات التاريخيـــة المهمـــة، ونكتفي بذكر أبرزها:

المعطى الأول هو الضعف العثماني ومنه العربي، وتصاعد القوة الأوربية مـن طرف آخر، وفي شـــتى الميـــادين الحياتيـــة، السياســـية والاقتصاديـــة والعســـكرية والاجتماعية والثقافية.

والمعطى الثاني هو الضغـــوط الأوربيـــة الســـتمرّة، وبخاصـــة البريطانيـــة والفرنسية، على الدولة العثمانية بهدف زيادة امتيازاتها وتوسيع سيطرتها الاســـتعمارية في ممتلكاتها من جهة، وبهدف تحقيق عملية تغريبها سلطةً وشعباً، أي تحويل انتمائـــها إلى "الغرب"، الأوربي على حساب التخلي عن انتمائها إلى اشرق الإسلامي، من جهة أخرى، وذلك بحجة مزعومة هي وحدة الانتماء الآري "الهندو-أوربي" الذي يجمعـــها مع هذا "الغرب" والذي عبرت عنه فيما بعد النظرية "المفبركة " لليـــهودي الألمـــاني شلوتزر، النظرية السامية الآرية-الحامية، التي سرعان ما أوضحت زيفها الدراســـات الأنتروبولوجية الموضوعية لعلم الإنسان والشعوب لصالح تـــأكيد الأصـــل البشـــري والحضاري العربي لما سمي بالشعوب الآرية والحامية والسامية[٢٠مكرر].

المعطى الثالث للمسألة الشرقية هو وجود التوازن الدولي في القوة العسكرية فيما بين الدول الأوربية المعنية بها، والتي كانت تحرص على تجميدها طوال وجود قناعتها بوجود هذا التوازن، وتسرع إلى تحريكها بمجرد شعورها بامتلاك القوة الفردية الضاربة التي من شأنها تزويدها بحصة الأسد فيها، مما يفسر الكثير من الأحداث أو الأزمات في هذه المسألة، والتي منها على سبيل المثال، حملة نابليون الفرنسية على مصر وسورية في عام ١٢١٣هـ-١٧٩٨م، كما يفسر السياسة الفرنسية والبريطانية قبيل هذه الحملة وبعدها، وخصوصاً ما تعلق منها بالنسبة لبريطانية بالتنبه إلى ضرورة حماية طريقها إلى الهند، محور سياستها آنذاك، عبر شواطئ المتوسط وشبه جزيرة العرب، أي البحر الأحمر والخليج العربي وبحر العرب.

المعطى الرابع هو ارتباط هذه المسألة بالتطورات التي كانت تحدث على المستوى القومي للبلدان التابعة للسلطنة العثمانية. إن استمرار تصاعد معطيات الانحدار فيها على كل المستويات، واستمرار معاناة شعوبها من ممارسات الاستبداد والاستغلال والقهر والتخلف، ومن فقدان الأمن والحريات والمساواة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومن مساوئ الضعف والحروب المستمرة والتبعية ونظام الامتيازات الأجنبية التي ضربت الاقتصاد الوطني كلياً، ومساوئ نظام الملل والطوائف وقتل الإبداع وتحريمه، وإصرار السياسة العثمانية والأوربية صاحبة هذه الامتيازات على محاولات تعميق عوامل التفرقة والصراعات الدينية والمذهبية في صفوفها، قد أدى إلى تصاعد حركة التحرر الوطني والقومي داخل بلدانها، والذي شكل أحد مظاهر أزمات المسألة الشرقية المتأخرة الأكثر خطراً، وبخاصة بالنسبة لقوى الغرب الأوربي العظمى.

وكان من الواضح أن هذه القوى قد اتفقت على أن حل أزمة المسألة الشرقية هذه بالنسبة للقسم الأوربي من ممتلكات الدولة العثمانية يجب أن يكون من خلال تحريرها واستقلالها، مما يفسر جهودها من أجل إرغام هذه الدولة بالتدريج على

الاعتراف باستقلال اليونان ودول البلقان. أما حل هذه الأزمة بالنسبة للقسم العربي من ممتلكات الدولة العثمانية، والمتبقي وحده لها، فيجب أن يكـــون بقيامـــها، أي القـــوى الأوربية المتنافسة عليه، بتوزيع النفوذ فيه واحتلاله بالاتفاق فيما بينها، ممـــا يفسّـــر اتفاقياتها السرية والعلنية بهذا الشأن.

هذا ما يقودنا إلى المعطى الأخير في المسألة الشرقية وهـــو ارتباطـــها فـــي التاريخ المعاصر خصوصاً بالوطن العربي، باعتباره الجزء الأساسي والأكثر أهميـــة وغنىً وسعةً وخطورةً من بقية الممتلكات العثمانية، ممـــا جعـــل تســـميتها بالمســـألة "العربية" هي أقرب إلى الصحة، حيث أصبح الوطن العربي هو المحور في الصـــراع الدولي الأوربي حول الممتلكات التي أخذت قوى الصراع تسيطر عليها شيئاً فشـــيئاً، ولصالح بريطانية بالدرجة الأولى، وبخاصة في شبه جزيرة العرب، حيث تحـــالفت، أي بريطانية مع هولندة والقوى المحلية، العربية والفارسية، لإنهاء الوجود البرتغـــالي في سواحلها، ثم نجحت بعد صراع مع حليفتها هذه التي استطاعت الهيمنـــة الجزئيـــة لفترة زمنية قصيرة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر(هـ)-السابع عشـر (م) أن تستبعدها ومنافستها الأخرى فرنسة لصالح سيطرتها الخاصة، وبحيث أخذت تركز جهودها بعد ذلك لتجعلها تامة من خلال العمل على ضرب القوة الوحيدة المعادية لـــها والمستمرة فيه، وهي القوة العربية، قوة عمان والقواسم والدولة السعودية الأولى ثـــم القوة المصرية لمحمد علي كما سنرى.

وهذا مما يفسر التآمر البريطاني الـــذي ســـنراه ضـــد الدولتيـــن العربيتيـــن الناهضتين: السعودية والمصرية في النصف الأول من القرن الثالث عشـــر – التاســـع عشر، واللتين نقف قليلاً عند صلتهما النهضوية في علاقتـــها بالمســـألة الشـــرقية أو "العربية" وفي خطورتها على المصالح الاستعمارية وبخاصة البريطانية.

الصلة النهضوية بين الدولة السعودية الأولى ودولة محمد علي:

قلنا أن أحد معطيات المسألة الشرقية الأكثر أهمية كان معطى التطورات التي كانت تحدث على المستوى القومي للبلدان التابعة للسلطنة العثمانية لمواجهة واقع انحدارها ومعاناة شعوبها على كل الصعد، والتي تمثلت بشكل رئيسي في تصاعد حركة التحرر الوطني والقومي داخل بلدانها. وإن كان لسياسة القوى الأوربية العظمى، وبخاصة روسية والنمسة، دور دافع هام في هذه الحركة في دول البلقان واليونان، فإن حركة التحرر الوطني والقومي في البلدان العربية كانت بعوامل ذاتية بحتة، أبرزها المعاناة المذكورة، وأهمها وأكثرها فعالية التطلع إلى إعادة المجد والنظام العربي بإعادة تكوين الدولة العربية القومية الواحدة والقادرة على استعادة الهيمنة العربية على المستوى العالمي، اقتصاداً وثقافةً.

وطبعاً فإن هذه الحركة لم تتوقف طوال خضوع الوطن العربي للاحتلال العثماني والأوربي سواء في مغربه أو مشرقه، ومنه شبه جزيرة العرب. ومن أبرز محاولاتها التحررية التوحيدية، والتي إضافةً لهزّها الشرعية الإسلامية للسلطنة العثمانية، فقد أثارت مخاوف القوى الأوربية الاستعمارية من عودة القوة العربية وبالتالي عودة المجد والنظام العربي، ونذكر محاولة السلطان المنصور الذهبي في المغرب العربي في النصف الثاني من القرن العاشر(هـ)-السادس عشر (م)، والذي حصر الإمامة للمسلمين بنفسه وحجبها عن السلطان العثماني، فأصبحت قلوب أهل المشرق "بأجمعها مقبلة عليه وعقولهم حاضرة إليه لاشتياقهم إلى إمارته العربية"[٢١]. برزت في هذا المشرق محاولتان بهذا الشأن: أولهما محاولة الحركة الوهابية- السعودية التي كانت بمثابة "أبرز التحديات للعثمانيين"[٢١مكرر]، وثانيهما: محاولة محمد علي الذي كان الشخص الوحيد الذي كان في وسعه استبدال "العمامة المفتخرة التركية برأس حقيقي" على حد تعبير ماركس[٢٢]. وقد جمعت بين هاتين المحاولتين عدة سمات نهضوية، تحررية ووحدوية[٢٣] أدت إلى تعاظم الشعور بالخطر العربي لدى

الدولة العثمانية وحلفائها البريطانيين، نقف عند أبرزها:

١- السمة الأولى هي المحتوى الإسلامي الإصلاحي للحركتين، بمضمونه العصري العقلاني لدى حركة محمد علي، وبمضمونه السلفي لدى الحركة الوهابية-السعودية، والذي -أي هذا المحتوى- كان من شأنه المساهمة، بل وساهم فعلياً، في فضح زيف "الإسلام الرسمي" للسلطنة العثمانية[٢٣مكرر]ــ أي فضح قناعها الديني الإسلامي الذي كانت تتستر به في فرض وجودها في الوطن العربي، حيث "دعت الوهابية إلى العودة بالإسلام إلى صفائه الأول عندما كان بأيدي العرب"[٢٤]، ولقد عدّ الوهابيون الأتراك بناء عليه "غير مسلمين من حيث أخلاقهم ومظاهر حياتهم"[٢٥]. واستغل السعوديون الوهابيون قيام شريف مكة بمنع حجاج وحبس جماعة منهم، وكان قد أرسلهم أميرهم عبد العزيز إلى مكة[٢٦]، من أجل استنفار المسلمين لصالحهم ضده وضد هؤلاء الأتراك، مما يفسر قيام الوالي العثماني في بغداد بتحذير السلطنة العثمانية من نفوذه "القوي والمتزايد"[٢٧]، أي نفوذ هذا الأمير الوهابي-السعودي.

٢- السمة الثانية هي المحتوى العروبي للحركتين في توجههما نحو توحيد العرب في ظل دولة عربية واحدة، هي إسلامية وتشكل خطوة لتكوين الدولة الإسلامية الواحدة حسب توجه الحركة الوهابية-السعودية، وهي عصرية ونهضوية وعلى مختلف الأصعدة، الاقتصادية والعسكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية، حسب حركة محمد علي. وطبعاً يفسر اختلاف طبيعة هذين التوجهين لكلتا الحركتين هيمنة الوجود الإقطاعي-البرجوازي على قيادة أولاهما، وهيمنة البرجوازية الوطنية على قيادة الثانية[٢٩].

٣- السمة الثالثة هي اتساع دائرة طموحات الحركتين اللتيـــن تطلعتـــا إلـــى استعادة الهيمنة العربية والإسلامية على طرق التجارة الدوليـــة، وكـــان يساعدهما على ذلك إداركهما لوجود التعاطف معهما في المراكز العربية الإسلامية القديمة والممتدة ما بين الهند وأفريقية. وبدأت بالنسبة لمحمـــد علي بقيامه بمحاولته النشطة لإحياء طريق البحر الأحمـــر الـــذي كـــان طريقاً عالمياً إلى الهند والشرق الأقصى، فوسع علاقاته التجارية مع بلاد العرب والهند، ودخل في مشاركات مع التجار العاملين فيها، وكتب بنفسه إلى شركة الهند الشرقية عام ١٢٢٥هـ-١٨١٠م من أجل حثها والاتفاق معها على إحياء المواصلات إلى الهند عن طريق البحر الأحمر وخليـــج السويس(٣٠). أما بالنسبة للدولة السعودية-الوهابية والتي كان لها تـــأثير إسلامي واسع فكانت البداية سيطرتها في الخليج العربي بعـــد اســـتيلائها على الإحساء ثم خضوع كل من البحرين وعمان والقواسم لـــها، والتـــي أدت من جديد إلى صعود حركة التجارة العربية علـــى حســـاب حركـــة التجارة البريطانية في هذا الخليج ومنه إلـــى الـــهند، فكـــان الإصـــرار البريطاني على ضرب منافسة التجار العرب وضرب النشاط القاســـمي التجاري والجهادي الذي كان يدعمه(٣١).

٤- السمة الرابعة والأخيرة هي صلات كلتا الحركتين بالقوة الأوربية التـــي كانت العدوة والمنافسة الأولى للدولة البريطانية وهي القـــوة الفرنســـية، حيث جرت محاولة من نابليون مع الأمير سعود للاتفاق معاً وإخراجـــها من الهند(٣٢). وإذا كان هدف الحركة الوهابية-السعودية من هذا التحالف مع فرنسة هو الحصول على الدعم الأوربي الذي من شـــأنه تزويدهـــا بالسلاح والخبرة واكتساب دعم بقية القوى الأوربية، فإن هـــدف حركـــة محمد علي منه هو بالإضافة إلى ذلك الحصـــول مـــن فرنســـة علـــى

مستلزمات الدولة العصرية، وبخاصة أسرار العلم والصناعة الحديثة. أما بالنسبة لفرنسة فكانت "تقدر أنها بفضل صداقتها لمحمد علي ومركزها القوي في مصر، ستفيد فائدة كبرى فيما إذا نجح محمد علي في إقامة الإمبراطورية العربية التي لم يكن يخفي عليها رغبته في تحقيقها"(٣٣).

إن هذه السمات الأساسية لكلتا الحركتين، والتي تبرز صلتهما النهضوية التوحيدية العربية وتطلعهما إلى استرجاع معطيات القوة والوحدة والهيمنة العربية، معطيات عودة النظام العالمي العربي، تفسر ما ذكرناه من تعاظم الشعور بخطرهما على مستقبل وجود النظام الاستعماري الغربي الأوربي بالدرجة الأولى، ومنه المصالح الاستعمارية لبريطانية في الوطن العربي وفي الشرق الآسيوي عموماً، وبخاصة الطريق إلى الهند التي اتسعت مستعمراتها فيها بعد معاهدتي بلاسية في عام ١١٧٠هـ-١٧٥٧م وباريس في عام ١١٧٧هـ-١٧٦٣م، فكان بمثابة العامل الأول الذي دفعها إلى الاهتمام بوجوب الهيمنة السياسية والاقتصادية والعسكرية في بحار شبه جزيرة العرب لمنع أي تهديد لطريقها هذا إلى الهند ولمستعمراتها فيها. والعامل الثاني كان النشاط العدائي ضد وجودها في الخليج العربي، من قبل القوة البحرية العربية التي انتمت للفكر الوهابي وحالفت دولته، الدولة السعودية الأولى، أي قوة عرب القواسم منذ أواخر القرن الثاني عشر (هـ) – الثامن عشر (م)، والذي أتى على أثر نهاية دولة اليعاربة في عمان ذات الدور الكبير في القضاء على الوجود البرتغالي في هذا الخليج، وبالتالي في استعادة السيطرة العربية على التجارة ما بين شرقي أفريقية والهند، ولو لفترة قصيرة جداً ما بين أواسط القرن الحادي عشر- السابع عشر، والنصف الأول من القرن الثاني عشر- الثامن عشر.

والعامل الثالث كان الحملة الفرنسية لنابليون على مصر في عام ١٢١٣هـ-١٧٩٨م، وقيامه بمحاولاته لإجتذاب حكام الشرق العربي والآسيوي عموماً لصداقته والتحالف معه في توجهه لفرض هيمنته على الهند وعلى الطريق إليها. أما رابع

العوامل فهو هيمنة محمد علي في مصر وتطلعاته المذكورة سابقاً على استعادة السيطرة العربية-الإسلامية على التجارة الدولية لصالح دولته المستقبلية الخاص.

هذه العوامل دفعت بريطانية إلى تركيز فعاليتها السياسية من أجل حماية مصالحها الاستراتيجية في سواحل شبه جريرة العرب، سواحل البحر الأحمر والخليج العربي وبحر العرب، وقد عدّت هذا الخليج منذ ذلك الحين "أحد خطوط الدفاع الأمامية إلى الهند"[٣٤]. ولكن هذا لا ينفي حقيقة اهتمامها به مع نجاحها باكتشاف الطريق إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح وضرب الاحتكار البرتغالي لمعرفته واستخدامه في بداية القرن الحادي عشر(هـ) - السابع عشر (م). وكانت البداية تحالفها مع فارس منذ حصولها منها على وكالة جاسك في عام ١٠٢٤هـ-١٦١٥م. وتحالفها مع السلطنة العثمانية منذ حصولها منها على وكالة البصرة في عام ١٠٥٣هـ-١٦٤٣م واستثنائها من قرارها بمنع الملاحة الدولية في البحر الأحمر ما بين المخا والسويس. لقد استغلت كلا التحالفين من أجل إضعاف وضرب القوة العربية وبخاصة البحرية شيئاً فشيئاً. وكان هذا التحالف البريطاني-الفارسي-العثماني هو المسؤول عن نجاح أطرافه في القضاء في أواسط القرن الثاني عشر(هـ)-الثامن عشر (م)، على اثنتين من القوى العربية البحرية البارزة آنذاك، هما قوة بني كعب في عربستان وقوة المير مهنا في جزيرة الخرج، والتي نجحت في وضع حد للنفوذ الهولندي في الخليج من جهة، وفي إخراج بريطانية من بندر ريق من جهة أخرى بعد تحررها في عام ١١٧٩هـ-١٧٦٥م[٣٥].

وإن نجاح بريطانية في عقد معاهدة التحالف مع سلطان مسقط في عام ١٢١٣هـ-١٧٩٨م، والتي جددتها في عام ١٢١٥هـ-١٨٠٠م، وكان يعني كسب صداقة أبرز القوى العربية البحرية في الخليج العربي، لقد احتكرت من خلال هذه المعاهدة التي تمت باسم شركة الهند الشرقية كل امتيازات عمان على حساب الاستبعاد التام لتعاملها مع منافستيها فرنسة وهولندة مقابل تعهدها بحمايتها. ولم يبقَ أمامها من

عائق سوى الحاجز البحري العربي لقوة القواسم الوهابية التي أخذت تقوم "بعمليات مجيدة ضد السفن الأجنبية"(٣٦)، بعد أن أصبحت مدعومة من الدولة السعودية الأولى، والتي يؤكد أحد ضباط الأسطول البريطاني في الهند أنها -أي هذه القوة- "قد تمكنت من بسط سيطرتها في السنين الأولى سن القرن الثامن عشر، على جميع أرجاء الخليج بساحليه العربي والفارسي، ووصل نشاطها إلى الهند. وأصبحت السفن البريطانية إما تؤسر أو تجبر على الفرار طلباً للنجاة، حسب تأكيد أتشيسون لحكومة الهند في الخارجية البريطانية"(٣٧). كما بقي أمامها قوة محمد علي البرية والبحرية.

وعليه استغلت بريطانية صداقتها مع السلطنة العثمانية، والتي كانت أمراً مفضوحاً حتى عند ولاتها(٣٨) أنفسهم، لتثير مخاوفها أكثر فأكثر من مستقبل الدولتين العربيتين الإسلاميتين على وجودها في المشرق العربي، أي الدولة السعودية الأولى ودولة محمد علي، فكان أن حاولت أن تضرب الأولى من خلال تكليفها لوالي بغداد ووالي الشام، عبد الله باشا العظم ثم يوسف كنج، بالقيام بهذه المهمة. وبعد فشل محاولتها هذه ازداد شعورها بالخطر، وبخاصة بعد سيطرة هذه الدولة السعودية على الحجاز والأماكن المقدسة فيه وإعلانها لخروج الدولة العثمانية عن مبادئ الإسلام الصحيح، مبادئ السلف الصالح، وأصبح عليها أن تستعيد هيبتها لدى جماهير المسلمين عموماً والعرب على وجه الخصوص. ونظراً لأن شعورها وحليفتها بريطانية بهذا الخطر السعودي لم يكن يقل عن شعورها وإياها بخطر دولة محمد علي فقد اتفقتا على توزع الأدوار(٣٩)، وتآمرتا على أن تعملا على ضرب عصفورين بحجر واحد، أي ضرب إحداهما بالأخرى(٤٠). وبناء عليه أصدرت الأوامر السلطانية إلى محمد علي بالتوجه إلى شبه جزيرة العرب للقضاء على الدولة الوهابية-السعودية فيها.

الوجود المصري في شبه جزيرة العرب: بدايته وفتراته الرئيسية:

لم يكن التآمر العثماني-البريطاني خافياً على محمد علي لكنه تجاهله وفي نيته تحويل تطور الأحداث بما يخدم تحقيق مطامحه التوحيدية التوسعية، وخصوصـــاً مـــا تعلق منها بالسيطرة على المشرق العربي وبإحياء طريق البحر الأحمر، والذي يؤكـــد أحد الباحثين: "كان في نيته أن يعمل له حتى ولو لم تكن هناك حركة وهابية متمـــردة على السلطان"[٤١]، مما يفسر إظهار استعداده لدى هذا السلطان للقيام بمهمة القضـــاء على هذه الحركة[٤٢]. وهكذا توجه إلى شبه جزيرة العرب التي كان يراهـــا مفتاحـــه للسيطرة على سورية والعراق والبحر الأحمر والمشرق العربي ككل، بخاصـــة وقـــد وعده السلطان بولاية دمشق مقابل نجاحه في إعادة الهيمنة العثمانية علـــى الحرميـــن الشريفين. ولقطع الطريق أمام أي تآمر عليه في بلاده، وبالرغم أن الأوامر صـــدرت إليه منذ عام ١٢٢٠هـ-١٨٠٥م، إلا أنه لم يبدأ التحضـــير لحملتـــه إلا فـــي عـــام ١٢٢٤هـ-١٨٠٩م، بعد أن وطد سلطته داخل مصر بالقضاء على كل معارضة لـــه فيها، مملوكية أو غيرها، وبإجراء الإصلاحات على كل صعيد وباستقطاب الجمـــاهير العربية من خلال توجهات ولديه طوسون وإبراهيم العروبية الواضحة[٤٣]. ثـــم قـــام بتنفيذ هذه الحملة في خريف عام ١٢٢٦هـ-١٨١١م، فكانت بداية الوجود المصـــري في شبه جزيرة العرب.

مرّ هذا الوجود في ثلاث فترات أساسية، أولاها الفترة الممتدة منذ بدايته فـــي عام ١٢٢٦هـ-١٨١١م، وحتى انسحاب إبراهيم باشا بقواته من الإحساء فـــي عـــام ١٢٣٤هـ-١٨١٩م بناء على أمر والده، والفترة الثانيـــة هـــي الممتـــدة منـــذ عـــام ١٢٣٤هـ-١٧١٩م وحتى توقيع معاهدة كوتاهية بين محمد علي والسلطان في عـــام ١٢٤٩هـ-١٨٣٣م. أما الفترة الثالثة فهي الممتدة منذ هذا العام الأخير وحتى خـــروج القوات المصرية في عام ١٢٥٦هـ-١٨٤٠م. ونقف عند أبرز الأحداث فـــي شـــبه جزيرة العرب في كل فترة، وبخاصة ما تعلق منها بالحدث المحوري المستمر الـــذي

هو التآمر البريطاني ضد القوة العربية فيها بهدف الهيمنة التامة في سواحلها عموماً وفي الخليج العربي خصوصاً.

١- شبه جزيرة العرب والتآمر البريطاني: في فترة الوجود المصري الأولى ١٢٢٦هـ-١٨١١م/١٢٣٤هـ-١٨١٩م: كان على بريطانية في توجهها إلى احتكار الهيمنة الأوربية في سواحل شبه جزيرة العرب وبخاصة في الخليج العربي، للأسباب المذكورة سابقاً، ومنها الحملة الفرنسية على مصر في عام ١٢١٣هـ-١٧٩٨م أن تقوم باستعباد منافستها القوية، صاحبة هذه الحملة، أي فرنسة، والتي لم تكتفِ بإجلائها عن مصر عام ١٢١٦هـ-١٨٠١م، وبإخراجها في عام ١٢٢٥هـ-١٨٠١م من مستعمرتيها، مورشيوس، وريونيون، حيث منهما كانت تدير جميع علاقاتها في منطقة الخليج، وإنما عملت على حصارها أوربياً في مؤتمر فيينا في عام ١٢٣٠هـ-١٨١٥م، والذي نجحت مساعيها في تنبيه لمقررات تقليص حدود فرنسة وإقامة دول صغيرة مستقلة حولها، فكان حقدها عليها، وكان معه أحد الأسباب الهامة التي دفعتها إلى التحالف مع محمد علي وإلى رفض التعاون معها ضده لسنين عديدة، وإلى أن قدمت إليها مكتسبات جديدة كما سنرى. هذا ولقد كان مؤتمر فيينا لصالح بريطانية بالدرجة الأولى، لموقفه هذا في إضعاف فرنسة منافستها أولاً، وللاضطرابات التي سببها في معظم الدول الأوربية فشغلها بها عن إعاقة توسعها ثانياً، ولتوصياته بشأن مكافحة ظاهرتي الرق والقرصنة وتزويدها بالشرعية أو الحجة المزعومة التي تقنعت بها في كل أنشطتها البحرية الاستعمارية لفرض هيمنتها العالمية وبخاصة في الخليج العربي ثالثاً، ومنه توجهها لضرب قوتي القواسم ومحمد علي(٤٤).

كانت بريطانية تتوقع نجاحها في ضرب هاتين القوتين بعضهما بعضاً فتتخلص منهما، لكن محمد علي اكتفى بتدمير الدولة السعودية الأولى لصالح إعادة تبعية

الحجاز ونجد إلى السلطنة العثمانية في عام ١٢٣٣هـ-١٨١٨م. أما فيما عدا ذلك فقد بدأ صلاته باسمه وخدمة لصالحه. وطالما أن توسعه وتعزيز صلاته مع المشايخ والحكام العرب في شبه جزيرة العرب كان يتم باسم هذه السلطنة فإنه لم يثر أي احتجاج ضده من بريطانية، أما أن يتم ذلك باسمه وخدمة لمطامحه، وأن تصل جيوشه إلى الهيمنة على ساحل الإحساء في الخليج العربي، بالإضافة إلى هيمنتها على بعض سواحل البحر الأحمر اليمنية الشمالية، فهذا ما كانت ترفضه تماماً، فكان أن استولت على القطيف في هذا الساحل في العام نفسه لوصول الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا بن محمد علي إليها، أي في عام ١٢٣٤هـ-١٨١٩م، وأخذت تمارس ضغوطاً على قائده هذا مرسلة مبعوثها سادلير إليه من أجل أن تقنعه بضرب القوة البحرية لعرب القواسم بحجة أنهم من الوهابيين وتابعين للدولة السعودية، ولتسهيل الأمر عليه كانت تؤكد له نجاحها في زرع الانقسام في صفوفهم كنتاج لثلاثة نجاحات لها: أولها نجاحها بعقد معاهدة مع زعيم القواسم في عام ١٢٢٠هـ-١٨٠٥م، وثانيهما نجاحها باستغلال الخلاف السعودي-العثماني من أجل الحصول على تعهد الدولة السعودية وأتباعها في عامي ١٢٢٤هـ-١٨٠٩م/١٢٢٥هـ-١٨١٠م، بعدم التعرض لسفن البريطانيين ولرعاياهم مقابل تعهد بريطانية بعدم تقديم أية مساعدة لسلطان مسقط من أجل إجباره على التسليم وقبول السلام بالشروط السعودية، وثالثهما نجاحها في الوصول إلى اتفاق مع الأمير السعودي في عام ١٢٢٩هـ-١٨١٤م متضمناً التعهد نفسه، ومستغلة هذه المرة الصراع السعودي-المصري وحاجة هذا الأمير لدعمها[٤٥].

إن رفض إبراهيم باشا المعروف بتفاخره بانتمائه العربي[٤٦]، لعرضها هذا في ضرب قوة القواسم وقيامه برفض هدية مبعوثها إليه[٤٧]، قد زاد في مخاوفها

من الوجود العربي المصري ومن إمكانية تحالفه مع هذه القوة بدلاً من ضربها، فكان أن ضغطت باتجاهين اثنين: اتجاه تصعيد الثورة الوطنية في اليونان، واتجاه دفع السلطان العثماني ليعطي أوامره إلى محمد علي الذي كان ما زال تابعاً مخلصاً له، بسحب جيوشه من الإحساء، ونظراً لأن محمد علي كان ما يزال حريصاً على إرضائه، ولقطع الطريق على بريطانية في خلق أي سوء للتفاهم بينهما، بالإضافة إلى حاجته لقواته من أجل فتح السودان في عامي (١٢٣٥هـ-١٨٢٠م/١٢٣٦هـ-١٨٢١م)، فإنه وكما قام بالانسحاب من الموانئ اليمينة على البحر الأحمر التي كان قد سيطر عليها في عام ١٢٣٤هـ-١٨١٩م نفسه،مسلماً إياها إلى الأمام مقابل ضريبة سنوية من البن يرسلها إليه، فإنه قام بالانسحاب من الإحساء في العام نفسه أيضاً، والذي كان الحدث الذي ارتبطت له نهاية الفترة الأولى من الوجود المصري في شبه جزيرة العرب وبداية فترته الثانية.

٢- **شبه جزيرة العرب والتآمر البريطاني في الفترة الثانية من الوجود المصري فيها (١٢٣٤هـ-١٨١٩م/١٢٤٩هـ-١٨٣٣م)** اتسمت هذه الفترة بوجود اسمي بحت للوجود المصري، تمثل فقط بتبعية بعض الولاة الذين سماهم محمد علي من أجل حكم منطقة الإحساء وإقليمي الحجاز ونجد باسم السلطنة العثمانية، ووجود بعض الحاميات المصرية في هذين الإقليمين، والتي قلّت أعدادها بعد سحب بعضها للاشتراك في فتح السودان ثم في الحرب اليونانية إلى جانب السلطنة العثمانية ثم في الحرب ضدها. ولقد استفاد من انشغال قوات محمد علي في هذه الحروب طرفان اثنان: أولهما الطرف البريطاني وثانيهما الطرف الوهابي-السعودي. فيما يتعلق بالطرف الأول نقول أن بريطانية بمجرد اطمئنانها إلى انسحاب الجيش المصري وغياب خطره عن الخليج، والذي سعت لتحقيقه كما رأينا، وحرصاً على عدم إثارة شكوك

السلطنة العثمانية، قامت بالانسحاب من ميناء القطيف، بخاصة بعد أن فقدت عدداً كبيراً من جنودها فيه بسبب الأمراض، وأخذت وبمباركة هذه السلطنة، تعمل على ضرب بقايا القوة العربية الإسلامية في سواحل شبه جزيرة العرب، وبخاصة الخليج العربي، لتفرض نفسها كبديلة لها في الهيمنة عليه. والبداية في توجهها هذا كانت فارس ثم عمان.

استغلت بريطانية الصراع الفارسي-العماني من أجل أن تزيد في مشاعر الاستعداء بين الطرفين، لتمنع أي تقارب بينهما من شأنه إنهاء هذا الصراع، ولتستغل ذلك في إقناع كليهما بالحاجة إلى دعمها.

وباستثناء بعض الفترات القصيرة، فقد كان تحالفها مع فارس، والتي كانت في ظل الأسرة القاجارية التي امتد حكمها منذ عام ١٢١٢هـ-١٧٩٧م وحتى عام ١٢٥٦هـ-١٨٤٠م، قوياً مثمراً، حيث كانت قد استطاعت في عام ١٢٢٤هـ-١٨٠٩م جرّها إلى التخلي عن تحالفها مع فرنسة ثم إلغاء جميع معاهداتها مع بقية الدول الأوربية لصالح تحالفها معها وحدها.

أما بالنسبة لعمان فقد استغلت انقسامها إلى ثلاث مناطق، منطقة نفوذ آل سُعيد في مسقط ومعظم عمان الداخلية، ومنطقة نفوذ القواسم في ساحلها الشمالي، ومنطقة نفوذ بني ياس في "أبو ظبي"، وانقسامها بين وهابيين وأباضيين، وغافريين، وهناويين، وبين حلفاء للبريطانيين وأعداء لهم، من أجل العمل على استمرار وتعميق ظاهرة الصراع والتشتت بين فئات شعبها العربي منعاً من توحده في قوة واحدة من شأنها امتلاك القدرة على استعادة الهيمنة العربية على الطريق إلى الهند، وبخاصة وأن نفوذها، أي عمان، في المراكز العربية-الإسلامية كان مازال حقيقة واقعة، وأن نفوذها في أفريقية، لا سيما في ساحلها الشرقي كان لا منازع لها فيه، والذي توصلت إليه منذ تحول أمراء آل سعيد في مسقط، كبديل عن إضاعة جهودهم في محاربة أبناء

وطنهم القواسم وغيرهم من عرب الخليج، إلى تركيزها منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر(هـ)- الثامن عشر (م) في ترسيخ وتوسيع النفوذ العماني في الهند وأفريقية والذي كانت دولة اليعاربة قد وطدت أركانه فيها قبلهم[٤٨]. وكانت مسقط في ظل آل سعيد أول من توجّه من العرب إلى التحالف في نهاية هذه الفترة مع الغرب الأمريكي، حيث عقدت مع الولايات المتحدة الأمريكية معاهدة في عام ١٢٤٩هـ-١٨٣٣م، حازت هذه من خلالها كل امتيازات "الأمة المفضلة"، والتي استمرت مئة عام[٤٨مكرر].

ستغلت بريطانية حاجة سلطنة مسقط إلى دعمها لها في صراعها مع فارس لدولة السعودية من جهة، وحاجتها إلى ضمان أمن أسطولها التجاري في مساعيها الناجحة لتشكيل إمبراطوريتها الواسعة في شرقي وأواسط أفريقية، والتي جعلت زنجبار بعد عدة أعوام مركزها في عام ١٢٤٥هـ-١٨٢٩م، من جهة أخرى، من أجل استمرارية تحالفها معها الذي كان قد بدأ كما رأينا منذ عام ١٢١٣هـ-١٧٩٨م، والذي شكل لها الحليف العربي الذي شق الصف العربي، والذي ساعدها ضد العدو العربي الصامد في الخليج العربي، أي العدو القاسمي "فرسان البحر الأشداء"[٤٩]. وكان أن اتفقت وإياها أن تترك لها حرية التصرف في أفريقية مقابل سكوتها عن فرض هيمنتها في هذا الخليج، وعلى أن تتعاونا معاً ضد أي طرف ثالث معرقل لهما.

هذا ما يفسر قيام بريطانية، باسم مكافحة ما دعته بمكافحة "القرصنة" والتي هي "حياة الجهاد ضدها وضد الأعداء جميعاً" حسب الرؤية العربية[٥٠]، وبمجرد انسحاب قوات محمد علي من الإحساء في عام ١٢٣٤هـ-١٨١٩م، بتنظيم جهودها للتعاون مع سلطنة مسقط من أجل ضرب القواسم، مدمرة مركزهم في رأس الخيمة، ومجبرة حكامهم، أي حسن بن رحمة في هذا المركز، وسلطان بن صخر في الشارقة، وشخبوط في دبي، على توقيع معاهدة الصلح العامة معها في عام ١٢٣٥هـ-١٨٢٠م. ووقع عليها أيضاً كل من شيخي أم القيوين والعجمان، ليتكرس بعد ذلك

انفصالهما عن الزعامة القاسمية، وبالتالي تفكك القوة القاسمية.

وسرعان ما انضمت إليها عمان ومسقط وأبو ظبي والبحرين، بعد تخويف هذه الأخيرة من المطامع الفارسية فيها. وباسم الإشراف على تنفيذها، ومراقبة شؤون الملاحة واستخراج اللؤلؤ في الخليج العربي للتأكد من احترام بنودها، حول تكفل أطرافها بالامتناع عن ممارسة ما دعي بالقرصنة والاتجار بالرقيق، وبمحاربة جماعية لمن يقترف هذه الممارسة، فقد استطاعت بريطانية، وقد أصبحت القوة العسكرية البحرية الرئيسة في الخليج العربي، السيطرة شيئاً فشيئاً على جميع شؤونه وبلدانه، مستغلة النزاعات العربية وسياسة فرّق تسد من جهة أولى، وتحالفها مع القوة البحرية العربية الوحيدة البارزة آنذاك، وهي القوة العمانية من جهة ثانية، وامتيازاتها الواسعة جداً من كل الأطراف المعنية آنذاك، أي الطرف العربي والعثماني والفارسي من جهة ثالثة. وبمعاهدة الصلح هذه وبما تضمنته من بداية للهيمنة البريطانية في شبه جزيرة العرب بدأ تاريخها المعاصر الذي كان من جملة ما كان، تاريخاً لهذه الهيمنة فيها والتي ارتبط بها(٥١).

ولكي تكون هذه الهيمنة تامة في سواحل شبه جزيرة العرب فقد توجهت بريطانية أيضاً إلى تثبيتها في البحر الأحمر وبحر العرب.

وكانت البداية كما رأينا في امتيازاتها التي حصلت عليها من الدولة العثمانية والمتضمنة استثناءها من قرار منعها للملاحة في البحر الأحمر ما بين المخا والسويس. أما في بحر العرب فكانت البداية نجاحها في عام ١٢١٧هـ-١٨٠٢م، في عقد اتفاق امتيازات مع سلطان لحج، فتحت بموجبه عدن أبوابها للتجارة البريطانية. ولم تكن لتسمح لمحمد علي ولوجوده المصري العربي أن يهدد امتيازاتها هذه أو أن يعرقل مطامعها المستقبلية في فرض هيمنتها التامة في هذين البحرين، مما دفعها إلى العمل على انسحاب قوات محمد علي كما رأينا سابقاً. وبعيد مرور عام واحد فقط

على هذا الانسحاب، أي في عام ١٢٣٥هـ-١٨٢٠م، مارست ضغوطها العسكرية وتهديداتها في ضرب وتهديم ميناء المخا، أهم مركز تجاري وسوق لمحصول البن اليمني، وبحجة مزعومة هي قيام متصرفه اليمني بإهانة قنصلها وبعض رعاياها، من أجل أن تجبر الإمام اليمني عبد الله، وقد تأكدت من ضعف قوته الدفاعية، على توقيع معاهدة في عام ١٢٣٦هـ-١٨٢١م، تضمن لها امتيازاتها في هذا الميناء الذي ضمن لها نافذة جداً هامة في البحر الأحمر، تماماً كما ضمنت لها امتيازاتها في ميناء عدن نافذة جداً هامة في بحر العرب، وكل ذلك، رغم احتجاج محمد علي والسلطنة العثمانية نفسها[٥٢].

بعد ذلك انشغلت بريطانية بالأعداد ثم المشاركة المباشرة في الحرب اليونانية في عام ١٢٤٣هـ-١٨٢٧م، ضد حليفتها الدولة العثمانية التي لم تكن تسمح لها لتقضي على ثورة اليونان بمساعدة قوات محمد علي. لقد أرادت إلهاءه وحليفتها هذه بهذه الثورة عن تنفيذ مطامعها في سواحل شبه جزيرة العرب، أما أن تسمح له أولها بالنجاح في ضربها، وهي الثورة "الأوربية" فهذا أمر آخر. وكانت النتيجة التحالف الأوربي، بما فيه البريطاني والفرنسي، من أجل ضرب القوة العثمانية-العربية، وبخاصة القوة البحرية العربية المصرية، مع ذلك سرعان ما نسيت السلطنة العثمانية هذا الحدث الذي أعطى التقويم الفعلي لأصدقائها وأعدائها، فتحولت إلى صداقة بريطانية والتحالف معها من جديد ضد العرب ومحمد علي الذي بعد أن رفضت تنفيذ وعدها له بإعطائه ولاية دمشق كمكافأة له بعد قضائه على الدولة السعودية الأولى، وولاية كريت والمورة أو عكا كبديل عنها كمكافأة على دعمها في الحرب اليونانية، قرر أن يستقل بمصر وأن يحتفظ بوجوده في السودان وشبه الجزيرة العربية، وبخاصة في الحجاز واليمن، وأن يضم سورية الطبيعية، أو بلاد الشام إليه وأن يوحدها في ظل حكمه ودولته الواحدة.

بدأ محمد علي مشروعه هذا بالتوجه إلى أخذ عكا في عام ١٢٤٧هـ-١٨٣١م

رافضاً الأمر السلطاني بالانسحاب منها، فاعتبر منذ ذلك الحين خارجاً على السلطنة العثمانية. وقد تابع أخذ وتوحيد البلاد السورية، ثم توجهت قواته نحو الآستانة، فاضطر السلطان العثماني في عام ١٢٤٩هـ-١٨٣٣م، إلى توقيع معاهدة كوتاهية معه، والتي تنازل له فيها عن سورية، مما أتاح له الفرصة لتركيز جهوده في شبه جزيرة العرب، ليعيد ويستكمل سيطرته عليها، لا لصالح السلطنة العثمانية هذه المرة، وإنما لصالحه الخاص.

رأت بريطانية أن تستغل انشغال محمد علي بحربه هذه مع السلطنة العثمانية، ونجاحها في استعادة تحالفها معها ضده وضد المصالح العربية عموماً، لتستكمل جهودها في ترسيخ هيمنتها في الخليج العربي من خلال جهودها في استغلال وتعميق ظاهرة التشتت والاختلاف في الصف العربي، وبالتالي ضعفه وحاجة كل طرف فيه إلى دعمها، من أجل توقيع معاهدات الصلح المتجددة في الثلاثينيات بين أطراف معاهدة ١٢٣٥هـ-١٨٢٠م نفسها وعلى نسقها، والتي ضمنت لها جميعاً استمرار هذه الهيمنة بخاصة وأنها كانت قد ضمنت احتكار التحالف مع الطرف الآخر من الخليج، وهو الطرف الفارسي كما رأينا.

لقد كانت بريطانية تحرص على الالتزام بسياسة المحافظة على شكل من أشكال التوازن في الخليج بين قوتي طرفيه، العربي والفارسي، وربما يضمن لها بقاء وحماية هيمنتها فيه. هذا من ضمن الأسباب التي تفسر امتناعها عن دعم فارس في أطماعها بالاستيلاء على البحرين وعمان. أما اتفاقها المذكور مع هذه الأخيرة فيفسر سكوتها عن نجاحها في أخذ الكثير من السواحل الفارسية، بما فيها بندر عباس. وقد انشغلت فارس في أواخر هذه المرحلة، بالإضافة إلى موضوع استرجاعها لهذه السواحل، بصراعها مع السلطنة العثمانية حول إمارة مدينة المحمرة التي أنشأها رب بني كعب في عام ١٢٢٧هـ-١٨١٢م وجعلوها مركزاً لإمارتهم في جنوب عربستان، والمستقلة عن كلتا الدولتين معاً، الفارسية والعثمانية، والذي أي هذا الصراع، سوف

ينتهي. بعد فترة قصيرة من خروج قوات محمد علي، بنجاح فارس في ضمها إليها مع بقية أراضي عربستان حسب اتفاقية أرضروم الثانية مع هذه السلطنة في عام ١٢٦٣هـ-١٨٤٧م، لتبرز مشكلة عربستان منذ ذلك الحين كإحدى المشاكل القومية العربية. ومما نجحت فيه أيضاً قيامها بانتهاز فرصة غياب السلطان سعيد المستمر عن مسقط بعد نقل مركز حكمه إلى زنجبار في عام ١٢٤٨-١٨٣٢، من أجل أن تعيد سيطرتها على السواحل الشرقية للخليج، وبترحيب بريطانية بذلك، وعلى أن تبقى مقاطعة جوادور تابعة لسلطنة مسقط، للأسباب التي رأيناها سابقاً، وبخاصة ما تعلق منها بوجود التوازن بين القوتين الفارسية والعربية في الخليج ودائماً لصالح هيمنتها فيه.

هذا بالنسبة للطرف الأول، البريطاني، الذي استغل ظروف انشغال محمد علي وقواته بالحرب مع السلطنة العثمانية في هذه الفترة، من أجل توسيع دائرة نفوذه وهيمنته على سواحل شبه الجزيرة العربية، وبخاصة الخليج العربي، أما بالنسبة للطرف الثاني الذي استفاد من الظروف نفسها في محاولة لتحقيق الهدف نفسه فهو الطرف السعودي. لقد استغل السعوديون بداية، وبزعامة أميرهم تركي، الحرب اليونانية ١٢٣٥هـ-١٨٢٠م/١٢٤٥هـ-١٨٢٩م، والتي انشغلت بها كل الأطراف المعنية لهم، أي العثماني والبريطاني والمصري، من أجل السيطرة من جديد على نجد والقصيم كلها، بما فيها الرياض التي جعلها هذا الأمير عاصمة لدولته الجديدة، الدولة السعودية الثانية، في عام ١٢٤٠هـ-١٨٢٤م. وإن غلبة الحافز السياسي لوجودها وليس الديني[٥٣] يفسر ابتعادها من التقوقع الطائفي والتعصب[٥٤]. ثم استغلوا انشغال القوات المصرية والعثمانية بحربها معاً ما بين عامي ١٢٤٧هـ-١٨٣١م/١٢٤٩هـ-١٨٣٣م، وانشغال بريطانية بتثبيت هيمنتها في الخليج العربي، وانشغال عرب الجزيرة بصراعاتهم الداخلية، ثم انشغال الحاميات المصرية الموجودة في إقليم الحجاز بثورة عسير، من أجل توسيع حدود دولتهم هذه بإخضاع شمر وحائل والإحساء

والبحرين، والحصول على مهادنة الكويت وعلى التزام عمان بدفع الجزية لهم وبحيث أصبح الخليج كله يعترف بسلطتهم ١٢٤٩هـ-١٨٣٣م، ويدفع الجزية لهم(٥٥).

رغم أن السعوديين لم يقربوا إقليم الحجاز حرصاً على عدم إثارة قوات محمد علي ضدهم، فإن هذا لم يمنعهم من تقديم الدعم السري لثورة عسير الرافضة لوجود هذه القوات، والتي استمرت طويلاً نتيجة لغياب علاقات التفاهم بين الوالي المصري والشريف في مكة. استغل ذلك أيضاً القائد الألباني محمد آغا، الملقب بـ تركجه "بلماز" (الذي لا يعرف التركية)، من أجل القيام بتمرده وجنده الألبان في مكة ضد القائد العسكري خورشيد باشا، أكفأ رجال محمد علي في الجزيرة العربية، مجبراً إياه على العودة إلى مصر، ومعلناً والياً عثمانياً للحجاز. وكان أن تغلبت حملة مصرية قادها الوالي أحمد باشا يكن على المتمردين في عام ١٢٤٨هـ-١٨٣٢م، مجبرة تركجة بلماز هذا على الهرب(٥٦).

وهكذا عاد إقليم الحجاز إلى الهيمنة المصرية. والسؤال الآن ما مصير هذا الإقليم ومصير الدولة السعودية الثانية وشبه جزيرة العرب عموماً في الفترة الثالثة من الوجود المصري فيها والتآمر البريطاني خلالها؟

شبه جزيرة العرب والتآمر البريطاني في الفترة الثالثة من الوجود المصري (١٢٤٩هـ-١٨٣٣م/١٢٥٦هـ-١٨٤٠م):

استوعب محمد علي منذ البداية كما رأينا تآمر السلطنة العثمانية مع بريطانية ضده وضد الدولة السعودية والعرب عموماً، وأغضبه جداً استمرار هذا التآمر من دعمه لهذه السلطنة في حربها مع حليفتها هذه في الحرب اليونانية، والذي دعاها إلى السكوت المستمر عن كل نشاطها الاستعماري الواضح للسيطرة على شواطئ شبه الجزيرة العربية وبخاصة الخليج العربي. واستوعب أيضاً طبيعة الصلات الحميمة

التي كانت تربط ما بين بريطانية وفارس في الطرف الشرقي من هذا الخليج، وما بينها وبين سلطنة مسقط في الطرف الغربي. واستوعب مضامين وخلفية معاهدات الصلح المذكورة لصالح هيمنة بريطانية التي برزت آنذاك كأقوى قوة أوربية على المستوى العالمي. وعلى ضوء استيعابه هذا رسم مخططه في فرض سيطرته على جميع شبه جزيرة العرب، وبخاصة سواحلها الجنوبية والشرقية، والتي تعني التحكم في طريق البحر الأحمر والخليج العربي، وطبعاً لحساب مطامحه في تشكيل "دولته" العربية الواحدة القوية أو "إمبراطوريته" والتي حملت خطراً كبيراً على بريطانية وطريقها إلى الهند[٥٧].

تضمن مخطط محمد علي هذا جهوده على كل الأصعدة. فعلى الصعيد العثماني توجه إلى محاولة فك الارتباط التحالفي ما بين السلطنة العثمانية وبريطانية، محذراً هذه السلطنة من خطر مساعي حليفتها هذه في الخليج وشبه الجزيرة العربية على مصالحها والمصالح الإسلامية عموماً، من منطلق ادعائها حماية هذه المصالح وتمثيلها.

وعلى الصعيد الأوربي ومنه البريطاني توجه إلى ترسيخ تحالفه مع فرنسة، باعتبارها القوة الأوربية المنافسة والعدوة لبريطانية. هذا في الوقت نفسه الذي كان يطمئنها فيه على عدم المسّ بوجودها في الخليج، حارصاً على عدم الاصطدام معها ريثما يصل إلى مبتغاه في استقطاب تأييد جميع الحكام والمشايخ العرب في شبه الجزيرة، والذي كان هدف مساعيه على الصعيد العربي، والتي يمكننا إيجازها بالخطوات الآتية التي انطلقت من محاولة استغلال وحدة الانتماء العربي ما بين مصر وشبه الجزيرة وبقية المناطق العربية وبخاصة من قبل أولاد محمد علي، وعلى رأسهم إبراهيم المعروف كما رأينا سابقاً، بشعور الفخر بهذا الانتماء.

كان من الطبيعي أن تتعلق خطوته الأولى بتوطيد النفوذ لصالحه الخاص في

إقليم الحجاز والأماكن المقدسة فيه، فعاد قائده في عام ١٢٥٢هـ-١٨٣٦م، ليعمل على استعادة هيبة الوجود المصري، والتي اهتزت صورتها بعد التمرد المذكور لتركجة بلماز.

وكان من الطبيعي أيضاً أن تتعلق خطوته الثانية بالقوة المحلية الرئيسية ذات التأثير الفعلي وهي القوة السعودية. وبدلاً من إضاعة الوقت والجهد في حربها فإنه سعى إلى تحويلها إلى دولة حليفة وتابعة له تماماً، من خلال عمله على استلام ربيبه - و"دميته" حسب تعبير لوريمر(٥٨)، الأمير خالد لإمارتها في عام ١٢٣٥هـ-١٨٣٧م، ثم السعي لاستعادة نفوذها في الإحساء في عام ١٢٤٥هـ-١٨٣٧م، ولذا جعل القائد العسكري المصري خورشيد باشا مدينة عنيزة في نجد قاعدة رئيسية له يمارس فيها نشاطه الدبلوماسي المكثف في أوساط شيوخ وحكام قبائل الخليج العربي من أجل استقطابهم للانضمام والتبعية إلى التحالف المصري-السعودي، فإن حاكم الإحساء من قبله، سعد بن مطلق، قد جعل من القطيف فيها مركزاً لمنطلقه لممارسة هذا النشاط نفسه، وباسم الأمير خالد واسترجاع مجد جده. وهكذا تحولت الدولة السعودية في هذه الفترة إلى واجهة للحكم المصري لمحمد علي، يعمل من خلالها على بسط نفوذه في الخليج العربي.

ولقد نجح حاكم الإحساء سعد بن مطلق باسترجاع واحة البريمي المفتاح الرئيسي لعمان في عام ١٢٥٥هـ-١٨٣٩م محولاً إياها إلى مركز جديد لممارسة نشاطه المذكور باسم الأمير خالد. وفي العام نفسه كانت معاهدة البحرين مع خورشيد باشا والتي تضمنت تبعيتها للأمير خالد وقبولها بدفع الجزية السنوية له، مع ترحيب البحرين بالمصريين حسب تأكيد الوثائق المصرية(٥٩). وكانت العلاقة الودية لخورشيد باشا مع الكويت قد بدأت منذ مساهمة قوات أميرها جابر الصباح بتسهيل استعادة علاقات محمد علي المصرية على الإحساء في عام ١٢٥٤هـ-١٨٣٨م. أما بالنسبة لسلطان مسقط فقد استمرت علاقات محمد علي الودية به منذ أعلن تأييده السريع

للأمير خالد في صراعه ضد الأمير فيصل، وتعمقت أكثر حين وقف محمد علي إلى جانبه في خلافه مع الأمير خالد بعد أن قام هذا بتعيين سعد بن مطلق المطيري حاكماً على عمان كافة في البر والبحر، مما يعني تبعية مسقط له ويفسر بالتالي مطالبتها بالولاء ودفع الزكاة. وقد طلب محمد علي من الأمير خالد إرضاءه فوراً، مما يفسر غضب هذا الأمير وصلاته بمساعد المقيم البريطاني في البحرين من أجل محاولة تجديد علاقات الود والصداقة التي كانت بين أبيه سعود والحكومة البريطانية[٦٠].

وإن علاقات سلطان مسقط الودية هذه مع محمد علي لم تمنع استمرار تحالفه الوثيق أيضاً مع بريطانية. في اليمن لم يكتف محمد علي باحتلال تهامة في عام ١٢٥١هـ-١٨٣٥م، وإنما قام في عام ١٢٥٣هـ-١٨٣٧م، بالسيطرة على كل مناطقها باستثناء صنعاء التي بقيت بيد الزيديين.

وبالرغم من تأكيدات محمد علي على حرصه على عدم التدخل في شؤون الخليج إرضاءً لبريطانية وعلى عدم المسّ بمصالحها فيه، فإن تخوفها منه كان مستمراً، وكان يزداد مع كل خطوة من خطوات مساعيه المذكورة في السيطرة على شبه جزيرة العرب، طوال فترات وجوده الثلاث خصوصاً، وفي خلق دولته العربية القوية العصرية عموماً، وتوسيع نشاطها العالمي وبخاصة التجاري. فزاد بعد أن نظم تجارة البن وحصرها بإدارة مركزية في جدة منذ عام ١٢٣٤هـ-١٨١٩م، واستقطب أصحابها بترك حرية التصدير لهم في قراره في عام ١٢٥١هـ-١٨٣٥م، والذي جدد في عام ١٢٥٣-١٨٣٧[٦١]. وزاد بعد أن أصر على نشاطه التجاري في الهند والخليج العربي والبحر الأحمر، فقام بتعيين وكلاء تجاريين في بومباي، وبعد أن أخذ بتصدير البضائع الأوربية والمصرية معاً إلى الهند، والتي بدأت بمنافسة البضائع البريطانية نفسها، وبعد أن أصدر أوامره بمنع السفن القادمة من بومباي من الصعود في البحر الأحمر شمالي جدة، وبعد أن توجه إلى إعداد أسطوله التجاري الخاص في الخليج العربي، بعد أن هيمن على معظم موانئ البحر الأحمر بحيث غدا ما يشبه

"بحيرة مصرية"[٦٢]، وبعد أن احتكر التجارة في السودان، ومنها تجارة الصمغ والعاج وجلود الحيوان[٦٣]، وبعد أن أدخل الصناعات الحديثة إلى السودان "ليتمكن السودانيون من الاعتماد على أنفسهم"[٦٤]، ومنه استفادته من الرقيق فيها في المصانع المصرية ذكوراً وإناثاً[٦٥]، وبعد أن احتكر تجارة الحرير في الشام، وبعد أن وقف الجيش المصري ضد المشروع البريطاني في تجربة الملاحة بالبواخر في نهر الفرات والتي كانت بمباركة السلطنة العثمانية فيما بين عامي ١٢٥٠هـ-١٨٣٤م/١٢٥١هـ-١٨٣٥م[٦٦].

وكان أن صعّدت بريطانية تحركها ضد محمد علي ودولته على أربعة مستويات: المستوى الأول هو عمان حيث أخذت تعمل بالتعاون مع حليفها السلطان سعيد على تأليب شيوخ بني النعيم في واحة البريمي بهدف إشعال الفتن والثورات ضد الوجود المصري، وحيث توسطت في إنهاء النزاع بين هذا السلطان وبين ابن عمه المستقل عنه بصحار لتقنعهما بضرورة اتفاقهما ضد خطر هذا الوجود. والمستوى الثاني هو استغلال معاهدة السلام العامة المعقودة بينهما وبين شيوخ الساحل العربي من أجل الضغط عليهم ودفعهم إلى كتابة تعهدات خطية "بتأييد السياسة البريطانية ضد السياسة المصرية"[٦٧]، ولم تكتف بهذا الضغط بالنسبة للبحرين، بل استغلت كالعادة خوفها من المطالبات الفارسية بها من أجل أن تدفعها إلى إلغاء اتفاقها مع خورشيد باشا في عام ١٢٥٦هـ-١٨٤٠م، ونظراً لتخوفها من إمكانية تعاطف سلطان بن صخر، القواسم، مع المصريين نتيجة لما كانوا قد قدموه له من مساعدة لاستعادة حكمه في الشارقة، فقد أضيف نص خاص به تعهد فيه صراحة بعدم إجراء علاقات أو مراسلات أو اتفاقيات مع محمد علي وأنصاره أو أية قوة أجنبية أخرى، قبل موافقة الحكومة البريطانية، وأن يعتبر حلفاء هذه الحكومة حلفاءه وأعداءها أعداءه.

والمستوى الثالث الذي نشطت فيه بريطانية ضد دولة محمد علي هو التحالف مع أعداء خطه العروبي الموحد داخل دولته نفسها، في صفوف الإقطاعيين

واليهود[٦٨]، لتشكيل عناصر "الثورة المضادة"[٦٩]، لثورته داخلياً، وليعمل على تـأليب الجماهير العربية الإسلامية ضده، وبخاصة في بلاد الشام والسودان.

والمستوى الرابع هو الاحتجاج الرسمي لدى خورشيد باشا ولدى محمد علـي. وإن خوفها من امتداد وجودهما المصري إلى العراق دفعها إلى تعزيز قواتـها فـي البصرة واحتلالها لجزيرة الخرج في عام ١٢٥٤هـ-١٨٣٨م[٧٠].

أما الخوف من امتداده إلى اليمن بعد أن وصلها خبر وشوك الإمـام الزيـدي على الاعتراف به، وعلى فتح أبواب العاصمة صنعاء لقواته، فقد دفعها إلى الإسـراع باحتلال عدن ومنع هذا الاعتراف في عام ١٢٥٥هـ-١٨٣٩م بداية، ثم إلى التخطيط السريع لإنهاء وجود محمد علي في شبه جزيرة العرب خصوصاً وللقضاء عليه وعلى دولته عموماً.

الخاتمة في الاستنفار التآمري العثماني-الأوربي ضـد المحاولـة النهضويـة لمحمد علي:

كان احتلال عدن، من جملة ما كان، ضربة كبيرة لمطامع فرنسة التي كـانت ما تزال المنافسة الرئيسية لبريطانية آنذاك، والتي لم تنسَ دور هذه ضدها، وبخاصـة في خروجها من مصر وفي صدور الكثير من قرارات مؤتمر فيينا ضد مصالحـها، فبقيت على عدائها لها، والذي لم يكن مانعاً في عام ١٢٤٦هـ-١٨٣٠م وعدها لـها بالتخلي عن دعم محمد علي مقابل سكوتها عن احتلالها للجزائر. وكانت فرنسة علـى دراية تامة بنشاط منافستها السياسي لدى زعماء ومشايخ القبائل في شـبه الجزيـرة العربية لتثير مخاوفهم منها ولتبعدهم عن التعامل معها، ومنهم سلطان مسقط وسـلطان لحج وعدن والإمام الزيدي. وكانت تدرك أيضاً غرض البريطانيين من احتلال عـدن المذكور، وقد أخبر قنصلها في القاهرة محمد علي به مؤكداً أنه: "لم يكن احتكار البـن

في اليمن وجعل الجزيرة العربية كلها سوقاً لبضائعهم ومصنوعاتهم فحسب، بل أنهم يهدفون أيضاً إلى السيطرة على مدخل البحر الأحمر حتى يساعدهم ذلك في المستقبل على غزو مصر وضمها إلى أملاكهم(٧١). كان تحذير فرنسة هذا لتأجيج عداء محمد علي لبريطانية، ومن منطلق التزيّ بلبوس صداقته وشده إليها أكثر فأكثر بعيداً عن غريمتها. هذا في الوقت نفسه الذي كانت فيه قد اتفقت وإياها سراً على ضرورة الحد من نفوذه، ولو أنهما قد اختلفتا حول درجة هذا الحد. ثلاثة أسباب كانت وراء تحول فرنسة نحو الاتفاق.

- السبب الأول مشاركتها والقوى الغربية جميعاً، وبخاصة بريطانية في مشاعر التخوف من مستقبل دولة محمد علي العربية النهضوية القوية الواحدة على مصالحها في الشرق والغرب، والتي كانت تتمتع بكل الإمكانيات اللازمة لاستعادة المجد والنظام العالمي العربي، وبالتالي لإسقاط النظام العالمي الغربي. وإن وجود التاريخ المشترك، وبخاصة الإسلامي، كان وما يزال يمارس تأثيره في محبة الشرق الإسلامي، الآسيوي والإفريقي، للعرب، وفي تطلعه إليهم كبديل عن الهيمنة الاستعمارية الأوربية. ولقد كانت رغبة فرنسة في الحد من توسع ونفوذ هذه الدولة دون القضاء عليها، بعكس رغبة بريطانية باعتبارها كانت تمثل زعامة النظام الغربي المهدد، والأكثر تضرراً وتخوفاً بالتالي من بقية قواه الأوربية، والتي أخذت على عاتقها استنفار التآمر العثماني-الأوربي من أجل تحقيق رغبتها هذه(٧٢).

السبب الثاني كان تحرك المسألة الشرقية ليس لصالح طرف محمد علي ودولته العربية فقط، وإنما لصالح طرف المنافسة الرئيسية لفرنسة معاً أيضاً، أي طرف روسية في تحالفها مع النمسة. إن تهديد قوات محمد علي للآستانة في نيسان عام ١٢٤٩هـ-١٨٣٣م، بالرغم من وقوفها في كوتاهية بناء على أوامره، قد دفع السلطان العثماني محمود الثاني إلى الاستنجاد بروسية التي

أرسلت قواتها فوراً إلى البوسفور لحماية السلطنة. وإن إدراك بريطانية وفرنسة لمطامع روسية في احتلال الآستانة والسيطرة بالتالي، وحليفتها النمسة، على الدولة العثمانية كلها، وقد دفعهما إلى إقناع السلطان بقبول طلبات محمد علي، مؤقتاً، لقطع الطريق أمام روسية لتحقيق مطامعها هذه بحجة الدفاع عن السلطنة، فكان أن وقع معه كما رأينا سابقاً معاهدة كوتاهية في أيار ١٢٤٩هـ-١٨٣٣م، والتي تنازل له بموجبها عن سورية، وولى ابنه إبراهيم باشا ولاية أضنة، وأعطاه كريت وشبه جزيرة كاندية التي كلفت الباب العالي جهود عشرين سنة كي ينتزعها من البندقية. وهكذا توقف خطر محمد علي بالنسبة للدولة العثمانية آنذاك.

لكن السلطان العثماني محمود الثاني مع ذلك لم يكتف بالوقوف عند ذلك وانتظار تنفيذ الوعود البريطانية بالعمل على إزالة هذا الخطر تماماً، فكان أن دفعه خوفه وضعف دولته إلى توقيع معاهدة هنكاراسكالوسي مع روسية في صيف عام ١٢٤٩هـ-١٨٣٣م نفسه، مرتبطاً معها بموجبها بحلف دفاعي وهجومي، مقابل قبوله بإغلاق مضائق الدردنيل في وجه المراكب الغربية المسلحة، أي في وجه منافسي وأعداء روسية، ومنهم بريطانية وفرنسة، مما يعني بالنتيجة أنها قد أصبحت سيدة البوسفور والدردنيل، ويعني البداية في تحقيق مطامعها في حل المسألة الشرقية لمصالحها، لكن هذه المطامع سرعان ما ضربت من خلال التآمر العثماني-البريطاني الجديد ضدها وضد دولة محمد علي بشكل خاص، والذي أسفر عن معاهدة "بلطة ليمان" في عام ١٢٥٤هـ-١٨٣٨م، التي كانت بمثابة "الإطار الاستغلالي الجديد" للاستعمار البريطاني[٧٣]. والتي استكمل من خلالها السيطرة على الاقتصاد العربي خصوصاً والعثماني عموماً[٧٤].

وإن غضب محمد علي يفسر إرسال قواته بقيادة ابنه إبراهيم باشا في عام ١٢٥٥هـ-١٨٣٩م، لتتقدم نحو الآستانة دون مقاومة. ولقد وصل الغضب الشعبي من

هذه السلطنة التي شهدت في هذا العام موت السلطان محمود الثاني واستلام السلطان عبد المجيد، إلى درجة تحول الأسطول العثماني وانضمامه إلى جانب محمد علي(٧٥). كان هذا بمثابة الإشارة إلى السقوط النهائي والوشيك للسلطنة في قبضة محمد علي، وبالتالي تصفية المسألة الشرقية لصالح تشكيل إمبراطوريته العربية-الإسلامية وتحقيق مطامحه الدولية المذكورة، وبخاصة من حيث استعادة النظام الدولي العربي-الإسلامي، أي السيطرة على التجارة الدولية، كسوق ومراكز ومواد وأدوات، وبالتالي عودة الهيمنة الشرقية العربية-الإسلامية على الغرب وعلى نظامه وزعامته البريطانية.

وكان أن تداعت قوى هذا الغرب وهذا النظام إلى تلبية دعوة زعامته هذه إلى الاستنفار وإلى مؤتمر يناقش الأزمة والحل الجماعي لها في شباط ١٢٥٦هـ-١٨٤٠م. ولقد تعطل هذا المؤتمر بسبب الخلاف بين فرنسة التي أصرت على إعطاء سورية الطبيعية ومصر لمحمد علي بشكل وراثي، وبين بريطانية التي أصرت على حصره في حدود مصر وإعطائه عكا فقط كحل وسط يضمن قبوله وسكوت جماهيره العربية. لقد أرادت فرنسة تسوية تستطيع من خلالها تقليص نفوذ محمد علي جزئياً وبحيث يزول خطره، وعلى أن تحتفظ بصداقتها وحلفها معه ضماناً لخدمة مصالحها في المنطقة، فكان أن أصرت بريطانية على عقد المؤتمر لبقية القوى وبدونها في تموز ١٢٥٦هـ-١٨٤٠م، لتخرج بمعاهدة لندن الأولى، بينها وبين روسية النمسة. ونصت على منح محمد علي ولاية مصر وراثية وولاية عكا مدى حياته، وعلى أن يعيد المناطق الأخرى إلى الدولة العثمانية، وأن يدفع جزية سنوية للسلطان، وأن تحصل مصر على استقلالها الداخلي بشرط تحديد جيشها وأسطولها. وقد أعطت المعاهدة الحق للسلطان بسحب ولاية عكا من محمد علي إذا لم يستجب خلال عشرة أيام، وبحرية التصرف ضده إذا لم يستجب خلال العشرة أيام أخرى.

رفض محمد علي تنفيذ ما جاء في هذه المعاهدة، فكانت حربه مع العثمانيين

المدعومين من قبل قوات الحلفاء المذكورين، وبخاصة الأسطول البريطاني. وهنا برز تأثير نتيجة السبب الثالث في تحول موقف فرنسة وتخليها عن وعودها بدعم محمد علي، وهو تعهد السلطنة العثمانية وبريطانية باحترام مصالحها في المنطقة العربية، وبخاصة في سورية الطبيعية والمغرب العربي، تمثل هذا التأثير بطبيعة موقف وقوة محمد علي، فكانت خسارته في سورية هذه، ثم قراره بالانسحاب منها ومن الجزيرة العربية، على أن تبقى له مصر والسودان. وهذا ما نصت عليه معاهدة لندن الثانية، التي أسفر عنها مؤتمر لندن الذي عقد بحضور فرنسة هذه المرة في حزيران ١٢٥٧هـ-١٨٤١م، تضمنت أن مصر ولاية عثمانية ذات استقلال داخلي، ووراثية لمحمد علي الذي سمحت له بضم السودان إليه مقابل عائدات سنوية للسلطنة. وحددت عدد الجيش المصري ومنعته من القيام بإنشاء السفن الحربية إلا بموافقة السلطان. ونفذت هذه المعاهدة وانسحب محمد علي من كل المناطق التي كان قد أخذها خارج مصر والسودان. وصدر الفرمان السلطاني بمنحه مصر وراثية له ولذريته مقابل تقديمه ربع مدخولها إلى السلطنة.

وهكذا نجح التآمر البريطاني-العثماني في ضرب المحاولة التوحيدية النهضوية لمحمد علي والتي اعتبرها كثير من الباحثين، اعتماداً على التقارير والمصادر التاريخية، وعلى دراسة جماهيرها وحركتها وأهدافها، بغض النظر عن أصل زعيمها، بمثابة الثورة العربية البرجوازية العقلانية المتوجهة إلى "إحياء الدولة العربية القديمة وإرجاع دولة إسلامية عربية"[٧٦]، واعتبر أحدهم نجاح هذا التآمر في ضربها "بمثابة الجولة المضادة للحروب الصليبية التي داهمنا بها الغرب منذ قرون"[٧٧]، معتبراً سقوطها لصالح رباعي "الثورة المضادة" لدولة محمد علي ولحركة التحرر العربية عموماً، أي رباعي الغرب الأوربي الاستعماري أولاً، والاحتلال التركي المتواطئ المتخلف ثانياً، والنفوذ الإقطاعي الرجعي ثالثاً، والعمالة الصهيونية رابعاً، والتي بدأت بريطانية منذ ذلك الحين بإعدادها فعلياً لتكون الحاجز المدعم أمام أية

محاولة حقيقية مستقبلية في خلق دولة عربية قوية موحدة[٧٨].

ونظراً لأن التآمر العثماني-البريطاني كان ما بين طرف عثماني ضعيف وطرف بريطاني قوي، فقد كان من الطبيعي أن يقود نجاحه في ضرب هذه المحاولة إلى خدمة هذا الطرف القوي بالدرجة الأولى.

وإن أية مقارنة بين الفوائد والمكتسبات التي جناها كل من الطرفين تبين ضآلتها بالنسبة للدولة العثمانية مقابل أهميتها واتساعها بالنسبة لبريطانية، وكذلك خطورتها على "ديار الإسلام" التي كانت تدعي السلطنة العثمانية حمايتها، لقد انحصرت فوائد ومكتسبات هذه السلطنة في استعادتها للهيمنة الاسمية فقط على المناطق التي انسحب محمد علي منها، في سورية وبعض أقاليم شبه الجزيرة العربية.

أما فوائد ومكتسبات بريطانية فقد تمثلت بالهيمنة الفعلية على معظم سواحل شبه الجزيرة هذه أولاً، وبالسيطرة التامة على هذه السلطنة لتحركها متى وكيف تشاء، وباتجاه تغريب انتمائها وتخليها عن انتمائها الشرقي الإسلامي ثانياً، والذي نعيش حتى اليوم بعض مظاهره الخطيرة "المعاهدة التركية-الإسرائيلية العسكرية"، والذي منه تواطؤها السابق حتى بعد نهاية دولة محمد علي العربية ضد المصالح العربية والإسلامية ككل لحساب خدمة وتعزيز مصالح زعامة وقوى النظام الرأسمالي الاستعماري وسكوتها عن استكمال هذه الزعامة والقوى لاحتلال الكثير من البلدان العربية، ومنه احتلال بريطانية لمصر بعد حين من الزمن عام ١٨٨٢، وكذلك سكوتها عن الاستيطان الصهيوني في فلسطين[٧٩].

أما بروز أخطر المكتسبات لبريطانية فقد كانت معاهدة بلطة ليمان المذكورة باعتبارها "أولى حلقات التطبيق العملي للثورة المضادة"[٨٠]، والتي لم تدمر الاقتصاد العربي فقط، وإنما كامل الاقتصاد العثماني كما ذكرنا سابقاً، ولصالح رأس المال البريطاني وقواه الاستعمارية، مما كان ينفي عن السلطنة العثمانية وجود أية غيرة

لديها، حتى الغيرة الوطنية لمصالح بلادها التركية، والملفت للانتباه في هذه المعـاهدة هو أن هذه السلطنة العثمانية قد قدمتها لبريطانية ثم لفرنسـة وغيرهـا مـن القـوى الأوربية الأخرى، كثمن لأمر هو تحصيل حاصل، وهو قضاؤها على الدولة العربيـة لمحمد علي، والذي كانت ستقوم به الضرورة، بوجود هذه المعاهدة أو بغير وجودهـا تحت ضغط أسبابها ومصالحها الخاصة المذكورة سابقاً.

وبانتهاء هذه المحاولة التحررية النهضوية لمحمد علي، والتي طبعت العصـر بطابعها، بحيث غدا بالنسبة لكثير من الباحثين "عصر محمد علي"[٨١]، انـهى فصـل آخر من فصول المسألة الشرقية "العربية"، ورأينا مقدار صلته الوثيقة بمضمون هـذه المسألة العام، أي بالعلاقات بين الشرق والغرب في بعدها التاريخي المستمر، والـذي شهد سيطرة النظام العالمي العربي القديم والإسلامي حتى الأعوام الأخيرة من القـرن التاسع (هـ) – الخامس عشر (م)، وشهد مسيرة التقدم العربي حتى القـرن الثـاني عشر–الثامن عشر، أي حدث الثورة الصناعية التقنية في الغرب، والتي حملت نظامـه الرأسمالي الليبرالي العالمي مشعل التقدم منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا فـي ظـل زعامته الأمريكية ونظامها الذي تدعوه جديداً. ولم يكن الاستنفار التآمري لهذا النظـام في ظل زعامته البريطانية السابقة، ضد الدولة العربية القوية العصرية لمحمد علـي، وضد أية محاولة في خلق هذه الدولة كما رأينا، سوى نتاج الخـوف الغربـي مـن إمكانية عودة النظام العالمي العربي الذي كان نظام الإعمـار الحضـاري الإنسـاني الحقيقي[٨٢]. والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة، في ظروف تصـاعد هـذا الاسـتنفار التآمري الغربي اليوم ضد الوطن العربي: هل غاب هذا الخوف أم ما زال حـاضراً برغم كل قوة وتقدم الغرب؟

هوامش البحث

١- ليلى الصباغ، **تاريخ العرب الحديث والمعاصر**، مطبعة ابن حيان، دمشق ١٩٨١-١٩٨٢، ص٢٣٩-٢٤٣.

٢- عبد الفتاح عاشور، **تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦، ص١١.

٣- انظر لاحقاً.

٤- يؤكد د. سلطان محيسن، وهو المدير العام لمديرية المتاحف والآثار في سورية، على أن هذه الحقيقة لا يرفضها "سوى من يصعب عليه أن يكون أصله من المشرق العربي القديم مدفوعاً باعتبارات عنصرية لا تمت إلى جوهر البحث العلمي النزيه بصلة"، (**عصور ما قبل التاريخ**، دار المستقبل، دمشق ١٩٨٦-١٩٨٧، ص٦١). وبالنسبة لعروبة أقوامه فقد أكدتها جميع الدراسات الموضوعية الأجنبية والعربية، كمؤلفات الطبري والمسعودي وجواد علي وشاكر مصطفى وطيب التيزيني وأحمد داوود وكذلك مشروع كتابه لجنة تاريخ العرب الخ.... وذلك لصالح سقوط النظرية السامية- الحامية- الآرية (اليافثية أو الهندوأوربية)

5- Cf. Pierre ROSSI: **La Cité d'isis L'histoire vraie des Arabes,** Paris, 1976.

وراجع أيضاً على سبيل المثال: أحمد داوود، **تاريخ سورية الحضاري القديم**: المركز، دار المستقبل، دمشق ١٩٩٤.

٦- كانت تختلف طبيعة وبنية هذه البرجوازية ونظامها المهيمن حسب اختلاف

طبيعة المرحلة التاريخية. راجع كتابنا: **المتغيرات والنظام العالمي الجديد وسورية**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٥، ص١٧-٦٠.

٧- ول. ديورانت، **قصة الحضارة**، المجلد الأول، الجزء الثاني، ترجمة محمد بدران، جامعة الدول العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ص٩-١٠.

٨- جايمس هنري بريستد، **العصور القديمة**، ترجمة داوود قربان، مؤسسة عز الدين، بيروت، ١٩٨٣، ص٣٨.

٩- **المرجع نفسه** ككل، وبخاصة ص٦٦٣-٦٧٠.

10- Cf. Rossi, **Op. Cit.**

وانظر داوود، **المرجع السابق**.

١١- **المرجع نفسه**.

١٢- بريستد، **المرجع السابق**، ص٦٤٧ وما يتبع.

١٣- بريستد، **المرجع السابق**، ص٦٤٧ وما يتبع.

١٤- هي أوربة بنت أجينور ملك صور الفينيقي، وأصل هذه التسمية أمر مثبت ومتفق عليه، وانظر: بالنسبة للأصول الحضارية العربية لحضارة العرب: Roosi, **Op.Cit.** وأيضاً: غوستاف لوبون: **حضارة العرب** ترجمة عادل زعيتر ١٩٦٩.

١٥- خليل أحمد خليل، "**الخيار الوحدوي العربي في ظل النظام الدولي الجديد**" (مجلة الوحدة، الرباط، العدد ٩٠، آذار ١٩٩٢، ص٨-١٥)، ص١٢.

١٦- المصادر العربية تعبر على تسميتها بحروف الفرنجة، بينما تستخدم كثير من المراجع العربية التسمية الغربية لها أي "الصليبية" وهذا خطأ بيّن.

١٧- راجع لوبون، **المرجع السابق**، وكذلك داوود، **المرجع السـابق**، و: Rossi, Op. Cit.

١٨- الصباغ، **المرجع السابق**، ص٢٤٢-٢٤٣.

١٩- لوتسكي، **تاريخ الأقطار العربية الحديث**، ترجمة دار التقدم، موسكو، ١٩٧١، ص٢١-٢٢. (١٩مكرر) **المرجع نفسه**، ص٢٢. وراجع لوبون، **المرجع السابق**.

٢٠- نجاح محمد، **المصدر السابق**، ص٢٣-٢٧. (٢٠ مكرر) أكدت ذلك كل الدراسات الجديدة الموضوعية، انظر على سبيل المثال **Rossi, Op. Cit**.

٢١- عبد الكريم غرايبه، **تاريخ العرب الحديث**، الأهلية، بيروت ١٩٨٤، ص٢٥. (٢١ مكرر) عبد الكريم رافق، **المشرق العربي في العهد العثماني**، دمشق ١٩٨٩، ص٢٤٨.

٢٢- كارل ماركس، وف. انجلر، **المؤلفات الكاملة**، المجلد ٩، ص٢٠٢ (الطبعة الروسية).

حول كل ما يخص المحاولة الوهابية-السعودية، راجع بشكل خاص: عثمان بن بشر، **عنوان المجد في تاريخ نجد**، المطبعة السلفية بمكة، ١٣٤٩هـ، وحسين بن غنام، **تاريخ نجد**، تحقيق ناصر الدين الأسد، القاهرة ١٩٦١، ومؤلفات محمد بن عبد الوهاب، وفاسيليسيف، **تاريخ العربية السعودية**، ترجمة دار التقدم، موسكو ١٩٨٦، ومؤلفات منير العجلاني بهذا الشأن وكذلك عبد الرحمن عبد الرحيم وأحمد زيني دحلان، خلاصة: **الكلام في بيان أمراء البيت الحرام**، مصر ١٣٠٥هـ، **ولمع الشهاب، لمؤلف مجهول**، تحقيق أحمد مصطفى أبو حاكمة، بيروت ١٩٦٧، وبالنسبة لمحاولة محمد علي راجع

بشكل خاص: وثائق عابدين في دار الوثائق القومية في القاهرة، وعبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، دار الجيل، بيروت، وعبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، القاهرة ١٩٣٠ ومحمد عمارة، **العروبة في العصر الحديث**، دار الوحدة، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨١، و:

- H. Dodwelc: **The Founder of Modern Egypt**, England, 1967.
- F. Mengin: **Histoire de l'Egypte sous le Gouvernement de Mohammad Aly**, Paris, 1823.

ومن أجل وجهة النظر البريطانية في المحاولتين راجع ج.ج. لوريمر، **دليل الخليج**، ترجمة ديوان حاكم قطر، الدوحة ١٩٦٧، القسم التاريخي، و: **Selection From the Records of Bombay**.

٢٣- مكرر، أحمد طربين، **تاريخ المشرق العربي المعاصر**، مطبعة طربين، دمشق ١٩٨١-١٩٨٢، ص١٠٨.

٢٤- رافق، **المرجع السابق**، ص٢٤٨.

٢٥- لوريمر، **المرجع السابق**، الجزء الثالث، ص١٥٧٣.

٢٦- مؤلف مجهول، "**رسالة في تراجم آل سعود**"، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة، رقم المخطوطة ١٤٦٨، تاريخ.

٢٧- انظر إحدى هذه الرسائل للوالي سليمان الكبير في: Hatt-I, Humayun, no. 3765-Traihi 10-11-1216.

٢٨- قدري قلعجي، **الخليج العربي**، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٦٥، ص٤٠٨.

٢٩- راجع محمد عمارة، **المرجع السابق**، ص ٥-١٩٨. وفاسيليسيف، **المرجع**

السابق، ٩٠-١٦٦.

٣٠- طربين، **المرجع السابق**، ص٨٥.

٣١- راجع عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، **بريطانية وإمارات الساحل العماني**، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، ١٩٧٨، ص١٣٩-١٤٤، و:

- Historical Sketch of the Joasmee Tribes of Arabs (Selections from the Records of Bombay, XXIV, P.352)

- أما بالنسبة لتأثير الوهابية الإسلامي الواسع والذي امتد إلى الهند فانظر منير العجلاني: **تاريخ البلاد العربية السعودية، وعهد سعود الكبير**، الجزء الأول، القسم الثالث، ص٤٧-٥٤.

٣٢- **المرجع نفسه**، ص٢٣-٢٩.

٣٣- ٢محمد خير فارس، **تاريخ الجزائر الحديث**، دمشق، ١٩٦٩، ص١٦٦.

٣٤- صلاح العقاد، **التيارات السياسية في الخليج العربي**، مكتبة الأنجلو- المصرية ١٩٧٤، ص٦٠.

٣٥- ٣٥- راجع جمال زكريا قاسم، **الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوربي الأول**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٥، ص١٧٢، وراجع مؤلفنا، نجاح محمد **تاريخ شبه الجزيرة العرب الحديث**، منشورات جامعة دمشق ١٩٩٥-١٩٩٦، ص١٨٦-١٨٧.

٣٦- ٣٦- راجع عبد الغني إبراهيم، **المرجع السابق**، وكذلك:

- **Risk and Progress of the Arab Tribes of the Persian Gulf** (Selection from the Records of Bombay, XXIV P. 213).

37- Cf. C.U. Atchison: **Collection of Treaties**, 1892-1909, Calcutta,

Vol. XI, p.198.

وراجع قاسم، **المرجع السابق**، ص ٢٩٣-٣٥٦.

٣٨- هذا ما تدل عليه إحدى رسالات واليها في بغداد سليمان بك الكبير: Hatt-I, Humayun, no. 3765-Traihi 10-11-1216.

٣٩- راجع **المرجع نفسه**.

٤٠- العجلاني، **المرجع السابق**، ص٩٤.

٤١- **المرجع نفسه**، ص٩٤-٩٥، وطربين، **المرجع نفسه**، ص٨٥.

42- Hatt-I, Humayun, no. 3848-Traihi 17-7-1220.

٤٣- راجع الجبرتي، **الجزء السابع**،ص٣٨٥، والعجلاني، **المرجع السابق**، ص٣٤٠، وعمارة، **المرجع السابق**، ص١٤٥-١٤٧.

٤٤- لقد ادعت محاربة القرصنة والرق لأغراض سياسية بحتة، لضرب القوتين وليس لأغراض إنسانية وهي التي كانت من أكبر تجار الرقيق في العالم، انظر: W. GOODELL: **Slavery and anti-Slavery**, London, 1985, P.6.

٤٥- انظر نجاح محمد، **تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث، المعطيات السابقة نفسها**، ص ١٧١ و٢٠٠- ٢٠٤).

٤٦- عمارة، **المرجع السابق**، ص ١٤٥-١٤٧، وانظر يوسف جميل نعيسة، **مجاضرات في التاريخ العربي المعاصر**، مطبعة الدواودي، دمشق ١٩٨٤-١٩٨٥، ص٢٥-٢٧.

٤٧- لوريمر، **المصدر السابق**، الجزء الثاني، ص١٠١٠-١٠١٢.

٤٠- راجع نجاح محمد، **تاريخ جزيرة العرب الحديث المعطيات السابقة نفسها**، ص١١٨-١٢١ و١٩٥-١٩٦، وجمال زكريا قاسم، **بوسعيد في عمان وشرقي أفريقية**، القاهرة ١٩٦٧، وفضلو حوراني، **الملاحة العربية في المحيط الهندي**، القاهرة، ومحمد عدنان مراد، **تاريخ عمان**، "التي عقدت في أيلول ١٩٩٤ في مسقط وذلك في أعداد صحيفة "عمان"، تاريخ ٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨ أيلول ١٤١٥-١٩٩٤.

٤٨- بونداريفسكي، "التي عقدت في أيلول ١٩٩٤ في مسقط وذلك في أعداد **صحيفة "عمان"**، تاريخ ٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨ أيلول ١٤١٥-١٩٩٤.

(٤٨ مكرر)- بونداريفسكي، **الغرب ضد العلم الإسلامي**، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٥، ص ٦٤-٦٥.

٤٩- قلعجي، **الخليج العربي**...، ص٤١٠.

٥٠- **المرجع نفسه**.

نجاح محمد، **تاريخ جزيرة العرب الحديث المعطيات السابقة نفسها**، ص١١٨-١٢١وص ٢٣١-٢٣٣، وقاسم **الخليج العربي**...ص٣٢٣-٣٢٥.

٥١- راجع مخطوطات دار **الوثائق المصرية، محفظة رقم ٨، وثيقة رقم ١٧**، تاريخ ٦ ذي القعدة ١٢٣٧هـ، ترجمة التقرير الرسمي المعطى من طرق الدولة العلية إلى سفير إنكلترة في الآستانة.

٥٢- سنت جون فيلبي، **تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية**، ترجمة عمر الديسراوي مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٤، ص٢٤٥.

٥٣- فاسيليسيف، **المرجع السابق**، ص ١٩٧.

54- A. J. Wilson, **The Persian Gulf**, Oxford, 1928, P. 198.

٥٥- راجع عبد الحميد البطريق، **من تاريخ اليمن الحديث**، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٦٩، ص٦٢-٧٠.

56- Harford L. Hoskins: **British Routes to India**, London, 1928, p. 269.

٥٧- لوريمر، **المصدر السابق**، الجزء الثالث، ص١٣٠٤ و١٦٣٨.

٥٨- كان هذا الترحيب حسب الوثائق المصرية أملاً في التخلص من خطر الإنكليز وفارس وسلطان مسقط (**وثائق عابدين، محافظ الحجاز ١٢٥٤هـ، محفظة رقم ٢٦٧ ومرفق لها رقم ١٣٧ حمراء**) وتؤكد بعض الوثائق الإنكليزية هذا الترحيب بينما تنفيه أخرى (انظر وثائق عابدين، الوثائق المنقولة عن وزارة الخارجية البريطانية، محفظة رقم ١٢).

٥٩- لوريمر، **المصدر السابق**، الجزء الثالث، ص ١٦٤٨.

٦٠- انظر **مضبطة مجلس جدة بتاريخ ١٩ محرم ١٢٥٤**، في دار الوثائق بعابدين، وثيقة رقم ٣٣ محفظة ٢٦٤.

٦١- عمر سالم بابكور، "**سياسة حكام مصر تجاه تجارة الرقيق**" ، (مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، العدد /٥/، مجلد ١ ١٩٩٧، ص٤٦٩-٥٢٨)، ص٤٨٢.

٦٢- **الوقائع المصرية عدد ٣٨٨**، ٣ محرم ١٢٤٨.

٦٣- **دفتر ٢٦ معية تركي مكاتبة رقم** ١٠٠ تاريخ ٢٩ رجب ١٢٤٢ (دار الوثائق القومية، القاهرة).

٦٤- **دفتر ١٠ معية تركي مكاتبة رقم** ٥٤١ تاريخ ٨ شعبان ١٢٣٧ (دار الوثائق القومية، القاهرة).

٦٥- عمارة، **المرجع السابق**، ص١٦٢.

٦٦- لوريمر، **المصدر السابق**، الجزء الثالث، ص١٦٤٢-١٦٤٣، و:

- Cf. B. KELLY: **Britain and the Persian Gulf, 1795-1880, Oxford C. Press**, 1968, Pp. 290-342.

٦٧- انظر عمارة، **المرجع السابق**، ص ١٨٠-١٨٣.

٦٨- انظر لاحقاً.

٦٩- جمال زكريا قاسم، **دراسة لتاريخ الإمارات العربية**، (١٨٤٠-١٩١٤)، دار البحوث العلمية، الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٧٤، ص٦٦.

٧٠- انظر البطريق، **المرجع السابق**، ص٩٥.

٧١- لوريمر، **المصدر السابق**، الجزء الثالث، ص١٦٤٠ وما يتبع.

٧٢- انظر عمارة، **المرجع السابق**، ص١٧٦-١٧٩.

٧٣- طربين، **المرجع السابق**، ص٢٧١.

٧٤- لوريمر، **المصدر السابق**، الجزء الثالث، ص١٦٤٠.

٧٥- كل الدراسات والتقارير تؤكد ذلك، انظر على سبيل المثال عمارة، **المرجع السابق**، ص١٥٦-١٦١، وانظر الرافعي، **المرجع السابق**.

٧٦- **المرجع نفسه**، ص١٧٩.

٧٧- **المرجع نفسه**، ص ١٧١-١٩٨.

٧٨- وهنا تبدو الحقيقة صارخة من المقارنة بين القررات السلطانية "المعلنة" وبين التسارع في الحركة المستمرة لهذا الاستيطان، وليكن المرجع هنا مؤلف ذو انتماء عثماني وهو أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة الأزهر،، عبد

العزيز محمد الشناوي، **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، جامعة القاهرة ١٩٨٠، الجزء الثاني، ص٩٧٣-١٠٠٢.

٧٩- عمارة، **المرجع السابق**، ص ١٧٦-١٧٩.

٨٠- راجع الرافعي، **المرجع السابق**، (العنوان) وغرايبه، المرجع السابق، ص٨.

٨١- انظر بحثنا، نجاح محمد، "**النظام العالمي: الماهية والصيرورة**" (مجلة المعرفة، دمشق، العدد ٣٧٤ تشرين الثاني ١٩٩٤، ص ٦٩-٩٤، وللمؤلفة نفسها، **المتغيرات والنظام العالمي وسورية المعطيات السابقة نفسها...**).

Directeur De La Revue	**Dr. Abdul Gani Ma'Al Bared** **Recterur de l'Université de Damas**
Directeure De La Rédaction	**Muhammad Mouhaffel**
Rédacteur En Chef Adjoint	**Abdul Karim Ali**